ف. ب. ماير

تعريب القمص مرقس داود

يوحنا المعمدان

مكتبة المحبة

مكتبة المحبة

يوحنا المعمدان

تأليف : ف . ب ماير
ترجمة : القمص مرقس داود

ملتزم بالطبع والنشر
مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة المعرب

باسم الآب والابن والروح القدس اله واحد أمين

كان الأقبال المتزايد على قراءة هذه السلسلة من سير رجال الكتاب المقدس باعثا لى على الإستمرار فى ترجمة باقى السير ونشرها، سيما بعد أن أشتد على الضغط من الكثيرين من القراء الأعزاء الذين إعترفوا بأن الكتب السابقة كانت بركة لنفوسهم ، وكان من نتائج هذا الضغط أن أعيد طبع بعض هذه السير .

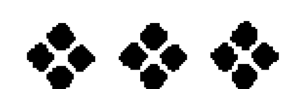
وها أنا أقدم إليهم سيرة يوحنا المعمدان الذى تكفيه هذه الشهادة التى نطق بها رب المجد وهى أنه « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (مت ١١ : ١١) .

نحن نعيش فى عصر فترت فيه محبة الكثيرين واشتد الضعف بل الفتور بل الإرتداد، فما أكثر الذين تخور عزائمهم ويتنكرون لأبسط مبادىء المسيحية لكسب مصلحة مادية زائلة، أو خوفاً من خسارة تافهة. وما أقل الذين يثبتون ثبات الجبال فى سبيل التمسك بالحق والشهادة له والدفاع عنه مهما كلفهم ذلك من تضحية .

بهذا فنحـن أحـوج ما نكون فى هذا العصر المادى الأنانى إلى سيرة هذا البطل العظيم الذى لم يتردد عن مواجهة هيرودس الملك الطاغية لكى يعلن له أنه قد داس الحق الإلهى ، وهو يعلم أن تصرفه هذا سوف يكلفه حيـاته ،،

القس مرقس داود

٢٠ / ٥ / ١٩٥٧



مقدمة الطبعة الثانية المعرب

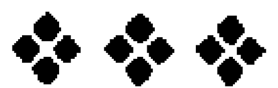
شكراً لإلهنا الصالح من أجل بركاته الجزيلة التى سكبها على هذه السلسلة المباركة عن حياة أبطال الكتاب المقدس ، حتى أعيد طبع بعضها مرتين ، والبعض الأخر ثلاث مرات ، بسبب تلهف الكثيرين على قراءتها .

وهذه الطبعة الثانية لحياة « يوحنا المعمدان » ، أقدمها للقراء الأعزاء كطلبهم وإلحاحهم .

والله الذى عمل بقوة فى حياة المعمدان حتى صار بركة كبيرة لجيله ، أتوسل إليه أن يبارك فى هذه التأملات الهادئة عن سيرته لكى تكون واسطة إنتعاش حياة من يقرأونها ، وأن يبارك كل وسائط النعمة لكى تـؤول كلها لمجد إسمه القدوس وخير النفوس ،،

٢٠ مايو ١٩٧٠

القس مرقس داود



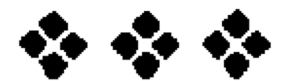
مقدمة المؤلف

لقد طالما سحرتنى حياة وصفات يوحنا المعمدان ، وإننى أشكر الله الذى سمح لى بتدوين هذا السفر . لكننى أشكره شكرا أوفر من أجل الساعات التى صرفتها فى دراسة هذه السيرة كما وردت فى البشائر . إننى لا أعرف شيئا يهب النفس فترة إستجمام بهيجة من ضغط متاعب الحياة ومشاغلها مثل التأملات العميقة فى شخصيات الكتاب .

إن المعمدان خليق بالتقدير والإعجاب من كل البشرية كحلقة الإتصال بين العهد القديم والعهد الجديد ، فهو الذى ختم الأول وافتتح الثانى ، كأعظم المولودين من النساء ، كالبواب الذى فتح الباب للراعى الحقيقى ، كموبخ جرىء للملك من أجل خطيته الدنيئة .

من نواح كثيرة لا يمكن لمثل هذه السيرة أن تتكرر . لكن روح التواضع والشجاعة والتعبد لله والولاء التام للحق التى كانت بارزة فيه يمكن أن تؤثر فينا تأثيراً حيا . نحن يمكن أن نمتلىء من روح إيليا وقوته كما إمتلأ المعمدان، ويمكن أن نشير بشفاهنا وحياتنا لمخلص العالم صارخين قائلين : « هوذا حمل الله » .

ف . ب . ماير



- ١ -

أهمية سيرته

لم يقم بين المولودين من النساء
من هو أعظم من يوحنا المعمدان
لم يقم بين المولودين من بنات حواء
من تأججت فى صدره مثل تلك النيران
ولما أشرق شمس البر بنوره الوضاء
ظل هو منيرا بنفس اللمعان

ف . و . هـ . مايرز

إن كوكب الصبح المنير فى غبش الفجر هو انسب رمز يمكن أن تقدمه الطبيعة للسفير الذى نادى بشروق شمس البر ، والذى بعد ثلاثمائة سنة حقق نبوة أخيه ملاخى النبى ، الذى تنبأ بشروق تلك الشمس والشفاء فى أجنحتها .

إن كل علامة تشهد بمجد المعمدان الفريد. ليس هذا معناه إن حياته تميزت بالأيات البينات ، كبركة كوار دقيق الأرملة ، أو نزول نار من السماء لتلتهم المذبح والحطب ، فقد قيل صراحة «ان يوحنا لم يفعل أية واحدة» (يو ١٠:٤١) .

وليس معناه إنه إمتلك ثروة ضخمة ، فهو لم يكن من أصحاب الثراء « الذين يلبسون الثياب الناعمة فى بيوت الملوك » (مت ١١ : ٨) .

وليس معناه إنه كان خطيبا فصيحا كاشعياء وحزقيال ، فإنه قنع بأن يكون مجرد « صوت صارخ » قصير مرعد يرن فى أجواء سهول الصحراء .

ومع ذلك فقد قال عنه الرب إنه « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان (مت ١١ : ١١) وفى ظرف مدة وجيزة ، ستة شهور فقط ، صار نبى البادية الشاب ، مركزا خرجت إليه كل الأرض . رأينا الفريسيين

والصدوقيين ، الجنود والعشارين ، تذهلهم خدمته . رأينا مجلس السنهدريم يضطر لفحص دعواه ، رأينا ولاة فلسطين يرتعدون على كراسيهم . أما هو فقد ترك إسما وتأثيرا لن يزولا من العالم .

ولكن هنالك ناحية أخرى فى حياة وخدمة المعمدان تسترعى إلتفاتنا . فإنه كان حلقة الإتصال بين العهدين ، فيه وصلت اليهودية إلى أسمى معانيها ومبانيها . وفيه وجد العهد القديم أنبل مفسر له . لذلك كان واضحاً إنه على فمه يعلن الناموس والأنبياء قصدهما الإنتقالى ، وأن ذاك الذى حمل شعلة النبوة العبرانية ، بكيفية لم يبلغها أى شخص قبله ، يجد أنه فى إستطاعته وفى قلبه أن يقول « ان هدف كل النبوة ، وقصد الناموس الموسوى ، وغاية كل الذبائح ، ومشتهى كل الأمم ، قد أقترب » ، وللحال إذ التفت إلى الراعى الحقيقى ، الذى كان واقفا على الباب ، والذى فتح له البواب ، وإذ إنحنى أمامه عندما جاز من الباب ، صرخ قائلا « هذا هو الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء ، يسوع الناصرى الذى كان ينبغى أن يأتى » (يو ١ : ٤٥) .

لا توجد دراسات كثيرة توضح مجد المسيح الفائق بكيفية أوضح من دراسة سيرة المعمدان والتأمل الهادىء فى حياته . ولد الأثنان فى وقت واحد ، نشأ منذ ولادتهما فى ظروف وطنية واحدة ، وبين نفس التقاليد الدينية والأمال الواحدة ، لكن أوجه الشبه تنتهى هنا سريعاً . صحيح أن يوحنا المعمدان تتجسم فيه أنبل مميزات الشعب اليهودى . فيه نرى مثلا بارزا لأسمى ما يمكن أن تصل إليه حياة المرء بعد ثمانمائة سنة من الرؤى الإلهية والتدريب الإلهى . أما يسوع فإنه إبن الإنسان الذى تجمعت حوله الأعماق والطول والعرض ، التى لا يمكن تفسيرها سوى بالنظرية التى نطق بها يوحنا « الذى يأتى من فوق هو فوق الجميع » (يو ٣ : ٣١) .

كانت حياة كل من الأثنين ممتلئة غيرة وقصيرة ، تركزت خدمة الأول فى ستة شهور ، وخدمة الثانى فى نحو ثلاث سنوات .

فى كل من الحالتين نجد حماسة فى بداية الأمر نحو شخصيهما عندما أعلنا ملكوت الله ، كالزهور التى تزين الأرض بعد المطر ، لكننا بجانب هذا نجد الحقد غير المستتر الذى ملأ قلوب قادة الدين فى وقتهما .

فى كل من الحالتين نرى ساعات الخدمة المشرقة القصيرة ، اعقبتها فى الحال سماء ملبدة بالغيوم الكثيفة ، وهذه أعقبتها عاصفة من الحقد البغيض

حتى الموت . « وتكون جثتاهما على شارع المدينة العظيمة التى تدعى روحيا سدوم مصر » (رؤ ١١ : ٨) .

فى كل من الحالتين التف حول كل شخصية حفنة من التلاميذ المخلصين الذين حزنوا جدا لموت معلمهم ، وأخذوا جثته التى مثل بها العدو ، ودفنوها فى القبر . أما الساكنون على الأرض فقد شمتوا بهما وتهللوا وأرسلوا هدايا بعضهم إلى بعض لإنهم قد عذبتهم كلماتهما النارية (رؤ ١١ : ١٠) .

لكن هنا تنتهى أوجه الشبه . فإن قصد حياة الواحد إنتهى بموته ، أما قصد الثانى فقد بدأ بموته . فى حالة يوحنا كان الموت إستشهاداً لمع بمجد عظيم وسط ظلمة أيامه . أما فى حالة يسوع فقد كان الموت ذبيحة رفعت خطية العالم .

فى حالة يوحنا لم تكن هنالك قيامة مباشرة ، سوى ما يخلفه جميع الصالحين بعدهم من كلمات وتأثير ، أما معلمه فإن لم ير فسادا إذ لم يكن ممكنا أن يمسك منه ، وفى قيامته بدأ يستخدم سلطانه الواسع فى قلوب البشـر وإرادتهـم .

عندما أشهر سيف هيرودس فى سجن ماكيرا ، وقطع رأس يوحنا ، إنقطعت أيضا الرابطة التى كانت تربطه بتلاميذه الذين إندمجوا ضمن إتباع المسيح ، ولكن عندما ظن الجند الرومانيون أن مهمتهم قد أكملت ، وعندما إنتهت حياة الرب على الأرض بهذه العبارة « قد أكمل » ، بدأ تلاميذه يجتمعون فى العلية ، وظلوا على هذه الحال أربعين يوما ، حتى حل عليهم الروح القدس ، فتأسست الكنيسة التى تعتبر أقوى هيئة شهدها العالم .

كلما بعد الناس عن جيل يوحنا قل نفوذه على العالم ، أما يسوع فهو ملك كل الأجيال ، إنه يخلق ، ويصور ، ويخرجهم . هو معنا كل الأيام إلى انقضاء الدهر . لسنا مطالبين بأن نرجع إلى الوراء إلى الأجيال السحيقة لنجده فى المهد أو بين ذراعى مريم العذراء المطوبة ، فى سفينة الصيد ، أو على الجبل ، على الصليب ، أو فى القبر . بل هو هنا ، بجانبنا ، معنا ، فينا، « كل الأيام » .

كان يوحنا إذا مجرد شعلة مشتعلة منيرة رفعت لحظة فى الجو المظلم ، أما يسوع فكان هو ذلك النور. ان المقارنة بين نور النجم الذى يعجز عن إضاءة صفحـة كتابك أو وجـه سـاعتك وبين الشـمس ، والمقارنه بين الرسول والملك ،

والمقارنة بين الجدول الصغير وبين المحيط ، تشبة المقارنة بين يوحنا وبين ذاك الذى شعر أنه ليس أهلا أن ينحني ويحل سيور حذائه . صحيح أنه كان أعظم مولودى النساء، وإنه كان «مرسلا من الله». لكن جاء بعده من كتب على جبهته أنه اله ، وإن رسالته إلهية ، ومن أغلقت خلفه أبواب الماضى كما تغلق الأبواب بعد مرور الملوك منها ، ومن علقت على منطقته مفاتيح الأبواب الدهرية .

إن قراءة رواية الإنجيل الهادئة الرائعة دون الإلمام بالتاريخ المعاصر يفوت علينا أحد دروسه العميقة ، ذلك الدرس هو أن تلك التقوى وروح فعل الخير إنتصبتا وسط عصر يعتبر أشد العصور فسادا ودعـارة . كـان ذلك العصـر لا يساعد بأى حال من الأحوال على التحلى بأسمى الأخلاق . فخراف الله قد طال عليها ترك المراعى الخضراء ، ومياه الراحة ، والسلام الخارجى وكانت تسير فى وادى ظل الموت ، وكانت الحياة الوطنية قد بدأت تمزقها فعلا تلك النكبات التى كانت كل خطوة محفوفة بأعداء سلامهم ، كان الذئب فى الواقع قادما ، وكانت الحياة الوطنية قد بدأت تمزقها فعلاً تلك النكبات التى تنذر بمرور حقبة فى تاريخهم ، وبلغت ذروتها بسقوط أورشليم ، ذلك السقوط الذى قال عنه يسوع : إنه لم يكن مثله ولن يكون مثله فى تاريخ العالم .

كان هيرودس متربعا على العرش ، كان شخصا ماكرا قاسيا شهوانيا . كان الهيكل الفخم الذى حمل إسمه مشهدا للخدمات الكهنوتية والطقوس الدينية المختلفة ، وكانت الأعياد الوطنية العظيمة – عيد الفصح ، وعيد المظال ، وعيد الخمسين – تمارس بمظاهر فى غاية الفخامة ، وكانت تجذب إليها جماهير كثيرة من كل العالم كان يحتفظ فى كل أرجاء الأرض بالمجامع بمنتهى الحرص ، وكان جماهير من الكتبة ينشغلون فى دراسة الناموس دراسة دقيقة جداً . وفى تعليم الشعب . كان ذلك العصر من جهة مظاهر التقوى الخارجية من أحسن العصور . لكن كان يتوارى وراء تلك المظاهر الخـلابة أبشع وأحط الأخلاق ، وأكثرها إمعانا فى الفساد .

لابد أن الأنباء قد وصلت جبال اليهودية إلى زكريا وإمرأته المتقدمين فى أيامهما ، وإلى مريم ويوسف فى الناصرة ، عن مقتل ارستوبولس ، وعن قتل مريمنى البشع وإبنها ، وعن قتل هيركانوس المتقدم فى السن .

لابد أنهم كانوا يئنون تحت الإضطهاد الأليم الذى نهب بمقتضاه هيرودس من الطبقة الفقيرة الأمـوال الطائلة التى بعثـرها على قصوره وقلاعه ، وعلى بنـاء مـدن جـديدة .

ولابد أن الأنباء كانت تأتى فى صدمات متواليات من الألم الممض لأصحاب القلوب الأمينة الذين كانوا ينتظرون فداء إسرائيل بمنتهى اللهفة ، بسبب ابطائه وبسبب شدة الحاجة إليه - كانت الأنباء تأتى إليهم أن هيردوس أدخل العادات الوثنية والألعاب الوثنية فى كل مكان . وتجـاسـر على وضـع النسر الرومانى فى المدخل الرئيسى للهيكل ، ونهب قبر داود ، وأنه ألغى مجلس امتهم العظيم ، وأعمى عينى يوحنان الرجل الطيب ، وأن قادة الدين - مثل قيافا وحنان - كانوا يقبلون بسهولة أغضاء الطرف عن جرائم القادة المدنيين طالما حفظت لهم كرامتهم ومراكزهم ، وأن إستقلال الأمه الذى جاهد من أجله يهوذا وإخوته أثناء حـرب المكابين قد داسته بالأقدام رومـا التى فرحت بالفوضى التى عقبت موت هيرودس الشنيع .

وعلى أى حال فإنهم كانوا لا يزالون يحجون إلى أورشليم سنويا ، ويشتركون فى الإحتفالات العظيمة التى طمست معالم ذكريات الماضى بسبب فخامة مظاهرها الخارجية . ولكنهم أدركوا أن المجد قد زال ، وأن قشور المظاهر الخارجية لا تستطيع أن تقاوم طويلا تيار الروح الحربية القادمة ، ومحبة الظهور ، وفساد المدنيه الرومانية .

عندما كانت الأعياد تنتهى كان هؤلاء الأتقياء يعودون إلى بيوتهم بين الجبال ، وإذ يلقون أخر نظرة على تلك المدينة الجميلة كانوا يصرخون قائلين : « يا أورشليم . يا أورشليم » .

أن أحلك ساعة هى تلك التى تسبق الفجر . وفى ذلك الوقت لابد أن الذين كانوا ينتظرون فداء إسرائيل كانوا يبحثون بدقة وبشغف نبوات العهد القديم . لم يكن لديهم أقل شك فى قرب مجىء المسيا ، سيما وأن مدة السنوات التى حددها دانيال كانت قد أوشكت على الإنتهاء . وكان القضيب قد زال من يهوذا والمشترع من بين رجليه . حتى العالم الوثنى كان ينتظر ملكا . وقد استنتج العرافون بكتاباتهم

القديمة ، والمتصوفون فى صوامعهم ، والمجوس بدراستهم لأمجاد السماء غير العادية – استنتجوا قرب مجىء ذاك الذى سوف يعيد العصر الذهبى .

واذ كان أولئك الاتقياء يتحدثون كثيرا بعضهم الى بعض والرب يصغى لابدانهم شعروا أنه ان كان مجىء الرب الذى ينتظرونه قد اقترب فلابد أن يكون مجىء ذاك الذى يمهد له الطريق قد إزداد إقترابا . ولذلك كان يوقظهم صوت وطأة القدم ، كانوا يصغون الى كل صوت ويفحصون بتدقيق ملامح كل وجه ، كانت قلوبهم تحدثهم دواما « هـوذا أت » . كانوا يترقبون فى كل لحظة الصوت ينادى قائلا « أعدوا أعدوا السبيل . نقوه من الحجارة أرفعـوا الراية للشعب . قولوا لإبنة صهيون هوذا مخلصك أت » (اش ٦٢ : ١٠ و ١١) . ولقد تحققت كل هذه الإنتظارات بـولادة يوحنا المعمدان .



- ٢ -

بيت زكريا

(لوقا ١)

وسط هموم الحياة الصاخبة يوجد أنـــاس متهللــون فــرحــون ينشدون مــن تسبحات الأبد وقلوبهــم تغنى وسط الظروف المعتمة متممين أعمالهم اليوميـة بأوفـر نشـاط لأن نفوسهم تنشد الأغـانى المقدسة .

(كبل)

إننا مدينون للبشير لوقا بالتفاصيل التى رواها عن تلك الظروف التى سبقت ميلاد يوحنا المعمدان . فهو يخبرنا بأنه قد تتبع كل شىء من الأول بتدقيق . وهو بهذه العبارة « من الأول » يوحى إلينا أنه قد بحث بمنتهى الدقة تلك الأحداث غير العادية التى أنبعث منها - كما من جذور متشعبة - إنتشار المسيحية إنتشارا واسعاً . من منا لم يتتبع بعض الأحيان جذور نبات اكتشف حديثا حتى وصل الى أخر تلك الجذور وإنتزعها من الأرض دون أن يؤذى أقل واحدة من الشعيرات الصغيرة ؟ هكذا نجد هذا الطبيب الصالح - الذى تعود بحكم مهنته دقة البحث والاختبار - يرجع للوراء الى المناظر والحوادث السابقة لما رواه أخوته الانجيليون الأخرون .

وماذا كانت تلك المصادر التى استقى منها هذا الانجيلى الثالث معلوماته ؟ هذا مالا نستطيع تحديده بدقة . لكن يمكن أن نقدم اقتراحا تدعمه بساطة العصور الأولى ، ونعمة الله التى لا يعبر عنها ، وجمال الأصحاحين الأولين من إنجيله ، ذلك الجمال المنقطع النظير. فإن المفسرين طالما لفتوا النظر الى هذين الأصحاحين فريدان فى طبيعتهما ، ويؤكدون بأنهما يعزيان الى شخصية أخرى غير تلك التى قدمت إلينا سائر المعلومات عن حياة الإنسان . ولماذا لا نقرر

نحن أنهما يعزيان الى العذراء المباركة نفسها ؟ من المسلم به أن الأمهات هن خير من يتحدث عن تاريخ أبنائهن فى سنواتهم الأولى ، فإنهن لا يعتورهن أقل ملل ملاحظتهم أو فى التحدث عن الغرائب التى تصدر منـهم ، وكانت مـريم بصفـة خاصة « تحفـظ جميع هذه الأمور فـى قلبها » وتتـأمل عميقا فى تلك الظروف العجيبة التى تركت حياتها أثر لا يمحى.. فتلك التى أستطاعت فى نشوة فرحها أن تنطلق بتسبحتـها الـرائعـة العجيبـة (لو ١ : ٤٦ - ٥٥) كانت تستطيع - حتى من الوجهة البشرية البحتة - أن تملى الكلمات التى دونت بها الرواية . وعلى أى حال فإن الحوادث نفسها إزدادت رسوخا فى ذاكرتها فى أيامها الأخيرة ولو نسيت ذكريات أخرى ، عندما يكسح الفيضان بعض الرمال الدقيقة تتبقى الصخور الصلبة وقد زالت عنها تلك الرمال .

كانت هذه الرواية بأيد أمينة لتدوينها . بالرغم من تجعد وجه مريم العذراء بسبب الألام التى عصرتها ، فقد كان يلمع بسبب النور المقدس والذاكرة المباركة . إذ جلس لوقا بجانبها ممسكا قلمه بيده سمح بسرد روايتها دون توقف ، وكان هو يدونها على القرطاس . وفى بعض الأحيان كان يقاطعها بتوجيه بعض الأسئلة إليها . وإذ كان على هذه الحال أقترب إليهما شخص ثالث فصار أقرب إليهما من قرب الواحد للأخر ، وهو نفس الحبيب الذى تحدثا عنه ودونا سـيرته إقتـرب إليهما لكى يذكرهما بكل شىء بواسطة الروح القدس ، بكل ما قاله لهم .

كانت رواية يوحنا المعمدان فى الواقع جزءا من روايه يسوع ، حتى أن العذراء المباركة لم يكن ممكنا أن تـذكر الواحدة دون الأخرى . وعلاوة على هذا فقد كانت اليصابات « نسـيبة » لها كما قال الملاك . ولعلها كانت إبنة خالتها أو خالها أو إبنـة عمتها أو عمها . ولهذا كان طبيعيا أن تلجا إليها فى دهشتها وهى عذراء ، أو بالأحرى فى نشوة فرحها . وبالرغم من تفاوت السن فقد أرتبطت مريم بنسيبتها برابطة متينة ورقيقة . وكان طبيعيا جدا أن ما حدث لاليصابات قد أثر فى نفس العذراء المباركة تأثيرا عميقا .

ولهذا فمن المرجح أن تكون تفاصيل بيت زكريا قد وصلت إليـنـا عن طريق شفتى أم الرب نفسـها .

(١) الهادئون فى الأرض :

إن لله مختاريه فى كل الأجيال ولو اختفوا عن العيان . وعندما يتمزق العالم بسبب الإنقسامات والحروب ، عندما يحل به الخراب والدمار بسبب السيف والنار ، وعندما يغوص فى بحار من دماء بنيه ، يسمع هؤلاء المختارون الصوت للدخول الى مخادعهم والبقاء فيها الى أن تهدأ العاصفة . هذا ما حصل أيام أخآب عندما رأت عين الله الفاحصة سبعة آلاف ركبة لم تجث للبعل . كم من نفوس غيورة إجتمعت معا لتقضى أوقاتها فى العبادة وعمل الرحمة لما عصفت الرياح على الكنيسة فى كل العصور الماضية . هذا ما حدث وقت حرب الثلاثين عاما التى دمرت المانيا عندما انسحب « الهادئون فى الأرض » من ميدان الأعمال البشرية لكى ينتظروا الله ويعزوا قلوبهم بالترانيم والتسابيح التى فاحت منها رائحة عطريه كرائحة الزهور لما تعصر .

هذا ما حدث فى الأيام موضوع حديثنا الآن . لقد غطت الظلمة الأرض ، والظلام الدامس الامم (اش ٦٠ : ٢) . لقد بلغت قساوة هيرودس ومكره وتعطشه الى سفك الدم أقصى الحدود . وكانت البلاد تتساءل فى خوف عن الإتجاه الجديد الذى تتجه اليه جرائمه . وكان الكهنوت خاضعا لاهوائه ونزواته . وبدت الربط الإجتماعية منحلة . ولم يكن ثوداس ويهوذا الجليلى - اللذان ذكرهما غمالائيل - سوى عينة من اللصوص الذين شقوا عصا الطاعة ونهبوا البلاد لا عالة إتباعهم . لقد وجدت الشراهة والظلم فرصة سانحة لسلب مجد الأمة وإفساد حياتها الوطنية .

فهل يستغرب أن يجتمع البقية من الأتقياء فى جماعات صغيرة بأمكنة منعزلة غير معروفة لكى يعزوا أنفسهم فى الله ؟ يحدثنا الكتاب مثلا أن حنة تحدثت عن الطفل يسوع - الذى يرجح أنها قد ضمته الى حضنها - « مع جميع المنتظرين فداء أورشليم » (لو ٢ : ٣٨) .

أى شىء لا ندفعه لنعرف شيئا أكثر عن أعضاء هذه الجماعة المباركة التى احتفظت بأسمى التقاليد وأظهرت فى حياتها بعضا من أجمل آثار ديانة الآباء والأجداد ؟ ان الظلمة الحالكة التى سادت جيلهم دفعتهم أكثر فأكثر ليدرسوا نبوات أنبيائهم العبرانيين ، ويتمنوا إتمامها . كثيرا ما كانوا يشتهون الصعود الى الجبال ، والتطلع الى السهول المترامية الأطراف ، ليتبينوا مجىء القدير

قادما من أدوم ملطخة ثيابه بدماء أعداء إسرائيل . عندما كانوا يجتمعون ، تحت الكرمة أو التينة ، فى الطريق أو فى بيوتهم المتواضعة ، كان الحديث يجرى عن رجائهم المنتظر . وعندما كانوا يتطلعون الى حالة بلادهم التعسة ، أرض الآباء ، أرض ابرهيم ، مدينة داود ، لابد إنهم كانوا يصرخون : « الى متى أيها الرب القدوس ، متى يأتى من له حق الجلوس على عرش أبيه داود ، الذى ليس لملكه إنقضاء ؟ اخرج من ديارك يا رئيس ملوك الأرض . ألبس ثيابك الملكية ، وأمسك صولجانك ذا السلطة غير المحدودة ، لأن صوت العروس يدعوك الآن ، وكل الخليقة تتنهد طالبة التجديد » . هذا ما نطق به الشاعر الانكليزى العظيم ملتون فى هذه الأيام الأخيرة .

لم نقرر غير الحقيقة فى وصف أولئك الذين كانوا يترقبون شروق كوكب الصبح . فقد تحدث عنهم الإنجيل بكل وضوح . حدثنا عن سمعان البار التقى الذى أوحى اليه بالروح القدس إنه لا يرى الموت قبل ان يرى مسيح الرب (لو ٢ : ٢٥و٢٦) ، وعن حنة النبية التى لم تفارق الهيكل عابدة باصوام وطلبات ليلا ونهارا (لو ٢ : ٣٧) وعن نثنائيل الاسرائيلى حقا الذى لا غش فيه ، والذى ربما يكون قد بدأ يجلس عند حافة السلم الذى وصل بين تبنته وبين أعلى السماوات ، وعن مريم العذراء القروية التى ولدت من بيت كريم - ولو كان فقيرا - والتى التحفت بثوب ناصع البياض ، التى كانت تنتظر هى أيضا خلاص اسرائيل فى أحلك الساعات ، وعن زكريا وزوجته اليصابات اللذين « كانا كلاهما بارين أمام الله سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم » .

إن أيامنا نحن أيضا أيام مظلمة . فالظلمة تجتاحنا من كل ناحية . ليت أولاد الله يجتمعون معا ليشجعوا بعضهم بعضا فى إيمانهم الاقدس ، ويتحدثوا عن آمالهم العظيمة ، لأن ذاك الذى أظهر مرة ليبطل الخطية بذبيحة نفسه سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه (عب ٩ : ٢٦ و ٢٨) . « فإن سيرتنا نحن هى فى السموات (١) التى منها أيضا ننتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يخضع كل شىء » (فيلبى ٣ : ٢٠ و ٢١) .

---

(١) أو « فاننا مواطنو السموات » حسب الترجمة الفرنسية .

وهذه الروح التى تكن فى غير المنظور الأبدى ، والتى تعتمد على حلول ابن الله فى القلب بالايمان ، والتى تطيل التفكير فى خطايا وآلام العالم المحيط بنا ، هى التى تنبعث عنها أجل الأعمال من أجل الله على الأرض . ان أمثال مريم الذين يجلسون عند قدمى المسيح يقومون ليدهنوه من أجل دفنه . ان الذين ينتظرون الرب يجددون قوتهم (اش ٤٠ : ٣١) قد يتجاهلهم العالم ولا يبالى بالالتفات الى دموعهم وآلامهم ، ولكنهم لا يسمحون لأنفسهم بأن يقللوا من نشاطهم ومساعيهم وتضحياتهم من أجله . انهم يجازون تجاهله بنشاط أوفر ، وجحوده بتضحيات أغزر ، ويكفيهم أن يبرز من صفوفهم من يفتح صحيفة جديدة فى تاريخ البشرية كيوحنا المعمدان . . . ويعجل بمجىء المسيح .

(٢) والدا المعمدان :

لما ينتهى المرء من عبور الصحراء القاحلة الممتدة من سينا الى حدود فلسطين الجنوبية ، تلك الصحراء الشديدة الحرارة ، التى اغتبط فيها إيليا بالرتمة إذ ظللته من الحرارة اللافحة – يجد أمامه سلسلة جبال هى بداية جبال يهوذا (لو ١:٣٩) . وللحال يبدو له كأن الأودية تضحك وتغنى ، بعكس البرية القاحلة التى عبرهافالمراعى تزداد أمامه خضرة حتى يفهم كيف أستطاع نابال وغيره من الرعاة أن يجدوا الكفاية لأغنامهم الوفيرة العدد . واذ يتقدم الى الأمام يجد هنا وهنالك بعض الخرائب التى تدل على مواقع المدن والقرى التى لا يسكنها الآن إلا إبن آوى أو الأعراب المتجولون . بين هذه الخرائب يجد المرء اليوم موقع القرية التى تدعى « جته » وهى موطن زكريا الكاهن وإمرأته اليصابات .

وبالتأمل فى إسميهما يمكن الحكم بأن والدهما كانوا أتقياء . فإن الكلمة « زكريا » تعنى « من يذكره الله » كأنه قد قصد به أن يكون مذكرا مستديما لأقرانه بما وعد الله ، ومذكرا لله بما كانوا يتوقعونه من يده . أما الكلمة « اليصابات » فانها تعنى « قسم الله » أو « الله حلفها » كأن شعبها كانوا يلجأون بصفة مستمرة لتلك المواعيد والعهود التى بها أقسم الله بنفسه (اذ يكن له قسم أعظم يقسم به) أن لايتركهم ولا يهملهم ، وأن يأتى شيلوه عندما يزول القضيب من يهوذا والمشترع بين رجليه .

كان زكريا كاهناً « من فرقة ابيا » وكان يذهب الى أورشليم مرتين فى السنة لتأدية وظيفته مدة إسبوع مكون من ستة أيام وسبتين . يحدثنا يوسيفوس بأنه كان هنالك عشرون ألف كاهن فى اليهودية وقتئذ ، وكان

الكثيرون جدا منهم قد نجسوا ودنسوا خدمة الهيكل كأولئك الذين شجبهم ملاخى . كانت أخلاق الكهنة العامة قد تلوثت جداً بسبب فساد جيلهم وكانوا فى مجموعهم قادة عميانا للعميان .

ومع ذلك فقد كان هنالك الكثيرون ممن تعمقت روحانيتهم . لأننا نجد بعد الصلب أن جمهورا كثيراً من الكهنة أطاعوا الايمان وانضموا الى اتباع المسيح (اع ٦ : ٧) . ولا شك انه كان من بين هؤلاء زكريا الذى قيل عنه وعن زوجته – وكانت هى أيضا من بنات هرون– إنهما « كانا كلاهما بارين أمام الله » .

لقد دونت هذه العبارة بكل تدقيق. فإن الكثيرين يمكن القول عنهم إنهم أبرار «أمام الناس».أما هذان فكانا بارين «أمام الله» .كانت حياتهما اليومية وسلوكهما وتصرفاتهما تتمشى مع طقوس الناموس الطقسى ووصايا الناموس الأدبى .

ولدى التأمل فى الإقتباسات الكثيرة الدقيقة من الأسفار المقدسة التى شحنت بها تسبحة زكريا، يتضح أنه كان دائم التأمل بعمق فى الأسفار المقدسة، ولنا ما يعزز هذا فى شهادة الملاك لصلواته التى كانت ترتفع نهارا وليلا ، فى كل هذه كانا « بلا لوم» ، ولم يقل «بلا خطية »– وفق مقياس الله الكامل للإستقامة – بل قال « بلا لوم » ، لأنهما عاشا وفق أكمل حد لمعرفتهما عن إرادة الله . كانا بلا لوم ، مسالمين ، إبن وإبنة لله ، بلا عثرة وسط جيل ملتو ومعوج، أضاءا وسطه كأنوار فى العالم ، رافعين كلمة الحق بين الأقوياء والأصدقاء .

لكنهما عاشا ، وقد خيمت عليهما ظلمة حزن شديد . فإنهما « لم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقرا وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما » . عندما كان هذا الكاهن الصالح يخلع ثيابه الكهنوتيه البيضاء ويعود الى بيته بين الجبال لم يكن هناك صوت أطفال يحييه . كان يبدو مؤكدا أن أسرتهما سوف تتلاشى قريبا وتقبر عالم النسيان . وأنه سوف لا يوجد إبن يقف بجانبهما ساعة المـوت ، وأنه سوف لا تكون هنالك حلقة إتصال بينهما وبين المسيا الذى كان كل أب عبرانى يمنى نفسه بأن يكون جـده .

«لم يكن لهما ولد» ،لذلك أعتبر نفسيهما تحت غضب الله. وأعتبرت الأم بصفة خاصة ان عارا قد لصق بها. واننا لنجد تعبيرا عن مرارة نفسها فى تأملاتها عندما تبينت بسرور كيف تدخلت معها العناية الإلهية فصرخت قائلة « هكذا قد فعل بى الرب فى الأيام التى نظر الى لينزع عارى بين الناس » (لو ١ : ٢٥) .

لكن لولا هذا الحزن لما كانا قد تأهلا لقبول أول إعلان عن إقتراب مجىء المسيا . ان الحزن يفتح أعيننا ويأمرنا بأن نرى رؤى داخل الحجاب لايمكن أن يصفها أولئك الذين لم يبكوا .

الحــزن : يقودنا للصعود الى جبل الرؤية ويكشف أمامنا المناظر التى حجبت أولئك الذين لا يجرأون على صعود الجبل الوعر .

الحــزن : يعدنا لنرى الملائكة واقفين جانب مذبح البخور فى ساعة الصلاة ، ونسمع كلمات لا يسوغ للشفاه البشرية النطق بها قبل إتمامها .

الحــزن : يدفعنا لفتح بيوتنا للذين حطم الحزن قلوبهم ، والذين يأتون إلينا طالبين تعزية وضيافة ، فنتبين أخيرا أننا أضفنا ملائكة ونحن لا ندرى ، وأضفنا أم الرب عندما أضفنا فتاة منزعجة كان يفكر خطيبها فى أن يخليها سرا ، أى يطلقها (لو ١ : ٤٣) .

إذا فلا تجزع من الحزن . إنه لا يستمر الا ليلة واحـدة قصيرة . أما الفرح فيأتى فى الصباح ليبقى طويلا ، قد يأتى بعد إنتظار طويل ، وبعد صلاة يبدو أنها فاشلة . قد تخور العزيمة ويمرض القلب تحت ضغط الحزن . قد يبدو أنه قد تبدد كل أمل . لكن « بالنهار (فى الصبح) يوصى الرب رحمته » (مزمور ٤٢ : ٨) . وعندئذ يتبين بأن زرع الدموع والوحدة والوحشة والألم كان خطوة ضرورية تمهيدية للرسول السماوى الذى يؤكد لنا بأن صلاتنا قد سمعت وهو « واقف عن يمين مذبح البخور » .

(٣) إعــلان المــلاك :

فى يوم خالد من أيام الخريف ، عندما كانت الأرض محملة بمحصول العنب ، غادر زكريا بيته فى سفح الجبال المرتفعة على سطح البحر بمقدار ثلاثة آلاف قدم ، لكى يؤدى خدمته الكهنوتيه . وإذ وصل الهيكل كان طبيعيا أن يقيم فى أروقته ويقضى نهاره فى الدار الداخلية التى لم يكن يدخلها أحد قط سوى الكهنة فى ثيابهم المقدسة . وبين الخدمات الكهنوتيه المختلفة لم تكن هنالك خدمة أسمى من تقديم البخور ، الذى كان يقدم صباحا ومساء على مذبح ذهبى خاص بالقدس فى ساعة الصلاة . « وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور » ع ١٠. كانت هذه الخدمة مكرمة جدا حتى انها كانت تعين بالقرعة ، ولم يكن يسمح لإحد بتأديتها مرتين . كان يسمح للكاهن مرة واحدة فى حياته بأن ينثر حبات البخور على الفحم المتوهج الذى أتى به أحد المساعدين من مذبح المحرقة ، ثم يبخر على مذبح البخور أمـام الحجاب .

بوق البوق الفضى ، وتصاعد دخان الذبيحة المسائية . وبدأ المصلون الذين يحتلون الدور المختلفة يخرجون زرافات ليقدموا صلواتهم فى سكون وصمت . إعتزل الكاهن المساعد ، أما زكريا فإنه للمرة الأولى والأخيرة فى حياته وقف وحيدا أمام المذبح المقـدس ونثر حبات البخور على الفحم المتوهج ، فبدأ

البخور يصعد فى رائحته الزكية ويحجب عنه ما حوله ، وكان يرمز الى صعود الصلوات والتضرعات ، ليس من قلبه فقط بل من شعبه أمام الله « ودخلت صلاتهم الى مسكن قدسه السماء » (٢ أى ٣٠ : ٢٧) .

أى صلاة انسكبت من قلبه ؟ هل صلى من أجل اسرائيل لكى ينقذ الله الشعب المختار من حالتهم الوضيعة ، أو من أجل إنتعاش الحياة الروحية ، أو من أجل الشعب الواقفين خارجا لكى يستجيب الله صلواتهم التى رفعوها نحو قدسه ، أو لأجل اليصابات ولأجل نفسه لكى يستجيب الله صلواتهما أن أمكن ، وإلا ساعدهما الاحتمال مشقتهما بالصبر ؟

«فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور». لاحظ وضوح العبارة التام ودقتها. لا شيء فيها من الخطأ. كان الملاك ، واقفا عن يمين المذبح . كان هذا هو الملاك « جبرائيل الواقف قدام الله» ، والذى أرسل ليتحدث اليه ويبشره بالأنباء السارة بأن طلبته قد سمعت ، وامرأته اليصابات ستلد له إبنا يسمى يوحنا من الروح القدس من بطن أمه، ويرث روح إيليا وقوته، ويتقدم أمام المسيح ليعد له الطريق بتحويل قلوب الآباء الى الأبناء والعصاة ليسلكوا فى حكمة الأبرار .

أبطأ زكريا طويلا فى الهيكل . وهل فى ذلك عجب ؟ كان ممكنا أن يزول تعجب الشعب لو أنهم عرفوا سبب الإبطاء ، وأخيرا خرج . ولكنه إذ شرع فى أن يحييهم تحيته المعتادة أمسكت شفتاه عن الكلام فأشار بيده لمنحهم البركة . واستمر يومىء اليهم ، وبقى صامتا . لأنه شك فى امكانية هذه الإستجابة الكريمة الرحيمة ، لأنه لم يصدق كلمات رئيس الملائكة . بقى صامتا لكى يتعلم فى صمت وسكون مقاصد الله الكامله وينقل ما تعلمه فى شكل تسبحة ، بقى صامتاً لكى لا تنتشر الأنباء قبل ولادة الطفل . بقى صامتا كممثل لذلك النظام البديع الذى ظل يتحدث الى البشرية طويلا دون فائدة تذكر ، ولكنه الآن يجب أن يحل محله « كلمة الله » .

ظل زكريا يكمل خدمته ، ونور ذلك المجد يلمع على وجهه ، وهذه الكلمة « لا تخف » ترن فى قلبه بنغمة شجية . « ولما كملت أيام خدمته مضى الى بيته » . ولكن الشعب ظل يذكر هذا اليوم الذى كان فاتحة ذلك العصر الذى لا تعود فيه البركات تأتى من عيبال أو جرزيم ، بل من الجلجثة ، والذى فيه ينطق من السماء رئيس الكهنة الأعظم بتلك الكلمات القديمة .

يباركك الرب ويحرسك يضىء الرب بوجهه عليك

ويرحمك يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاما

عـــــدد ٦ : ٢٤ - ٢٦

- ٣ -

مدارسه ومدرسوه

(لوقا ١)

ليتنا نكون قد تتبعناك متجولا بين الكروم
وأنت تقطف عناقيد العنب الناضجة وفى
المساء تهيم على وجهك وبعد ذلك تحيط
ببيتك جيوش الملائكة

(ف. و. هـ . مايرز)

الأرجح جدا أن زكريا واليصابات قد كفا عن أن يصليا طالبين ولدا ، أو على الأقل عن الإلحاح فى الطلب . فقد بدا لهما أنه من العبث أن يرفعا صلوات أخرى . لأنه لم تعط لهما أية علامة من السماء لتؤكد لهما أن هنالك أى إحتمال لإستجابة صلاتهما . يضاف الى هذا أن الطبيعة كانت تؤكد لهما إستحالة الأمر نهائيا . وفجاة تسلل إليهما ملاك الله حاملا اليهما التأكيد بأنه لا مبرر للخوف ، والإعلان بإستجابة صلاتهما . كان هذا بمثابة سماع الأنباء بأن سفينة ميؤوس من نجاتها قد أرست على الميناء فجأة .

ليس مستحيلا أن الصلوات التى قد كفينا عن متابعتها ويئسنا من إستجابتها ترجع إلينا مؤشرا عليها بخط الله « طلبتك قد سمعت » . كثيرا ما تدفع الينا فوائد أموال كنا نظن إنه لا أمل فيها . ان الفاكهة التى تلبث مدة أطول فى الشمس هى التى تنضج اكثر من غيرها . هذه أمور قد تسمو فوق مستوى فلسفتنا فى الصلاة . لكن هذا ما يجب أن نتوقعه طالما كان الله قد عودنا أن يفعل أكثر بكثير مما نطلب أو نفتكر .

وإذ وصل ذلك الكاهن المتقدم فى الأيام الى بيته لجأ الى لوح (هو الذى اشير اليه فيما بعد ع ٦٣) وانبأ زوجته ، التى لم تكن معه فى الهيكل ، بكل ما حدث ، بالاسم الذى كان ينبغى أن يطلق على الطفل .

أما هى فإنها على الأقل لم تجد صعوبة فى قبول الاعلان الالهى المؤكد. وفى أثناء الخمسة الأشهر التى فيها اخفت نفسها معتزلة كانت تصرف أوقاتا طويلة فى تأملات عميقة واثقة ومصلية بأن يكون ابنها وفق ما يحمله إسمه من معنى «هبة الرب (١) » . كانت اليصابات أيضا هى التى اكتشفت ان القديسة مريم هى أم ربها فحيتها كمباركة فى النساء وأكدت لها بأن جميع ما وعدت به سوف يتم.

توالت الشهور وكان زكريا لا يسمع ولا يتكلم . كان اصدقاؤه يومئون اليه ، لأن عدم الايمان يغلق على المرء فلا يتمتع بمباهج الحياة . ويعطل نفعه . يا للفرق العظيم بين وقت الإنتظار هذا، وبين وقت إنتظار الفتاة الصغيرة نسيبة زوجته التى صدقت رسول السماء. لاشك فى أن زكريا كان رجلا طيبا ملما بتاريخ شعبه .كانت نفسه-كما يتبين من تسبحته-مليئة بالإفتخار النبيل بالماضى المجيد . لقد أستطاع أن يصدق بأن ابرهيم وسارة ولد لهما ولد بعد فوات السن ، لكنه لم يمكنه ان يصدق بأن بركة كهذه يمكن ان تكون من نصيبه .

أليس هذا هو مالا يزال يجرى معنا إذ يتعثر إيماننا ؟ يمكننا أن نصدق بأن قوة الله اجرت أو تجرى الكثير من العجائب فى الماضى البعيد أو المستقبل البعيد . أما انه يعنى بنا عناية خاصة ، أو أن صلواتنا تمس قلبه ، أو أنه يمنحنا مشتهى قلوبنا ، فهذا ما نشك فيه .

وفى أثناء مدة صمت ذلك الكاهن الشيخ المحطم المنتظر الذى اغلق عليه ولم يعد يتصل بالعالم الخارجى ، كانت روحه تشحن بعواطف مقدسة تنتظر أول فرصة لتعبر عن نفسها . واخيرا جاءت هذه الفرصة . إمتلأ بيته المتواضع يوما ما بالأقارب والاصدقاء المتلهفين ، الذين أتوا لتهنئة الوالدين المتقدمين فى أيامهما، ولاتمام الطقوس اليهودية، ولتسمية الطفل الذى حملته أمه على ذراعيها. أى فرح ملأ قلبها عندما أتوا ليعظموا رحمة الرب لها ويفرحوا معها . واذ كان الشعب يدخلون ويخرجون ، كان البيت ينعم بفرح عميق لا يعبر عنه .

ولما تحيروا بسبب إصرار الأم على تسمية إبنها باسم «يوحنا» (لأنه لم يكن فى عشيرتها من تسمى بهذا الأسم) لجأوا الى أبيه .وهذا كتب بيد مرتعشة هذه العبارة اسمه « يوحنا » . وحالما حطم قيود الشك الحديدية بهذا الاعتراف

---

(١) والمعنى الأصح « الرب تحنن » .

بإتمام كلمات الملاك « إنفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله . فوقع خوف على جيرانهم . وتحدث بهذه الأمور جميعها فى كل جبال اليهودية . فأودعها جميع السامعين فى قلوبهم قائلين : أترى ماذا يكون هذا الصبى . » (لو ١:٦٤ - ٦٦) .

« أما الصبى فكان ينمو ويتقوى بالروح . وكانت يد الرب معه » .

كانت هنالك عوامل كثيرة أثرت على هذا الصبى :

(١) مدرسة البيت :

كان أبوه كاهنا . إن الذكريات الأولى التى إنطبعت على مخيلة يوحنا هى غياب أبيه المتكرر لتأدية وظيفته ، وإذا ما عاد كان الولد يتقبل بشغف أحاديثه عما جرى فى المدينة المقدسة . إننا نتخيل الثلاثة جالسين معا تحت كرمتهم فى المساء يتحدثون عن صهيون موضوع فرحهم الرئيسى . اذا فلا غرابة فى إنه فيما بعد عندما نظر يسوع ماشيا أشار اليه وقال « هوذا حمل الله » لأن عقله الصغير تشبع منذ نعومة اظافره بالحديث عن الذبائح .

وفى حداثته أخذه والداه معهما لأحد الأعياد الكبيرة . ولأول مرة انفتحت عيناه الصغيرتان ليرى عظمة الهيكل وفخامة الملابس الكهنوتية والطقوس اللاوية . فذهل عقله وامتلأ قلبه كبرياء . ولكنه لم يدرك أن خدمته سوف تكون هى الخطوة الأولى لهدم هذه كلها .

ولا شك فى أنه كان أيضا يتعلم الكتب المقدسة . فكان كتيموثاوس يعرفها منذ الطفولية . ان أغنية زكريا تعطى فكرة واضحة بأنه كان خبيرا بنبوات الأسفار المقدسة وعبارتها . وإذ كان الوالدان السعيدان يلقيانها الى عقله الغض كانا يشددان على بعض العبارات حسب إختباراتهما الشخصية . ولا شك فى أنهما كانا إذا إقتبسا من (اش ٤٠) أو (ملاخى ٣) كانا يلتفتان الى الصبى الجاثى على ركبتيه ويقــولان : هذه الكلمات تشـير إليك .

« وأنت أيها الصبى نبى العلى تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه» .

ألم يكلم الكاهن الشيخ إبنه بأفكار وكلمات كهذه التى امتلات بها تسبحته . ألم يكلمه بكيفية كهذه ؟« يا أبنى لقد تمم الله عهده المقدس، القسم الذى حلف لابراهيم أبينا ، وبسبب أحشاء رحمة الهنا إفتقدنا المشرق من العلاء ليضىء على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت ويهدى أقدامنا فى طريق السلام » .

بعد ذلك كان يتقدم ليروى له الرواية العجيبة ، رواية ولادة قريبه فى بيت لحم ونعمته الفائقة فى الناصرة . وقال ذلك الشيخ « مبارك الرب اله اسرائيل لأنه أفتقد وصنع فداء لشعبه . وأقام لنا قرن خلاص فى بيت داود فتاه . كما تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر » . ثم تقدم الوالد ليروى الكثير عن جرائم هيرودس وحكمه التعسفى وذلك طبعا على قدر ماكان الصبى يفهم ، ثم شرح كيف أنه سيتم سريعاً خلاص من أعدائنا ومن أيدى جميع مبغضينا » . ولعل الشاب كان يهتز فرحا بسبب هذه الآمال التى كانت قد بدأت تتفتح .

وفى بعض الأحيان عندما كان يخرج الإثنان فى الفجر الباكر ويريان بزوغ نور النهار كان الوالد يقول :« هل ترى النور يسطع فوق الجبال ؟ يا يوحنا أن ما يعنيه شروق النهار للعالم يعنيه يسوع قريبك الذى فى الناصرة من جهة ظلمة الخطية » . واذ كان يلتفت الى كوكب الصبح مشرقا قبل الفجر ويدأ يبهر نوره كان يقول : « تأمل فى مصيرك يا إبنى إننى رجل متقدم فى الأيام ، لن أعيش حتى أراك فى أوج قوتك. لكنك سوف تشرق فترة وجيزة وبعد ذلك تنقص، أما يسوع فيزيد الى النهار الكامل » ، ولعل الشاب كان يجيب بذكاء متوقد » نعم يا أبى أنا أعرف ذلك ، ولكن يكفينى أن أكون قد أعددت طريق الرب » .

كانت هنالك أيضا ذكريات البلاد المجاورة . لابد أن تكون رواية ابرهيم قد ذكرت له مرارا بجوار مغارة المكفيلة المقدسة . أما حياة داود فلا يمكن أن يكون قد أغفل ذكرها لهذا الشاب الذى كان قريباً جداً من الأماكن التى ارتادها داود كفتى صغير يرعى غنم أبيه . ولابد أن تكون رواية المكابين قد هزت مشاعره اذ سرد له والده أعمال البطولة التى قام بها يهوذا واخوته والتى انتعشت بها مرة أخرى آمال العبرانيين .

إن مؤثرات البيت لا يمكن إنتزاعها بأى حال من الأحوال . ماذا كان تأثير الوالد اذ يعود الى بيته ليلاً من عمله ؟ وماذا كان تأثير الأم فى البيت طول النهار ؟ ماذا كان تأثير حديث البيت ؟ هل كان الوالد يجلس كصديق الى جانب ابنه يجيب على أسئلته ويساعده على تفتح ذهنه ؟ كم مرة قرىء الكتاب المقدس وفسر ؟ كيف كان يقضى يوم الراحة الأسبوعية ؟ ماذا كانت وجهة نظر البيت بصدد شرب الخمر تحت أى لون من الوانها ، وبصدد كل ما يتلف حياة الأحداث كما يتلف الغاز النباتات ؟ هذه كلها مؤثرات جوهرية جدا فى

تربية وتوجيه الأولاد والبنات الذين يمكن أن يتقووا في الروح عندما تتعاون معها كل المؤثرات الأولى .

(٢) كانت هنالك مدرسة عهد انتذاره :

سبق أن تنبأ الملاك الذى أعلن ولادته أنه سوف لا يشرب خمرا أو مسكرا بل يمتلىء من الروح القدس من بطن أمه . وقال الرب « جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب » (مت ١١ : ١٨) . كان هذا الإمتناع عن كل شهى من الطعام والشراب علامة واضحة على أنه نذير . يضاف إلى هذا عدم حلق شعره وحرصه على أن لا يمس ميتا كان نذر . النذير يستمر مدة محددة فقط فى بعض الحالات ، وفى حالات أخرى كشمشون وصموئيل ويوحنا المعمدان كان النذر يستمر طول الحياة . وسواء طال النذر أم قصر فقد كان النذير يعتبر نفسه مكرسا لخدمة الله ، مستعدا لإطاعة أقل إشارة ، وسماع أقل همسة .

لعله قال مرة لامه : « لماذا تدلى شعرى يا أمى دون أن تقصيه كما تفعل سائر الأمهات لأولادهن ؟ » .

فأجابت الأم :« لا يا بنى، يجب أن لا تقصه طول أيام حياتك لأنك نذير».

« لماذا لا أذوق العنب يا أمى ؟ يقول الأولاد إنه حلو المذاق ألا تسمحين لى بتذوقه فى المحصول القادم ؟ » .

« كلا ، يجب أن لا تذوق ثمرة الكرمة ، فأنت نذير » .

وإذا تصادف وخرج الولد مع أمه فى الطريق العام فرأى عظمة بجانب كلب جائع ، أو عصفورا ميتا ، واقترب ليلمس تلك أو هذا أجابته الأم « يجب أن لا تمس ميتا . وإذا مات أبوك بجانبك أو مت أنا وجب عليك أن لا تمس جثتينا ، بل يتحتم عليك أن تدعو غيرك ليساعدك . أذكر دواما أنك مفرز لله وأنك ملتزم بنذوره ، وأنك يجب أن لا تسمح لأى شيء - بالرمز أو بالحقيقة - أن ينتزع قوته من قلبك الغض » .

ولابد أن نتيجة هذا كانت عظيمة جداً . لابد أنه كان له أثر عظيم فى توجيه أفكار الصبى وآماله . فقد تحقق من أنه مفرز لإرسالية عظيمة فى الحياة ، لقد أصغى الجدول الصغير لنداء البحر . وبجانب البحر تعلم قوة ضبط النفس .

ما هو معنى هذا التعبير « يتقوى بالروح »(١) ؟ هل يدعى قويا ذلك المرء الذى يجرف كل شىء أمامه بقوة إندفاع طبيعته وتهورها ، تلك الطبيعة التى يرهب أمامها الكثيرون ، والذى يصر فى كل شىء على إتمام إرادته العنيفة ؟ كلا فالأخرى به أن يحسب فى عداد الضعفاء . إن قوة الرجل هى بنسبة المشاعر التى يستطيع إخضاعها لا المشاعر التى تخضعه . ان الرجل الذى يتلقى الإهانة فيجيب بهدوء ، الرجل الذى يواجه التجارب العنيفة كل يوم ويبقى ساكنا هادئا ، الرجل الذى يظل عفيفا رغم الشهوات الحادة ، الرجل الذى يظل هادئا أمام المظالم التى تحل به ، هؤلاء رجال أقوياء . كان يوحنا ينمو « ويتقوى بالروح » لأنه تعلم منذ حداثته ضرورة رفض تلك الأشياء التى وان كانت فى ذاتها مباحة لكنها غير محللة له .

خليق بكل منا ان يعتبر نفسه معتزلا منفصلا عن الأشرار بفضل إتحادنا بإبن الله ، الذى قيل عنه إنه « قدوس بلا شر ولا دنس قد إنفصل عن الخطاة » (عب ٧ : ٢٦) . أذكر كيف خرج خارج المحلة حاملا عارنا ، كيف أنهم دفعوه خارجا إلى موت الصليب ، وكيف أنه ينتظرنا على الجانب الأخر المنير من نهر الموت . ويقينا إننا لن نجد لذة فى هذا العالم الذى لم يجد هو فيه مكانا . ان موته قد وضع حدا فاصلا بين أتباعه وبين سائر البشر . فإنهم قد صلبوا للعالم وصلب العالم لهم . يجب أن لا نذوق الأفراح الفتانة التى ينغمس فيها أبناء هذا الدهر الحاضر يجب أن لا نسمح لشهوة دليلة أن تمد مقصها فتقص شعر انتذارنا . يجب أن نحرص كل الحرص على أن لا نتلوث بأى دنس . أن لا نشترك فى أعمال الظلمة غير المثمرة ، بل بالاحرى يجب أن نخرج ونعتزل ولا نمس نجسا .

ولكن فى الوقت الذى فيه ننتزع كل ما يؤذى حياتنا أو حياة الأخرين يجب أن نحرص على أن نضع حدا فاصلا حيث يريدنا الله أن نضعه ، دون أن نبالغ فى شىء أو نهون من شأن شىء . إنه لأمر جوهرى أن نذكر بأنه ان كان شعار العهد القديم هو الإعتزال ، حتى عن الأمور البريئة الطبيعية ، فإن

---

(١) « أما الصبى (يوحنا) فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل » (لو ١ : ٨٠) .

شعار العهد الجديد هو الإختلاط . لقد أمر موسى اليهود فى العهد القديم أن لا يمتلكوا خيلا لكن زكريا قال بإنهم فى العهد الجديد يمكنهم إمتلاك الخيل على شرط أن تنقش على أجراس سرجها هذه العبارة « قدس للرب » . لقد جاء المسيح لكى يقدس كل الحياة . إن أكلنا أو شربنا أو فعلنا أى شىء فيجب أن نفعل كل شىء لمجده . والتلاميذ يجب أن لا يؤخذوا من العالم بل أن يحفظوا من شره . « كل خليقة الله جيدة ولا يرفض شىء إذا أخذ مع الشكر لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة » (١ تى ٤ : ٤ . ٥) ،يجب عدم تحطيم الغرائز الطبيعية بل السمو بها .

هذا هو الفرق العظيم بين المعمدان وبين إبن الإنسان . كان المعمدان يحسبها خطية ضد ناموس نذره ووظيفته ان يلمس أى شىء من نتاج الكرامة أما المسيح فقد بدأ أياته بتحويل الماء إلى خمر - ولو أنها كانت من نوع جيد برىء - فى عرس قانا الجليل . كان يوحنا يعتقد أنه لو مس أجساد الموتى أو لحم الأبرص فقد كل قداسة أما المسيح فقد لمس النعش وردد يده فوق جسد الأبرص ، ووقف موقف المشفق بجوار قبر صديقه ، وهكذا نستطيع أن نكون فكرة عما قصده الرب عندما قال أنه ولو كان يوحنا أعظم المواليد من النساء إلا أن الأصغر فى ملكوت السماوات أعظم منه .

(٣) وكانت هنالك مدرسة البرية :

« وكان (الصبى) فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل » . المرجح أن زكريا واليصابات ماتا عندما كان يوحنا صبيا صغيرا ، لكن الصبى نما حتى وصل إلى دور المراهقة فاستطاع أن يعنى بنفسه « وكانت يد الرب معه » .

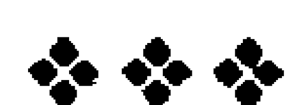
تحت إرشاد وقيادة تلك اليد نزع نفسه من ذلك البيت الصغير الذى تفتحت عيناه فيه ليرى العالم ، وقضى فيه سنوات سعيدة ، ليخرج من مساكن البشر العادية ، ولعله كان لا يعلم الى أين يذهب . كان هنالك عدم إستقرار فى نفسه ، سأل شاب والده ان يسمح له بالهجرة الى الغرب قائلا أن فرص العمل فى الغرب أضعاف فرص موطنه . ولعل شيئا من هذا القبيل كان فى قلب يوحنا . لقد أراد أن يتحرر من تقاليد وقيود الجماعة التى نشأ بينها لكى يستطيع التقدم فى الحياة الروحية وفق أسلوبه دون التقيد بأى ناموس سوى ما تعلنه له السماء .

جاز وسط برية اليهودية الفسيحة المروعة وحيدا بلا أب ، بلا أم ، بلا أخ بلا أخت ، كانت البرية مقفرة جداً دعاها حتى اليهود « رجسة الخراب » . يقول السائحون الذين مروا بها إنها مجردة من كل ذى حياة سوى الجوارح والثعالب فى قليل من الأحيان . وهى صحراء رملية فى أكثر الأجزاء ، تكتسحها الرياح الشديدة . عندما ذهب إليها يسوع بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات لم يجد فيها ما يأكله . وكانت الحجارة المحيطة به تتحدى جوعه . ولم يجد رفيقا سوى الوحوش .

فى هذه البرية الفسيحة الموحشة عال يوحنا نفسه بأكل الجراد - الذى لا يزال يقدره الوطنيون - والعسل البرى الذى يكثر فى شقوق الصخور . أما اللباس فقد إكتفى بقميص من وبر الأبل كالذى لا تزال تصنعه نساء العرب ، ويمنطقه من جلد على حقويه . واتخذ له بيتا من مغارة كالتى كان يلجأ فيها داود ورجاله ، وكان يشرب من مياه أحد الأنهار التى تجرى نحو البحر الميت .

فهل نعجب أن قيل عنه إنه كان « يتقوى » تحت نظام من المعيشة كهذا ؟ إننا نضعف بسبب إحتكاكنا المستمر بزملائنا .. لأننا نهبط إلى مستواهم ، ونسلك وفق تصرفاتهم ونزواتهم ، ونحدد مقاصد الله فى حدود ضيقة ، ونشكل حياتنا وفق الجماعة التى نعيش فيها . لكننا نتقوى فى الوحدة والعزلة حيث نلتقى مع الله . إن رجال الله الأقوياء يندر أن يوجدوا فى الثياب الناعمة أو فى قصور الملوك . كان عوبديا الذى كان يقف أمام أخاب فى رهبة يختلف كل الإختلاف عن إيليا الذى كان من مستوطنى جلعاد والذى يقف أمام الرب فى فرح .

نعم ، وهنالك مصدر أخر للقوة . فإن الذى يمتلىء بالروح ويتعلم من الروح يتأيد بالقوة فى الإنسان الباطن « كل شىء مستطاع للمؤمن » (مر ٩: ٢٣) . ان سمعان بن يونا يصبح بطرس عندما يلمس المسيح. «الغلمان يعيون ويتعبون والفتيان يتعثرون تعثرا . وأما منتظرو الرب فيجددون قوة » (اش ٤٠ : ٣٠ و٣١) « أما الشعب الذين يعرفون الههم فيقومون ويعملون (١) » (دا ١١ « ٣٢) .



---

(١) « يعملون أعمالا باهرة » حسب الترجمة الانكليزية .

- ٤ -

نبـى العلـى

(لوقا ١)

أيها النسـاك المبـاركون أيتـها الفتيـات
القـديسـات أنتـم سـماء عـلى الأرض
أنتم تسـيرون مع الله فى فـردوس ظليـل
خالين من هموم العالم المضنية إليكم يقدم
المعلم أسـرار محبته وأسـرار كل سحابة
أو عاصفة وأسرار ملكوت الله

(كبل)

« وأنت أيـها الصبى نبى العلى تدعى » . هكذا خاطب زكريا إبنه الطفل وهو راقد وسط الجيران والأقرباء المتعجبين .

يالها من نغمة بهيجة تلك التى ترن هذه الكلمات . لقد انقضت فترة طويلة – نحو أربعمائة سنة – منذ نطق أخر نبى من أنبياء العبرانيين بكلمات العلي . كانت هناك سلسلة طويلة من الأنبياء من موسى إلى ذلك النبى الأخير ، وهؤلاء سلم كل واحد منهم الشعلة إلى خلفه . أما الأربعة الأجيال التى بطلت فيها خدمة الأنبياء فقد انقضت ثقيلة مضنية . ولكن الرجاء قد بدأ ينتعش الأن إذ أعلن الملاك مجىء نبى . وقد أيد الرب كلماته : « وماذا خرجتم لتنظروا . أنبيا . نعم أقول لكم وأفضل من نبى » (مت ١١ : ٩) .

يقال ان كلمـة « نبـى » فى العـبرانية مشتقـة مـن أصـل يعـنـى « يغلى أو يبقلل » ، وتوحى بمعنى ينبوع يتفجر من قلب الإنسان سكبه الله فيه . فمن الخطأ أن نحصر الكلمة فى معنى الأنباء بحوادث أتية ، لأنها فى هذه الحالة لا يمكن تطبيقها على أشخاص مثل موسى وصموئيل وإيليا فى العهد القديم ، أو يوحنا المعمدان وبولس الرسول فى العهد الجديد ، هؤلاء جميعا كانوا يقينا أنبياء بكل مل تحمله الكلمة من معنى . فالنبوة تعنى الأنباء

بالرسالة الإلهية . والنبى يحمل بتأثير الحلول الإلهى فيه ، سواء نطق بحق الساعة الراهنة أو أنبأ عن المستقبل . « الله كلم الأباء بالإنبياء » . (عب ١ : ١) وعندما كانوا شاعرين بقوة تحركه أياهم فى الداخل فويل لهم إن لم يكونوا قد عبروا عما بداخلهم بكلمات نارية .

لقد إنقطعت عند ملاخى سلسلة الأنبياء الذين ظلوا يتابعون الواحد بعد الأخر منذ تأسيس الأمة اليهودية . ولهذا كان الإسرائيليون الأتقياء يجدون أن هذه المرثاة تنطبق على الواقع تماما « أياتنا لا نرى . لا نبى بعد» (مز ٧٤ :٩) .

ولكن اذ بطل صوت نبوة العهد القديم تنبأ فى أخر كلمات بأن تلك النبوة سيتبعها فيما بعد نهضة جديدة مجيدة لأسمى أنوا ع النبوة . وهاك ما قاله الله على لسان ملاخى « ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف . فيرد قلب الأباء على الأبناء وقلب الأبناء على أبائهم لئلا أتى وأضرب الأرض بلعن » (ملا ٤ : ٥ و٦) .

(١) المؤثرات التى صيغت فى قالبها طبيعة المعمدان النبوية

بين هذه ينبغى أن نضع فى المقدمة النبوات التى أعطت مقدما فكرة عن سيرته . لقد رددها والداه فى أذنيه مرارا منذ حداثته دون كلل .

كم مرة تأمل فى الإشارة الى نفسه فى النبوة المسيانية العظيمة « عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم ... صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب قوموا فى القفر طريقا لإلهنا » ؟ (اش ٤٠ : ١ و ٣) لم يكن هنالك أقل شك فى أن هذه تشير إليه (لو ١ : ٦٧ ، مت ٣ : ٣) . ولابد أنها كان لها تأثير قوى – دون أن يشعر – فى صياغة أخلاقه وخدمته .

كانت هنالك أيضا نبوة ملاخى الرائعة التى سبق أن ذكرناها والتى توحى بأنه على مثال إيليا . ألم يشر إليها جبرائيل نفسه عندما تنبأ بأن الطفل الموعود يتقدم أمام المسيا بروح إيليا وقوته ؟ (لو ١ : ١٧) . وقد أيد الرب نفسه نبوته فى الأيام التالية (مت ١١ : ١٤) .

هكذا كانت شخصية إيليا العظيمة ماثلة أمام الشاب بصفة مستمرة كأنموذج يستوحى منه قوة . لقد وجد نفسه متسائلا بصفة مستمرة : كيف عمل إيليا ، وماذا عساه يعمل هنا الأن ؟ ولعل إختيار تلك البرية الموحشة ، والثوب المصنوع من وبر الأبل ، وصيغة الحديث المختصر المؤثر الذى كان يستخدمه فى كرازته – كانت توحى به قرية « تشبه » التى فى أرض جلعاد ، وتلك المميزات الشخصية التى تميز بها النبى النارى .

على أن عقل المعمدان لابد أن يكون قد أثرت فيه أيضا تلك الجرائم والمفاسد التى شملت كل طبقـات شعبه ، وحكمـت عليهـم بدينـونة واحدة . فإن موت هـيرودس - إذ كان يوحنـا لا يزال طفلا يعتمد على رعاية اليصابات التقية له - قد أدى إلى إضطرابات اتخذ منها الرومانيون مبررا لإحتلال أورشليم . والقضيب قد زال من يهوذا والمشترع من بين رجليه . ورئاسة الكهنوت أصبحت بمثابة العوبة فى أيدى الحكام الأدوميين والولاة الرومانيين . والعشارون أصبحوا مبغضين بسـبب تعسفهم ومظـالمهم وغشـهم للشعب . والجنود ملأوا البلاد بأعمال العنف والسلب والنهب . والكهنة كانوا أشبه بأجيرين ، والفريسيون كانوا مرائين . وطبقة الحكام تجردوا من البساطة والطهارة والنزاهة ، وانغمسـوا فى الملذات والشـهوات التى اكتظت بها الإمبراطـورية . ولم يكن غـريبا أن يطلـق على أشهـر قـادة الدين وقتئذ لقب « أولاد الأفاعى » وعلى الأقل لم يـوجد من يحتـج على هذا اللقـب عنـدما أطلـق عليهم .

كانت تتواتر على أذنى هذه الشخصية الملتهبة أنباء عن الشر الذى كان يكتسح البلاد كطوفان من الحبر الأسود بصفه مستمرة ، فتملأهما رعبا وظلمة معاصريه . ان الفكرة التى تستتر وراء الأصوام وأعمال التقشف التى مارسها الكثيرون من خدام الله هى أن نفوسهم إمتلأت حزنا ، فقتل فيهم كل ميل للملذات والتنعم . وهكذا كان الحال مع يوحنا . فمن الناحية الواحدة كان هنالك إقتناعه التام بخطية إسرائيل ، ومن الناحية الأخرى كان هنالك الإعتقاد بقرب مجىء المسيا . وهكذا إزداد ضغط الثقل على نفسه حتى إضطر أن ينطق بهذه الصرخة التى إنبعثت من قرارة نفسه « توبوا لأنه قد أقترب ملكوت السماء» .

وعلاوة على هذه ينبغى أن نضيف أيضا رؤى الله التى لا بد أن تكون منحت له بصفة خاصة عندما كان يقيم وحيدا فى تلك البرية الموحشة . لقد تحدث مرة عن ذاك الذى أرسله لكى يعتمد (يو ١ : ٣٣) وواضح أنه قد تعود على أن يتبين حضوره ويسمع صوته . وذلك الصوت الهادىء الخفيف الذى سبق أن سقط على اذنى إيليا انعش نفسه . هو أيضا رأى الرب على كرسى عال ومرتفع وسمع أناشيد السيرافيم ، وأحس بجمرة النار تلمس شفتيه عندما التقطها بملقط من المذبح واحد من السيرافيم .

كانت هذه بصفة مستمرة هى مميزات ذلك النبى الصادق . لقد كان « رائيا » أى شاهد عيان . لقد تكلم لأنه رأى بعينه كلمة الله وشاهده ولمسه . وإذ تحدث هذا النبى الإلهى نيابة عن جميع من سبقوه قال « إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا » (يو ٣ : ١١) .

ونحن نستطيع أن نشترك فى هذا الأختبار إلى حد ما . فقد سمح لنا نحن أيضا أن نرى ، أن نصعد إلى جبل الرؤية ونرى مجد الله فى وجه يسوع المسيح . أن يعلن لنا مالم تره عين ولم تسمع به إذن ولم يخطر على قلب بشر . لنذكر بأننا يجب أن نكون شهود الله فى أورشليم أى فى بيوتنا ، وفى اليهودية أى بين جيراننا الأقربين . وفى أقصى الأرض أى فى أماكن عملنا . لا يريد الله محامين بل شهودا . ويجب أن نحرص على أن يشع مجد ذلك النور من وجوهنا . وأن تبدو نغمة الإقتناع واضحة فى كلماتنا قبل أن تقدم الشهادة الأخرين .

هذه هى علامات النبى الثلاثة : (١) الرؤية (٢) الإقتناع التام بالخطية والدينونة المنتظرة (٣) تدفق الكلمات المؤثرة القوية . وكانت كل من هذه العلامات واضحة بكيفية بارزة فى يوحنا بن زكريا .

(٢) مثل بارز :

كما جاء يوحنا بروح إيليا وقوته هكذا أرسل رجل من قبل الله منذ أربعة أجيال فى مدينة البندقية الجميلة ليشهد ضد خطايا جيله ، وكان فى نواح كثيرة يشبه المعمدان حتى أصبح كل منهما يذكر بالأخر . وإذا ما تأملنا فى حياة « جيرولامو سافو نارولا » وقارناها بظروف خدمة المعمدان أمكننا فهم الكثير من نواحى هذه الخدمة . وبطبيعة الحال يجب أن يكون مفهوما أن رجل البندقية لم يكن ممكنا أن يصل إلى مركز المعمدان الفريد وقوته الممتازة . ولكن هنالك أوجه شبه كثيرة بينهما تمكننا من أن نطبق أوجه النظر العبرانية القديمة على حياة العصر الحاضر .

كان بيت الطبيب فى « فرارا » الذى ولد فيه « سافو نارولا » فى ٢١ سبتمبر سنه ١٤٥٢ لا يتميز كثيرا بين سائر أسر المدينة ، كما كان الحال مع بيت زكريا واليصابات فى جبال اليهودية .

وإذا قرأنا عن محبة هذا الفتى الملتهبة للحق - وهى ما تميز بها - ذكرتنا بالمعمدان الذى كانت حياته إحتجاجا صارخا من أجل الحق . صرح

سافونارولا في إحدى عظاته القوية أنه جاهد بصفة مستمرة في سبيل طلب الحق بكل قوته ، واشهر حربا لا هوادة فيها ضد الباطل ، وهاك كلماته « كلما أضنيت نفسى فى سبيل بغيتى ازددت شوقا اليها حتى انني كنت مستعد لهجر الحياة نفسها . لما كنت ولدا كانت هذه هى آرائى ، ومنذ ذلك الوقت إزدادت الرغبة نحو هذا الخير وإستمرت في التزايد الى هذا اليوم » .

لا يمكننا أن نقرأ عن حياة « سافونارولا » الطاهرة التى لم تتلوث بأى دنس ، وعن حياة التقشف والزهد التى عاشها ، إذ كان يكتفى بمقعد خشن وثياب وأبسط الطعام – دون أن نتذكر ثوب وبر الأبل الذى كان يلبسه المعمدان والجراد والعسل البرى اللذين كان يأكلهما .

ان كان يوحنا قد عاش فى أيام شريرة حيث اضطهدت الديانة فى بيت أحبائها فهكذاعاش (سافونارولا) أيضا ، فان القرنين الرابع عشر والخامس عشر شهدا أبشع مظاهر الفساد والخلاعة بين رجال الدين . وكانت وظائف الكرادلة والأساقفة تعرض فى المزاد وتباع لمن يدفع الثمن الأكثر . وكان الأسقف يبتز النقود من الكهنة ، وهؤلاء يبتزونها من الشعب . وسادت أبشع مظاهر الدنس بين مختلف طبقات الكنيسة بدون تستر . وحتى أديرة الرجال والنساء كانت فى كثير من الأحيان مغائر للرذيلة . قال مكيافلى : لقد فقدت إيطاليا كل أثر للتقوى والتدين . وأن إنتشار الرذيلة بيننا ليرجع الى الكنيسة والكهنة .

وكما رأى يوحنا نار الدينونة المرتقبة ورفشها . انحصرت كرازة (سافونارولا) فى أن الكنيسة سوف تنال التأديب الشديد ، وبعد ذلك تتجدد . وهكذا تشبع عقل هذا الكارز بشدة الفكرة حتى اعتبرها (رؤيا) على حد تعبيره . يقول لنا انه فى احدى المناسبات بدت السموات كأنها قدآنفتحت أمامه ، فظهرت اليه النكبات التى كانت قادمة على الكنيسة . وفى مناسبة أخرى رأى وسط السماء يدا حاملة سيفا كتبت عليه كلمات الدينونة . ووصف نفسه كشخص يتطلع الى العـالم غيـر المنظـور .

إشتهر المعمدان ببلاغة فائقة ارتجت أمامها كل الأرض . وهكذا كان الحال مع (سافونارولا) ففى الثمان سنوات التى كرز فيها فى الكاتدرائية كانت تكتظ بالجمـاهير الغفيرة . وعندما كان يكرز مناديا بطهارة الحيـاة وبساطتها « كانت النسوة تطرحن الجواهر والحلى ، ويتحول الفسقة الى أشخاص

عفيفين ، والأثرياء والتجار يعيدون مكاسبهم غير الشرعية » . وفى الصوم الكبير سنة ١٤٩٧ حدث مل يعرف بـ « حرق الأباطيل » ، وخرجت جماعات من الأولاد ليجمعوا من كل أرجاء المدينة الكتب والصور الخليعة ، والملابس المتهتكة وورق اللعب والنرد وأمثالها . فكومت كومة عظيمة بلغ إرتفاعها ستين قدما وأشعلت فيها النيران وسط أصوات الأبواق والأجراس .

وما فعله هيرودس ليوحنا المعمدان فعله البابا لورنزو دى ميديسى رسافونارولا . فان هذا الأخير (لورنز دى ميديسى) أظهر بأنه قد شعر بجاذبية غريبة لذلك الواعظ القدير ، وإجتهد أن يلحقه ببلاطه ، وتردد كثيرا على كنيسة سان ماركو لسماعه، وكان يدفع بسخاء فى التقدمات التى تجمع. وعلى حد تعبير العهد الجديد « كان يهابه عالما أنه رجل باروقديس » (مر٦ : ٢٠) لكن سافونارولا حرص على أن يتجنب كل اشارة للامتثال أو المهانة ، وأبى أن يقدم الولاء الى لورنزو لترقيته الى رتبة كنسية رفيعة ، وأعاد الذهب الذى كان قد قدمه فى تقدمات الكنيسة ، وعندما ركضوا ليخبروه أن لورنزو يتمشى فى حديقة الدير أجاب « ان لم يكن قد طلبنى فلا تزعجوه فى تأملاته ولا تزعجونى » كان سافونارولا مثل يوحنا فى مهاجمة الرياء فى التدين الذى اكتفى بالمظاهر الخارجية . وهاك ما قاله « إننى أقول لكم ان الرب لا يريد مجرد الصوم فى هذا اليوم أو فى تلك الساعة، لكنه يريدكم أن تتجنبوا الخطية كل أيام حياتكم ، لاحظوا كيف يتجولون طالبين الغفرانات ويدقون الأجراس ويزينون المذابح والكنائس . ان الله لا يلتفت الى إحتفالاتكم » .

وان الكلمة التى قالها يوحنا « هوذا حمل الله » قد وجدت صداها فى ذلك القول الجميل الذى ردده سافونارولا « إذا فسدت كل طغمات الأكليروس وجب على المؤمن أن يرجع الى المسيح الرأس طالبا منه أن يشفق على كنيسته » .

وكما أستشهد يوحنا هكذا أستشهد سافونارولا أيضا . فانه بسبب تهور أتباعه حكم عليه بالحرق . ولكن بسبب حيلة أعدائه فشلت انتظارات الغوغاء فى هذه الناحية ، وثار غضبهم ، وصاح قادتهم قائلين « الى كنيسة سان ماركو » . فذهبوا الى « سان ماركو » ، وحرقوا أبنيتها ، واقتحموا الأبواب ، ودخلوا الكنيسة وأروقتها ، وجروا سافونارولا من وسط عبادته وزجوا به فى سجن كريه . وبعد أن إنتظر هناك بضعة أسابيع وسط كل أنواع التحقير

والتعذيب ، سيق للموت فى ٢٣ مايو سنة ١٤٩٨ . أما الأسقف الذى كان عليه أن ينطق بحكم تجريده فقد تعثر وهو يتلو الكم وهاك نصه : « إننى أفرزك من الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة » .

فأجاب الشهيد بهدوء « تستطيع فرزى من الكنيسة المجاهدة ، أما من الكنيسة المنتصرة فلا تستطيع » . ثم لقى حتفه بثبات ورباطة جاش فقد شنق ، وبقيت جثته معلقة فى سلاسل ، ثم أحرقت ونثر الرماد فى النهر .

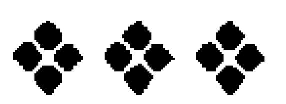
ولما وصل رسل البابا أثناء المحاكمة أحضروا معهم أوامر صريحة بأنه يجب الحكم عليه بالموت « حتى ولو كان هو يوحنا المعمدان الثانى » . بهذه الكيفية تصرفت تلك الكنيسة مع البعض من أنبل أبنائها . لكن الحق لا بد أن يسود أخيرا مهما ديس بالأقدام .

هناك رواية تحكى عن سافونارولا . وسواء صدقت أو لم تصدق فإنها على الأقل تعطى فكرة جميلة عنه . وتقول هذه الرواية إنه لما كان شابا خارت قواه اذ كان يجتاز جبال الأبنين فى طريقه من جنوا الى البندقية . لكن شخصا غريبا خفيا ظهر له وأعاد اليه شجاعته وأخذه الى مأوى للغرباء وألزمه بتناول الطعام ثم رافقه الى الجهة التى قصدها . لكنه إذ وصل الى باب « سان جالو » إختفى بعد أن قال له « تذكر بأن تتمم ما أرسلك الله لأجله » .

تذكرنا هذه الرواية حتما بالكلمات التى بدأ بها يوحنا الإنجيلى حديثه عن المعمدان « كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا » . يأتى دواما أناس مرسلون من الله مهيأون لجيلهم ويحملون الرسالة التى يحتاجها زمانهم . فاحرص على أن تتمم أنت أيضا رسالتك الالهية لأن يسوع قال « كما أرسلنى الأب أرسلكم أنا » (يو ٢٠ : ٢١) .

ان كل حياة حقيقية هى رسالة من الله .

وعندما تقرأ كلمات الرسول بولس عن يوحنا بأنه « أكمل سعيه » (اع ١٣ : ٢٥) يجدر بنا أن نطلب نعمة لكى نستغل كل الفرص التى تقدم إلينا ، لكى ندرك قصد الله الكامل من خلقتنا ، وهكذا تحقق حياتنا المثل *الالهى الأعلى* .



- ٥ -

خدمة المعمدان الأولى

(لوقا ٣)

يا له من صوت الهى يستحق الاصغاء اليه
يتحرك على الأرض ويرعد فى الجو أهو رعد
ظهور الرب ؟أم هو موسيقى صلوات شعبه ؟
سوف يأتى الرب يقينا فيهتف ألف صوت
للقديسين والصم والبكم سوف يأتى يقينا فتفرح
الأرض بمجىء ذاك الذى قال أنا آتى سريعاً

(ف.و.هـ.مايزر)

مضت ثلاثون عاما تاركة أثرها على حياة المعمدان ، ومات الكاهن الشيخ وامرأته اليصابات ، ودفنتها أيد أخرى غير يدى ابنها النذيرالشاب . وتكاد تكون رواية ميلاده العجيب وما خلفته من انتظارات قد تلاشت من مخيلة أهل بلده . وظل يوحنا يعيش سنوات طويلة فى كهوف الصخور الجيرية التى تكثر فى البرية القاحلة الممتدة من حبرون الى شاطىء البحر الميت الغربية . وقد استطاع أن يذلل جسده بالإكتفاء بأبسط الطعام وأخشن اللباس . وأستطاع أن يستلم من الطبيعة ، ومن الكتب المقدسة ، ومن الاتصال المباشر بالله . اعلانات لا توهب الا للذى يستطيع أن يحتمل التأديب فى مدرسة العزلة والحرمان .

وقد تأمل أيضا بدقة فى علامات الأزمنة التى تلقن منها الكثير من المعلومات من البدو وغيرهم ممن أحتك بهم . وإذ إمتزجت هذه بكل الأفكار الأخرى إمتلأ قلبه بحقيقة قرب مجىء ذاك الذى كان واحدا من أقربائه ، والذى كان واثقا تماماً من أنه يترعرع فى إحدى القرى الجبلية ، وأنه سوف يظهر سريعاً لإسرائيل ، وكان يعلم أنه يصغره بستة شهور .

أخيراً حانت اللحظة التى فيها ينفس عن نفسه ، وينطق بالرسالة التى كانت تضغط على قلبه « وفى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطى واليا على اليهودية وهيرودس رئيس ربع على الجليل .. وفى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية » . ولعله حدث فى أحدالأيام أن كانت قافلة من السواح تسير فى الطريق الممتد بين أورشليم وأريحا فذهلوا اذ رأوا شخصا نحيل الجسم يتدلى شعره على كتفيه يصرخ صرخة داوية قائلا « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » .

وكأنما قد وقعت شرارة على مشاقة جافة . وانتشرت الأنباء بسرعة مدهشة بأن فى برية اليهودية إنسانا تجب رؤيته ، وهو يذكر كل من رآه بعظماء الأنبياء ، فكلماته النارية تحاكى كلمات أشعياء أو حزقيال . وللحال تقاطرت اليه الجموع من كل مكان « حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورةالمحيطة بالأردن » ، وذاعت الأنباء بسرعة فائقة بأنه ظهر بغتة قائد عظيم وواعظ قدير .

أخيراً أتخذ مقره فى مكان لا يبعد كثيرا عن راحة أريحا واقع على شاطىء بحر الأردن . فالتف حوله جموع من كل قبيلة وطبقة ومهنة ، كانوا يصغون إليه أو يقاطعونه بالصراخ اليه لطلب الإغاثة . جاء اليه أهل العاصمة (أورشليم) وكانوا يألفون خدمات الهيكل وفخامة القصر الملكى ، وجاء الصيادون من بحيرة جنيسارت ، وبنو إسماعيل من برية جلعاد ، والفريسيون المتغطرسون ، والعشارون المبغضون الذين سمنوا على إشلاء الشعب – جاء هؤلاء جميعا مع عامة الشعب الذين لم يجدوا راحة لنفوسهم فى الأديان المختلفة الموجودة فى أورشليم .

(١) كانت هنالك عوامل كثيرة عملت على إذاعة صيت يوحنا .

١ – أن وظيفة النبى كادت تنسى نهائيا . كانت قد مضت عدة قرون – كما لاحظنا فيما مضى – منذ أتم آخر نبى شهادته . كان أكبر رجل سنا فى ذلك الوقت لا يتذكر قط أنه رأى إنسانا قد تحدث الى نبى ، كان يبدو مستحيلا قيام نبى آخر فى ذلك الجيل المادى .

٢ – وفضلا عن هذا فقد أظهر أدلة وفيرة على أخلاصه وصدقه . ان عدم اهتمامه بأى شىء يمكن أن يقدمه العالم جعل الناس يشعرون بأن كل ما قاله موحى به بفضل إتصاله المباشر بالأشياء كما هى على حقيقتها .

كان مؤكدا أن حياته الخشنة الموحشة قد شقت الحجاب ومكنته من أن يعرف الأشياء على حقيقتها ، مع أنها كانت الى ذلك الوقت مخفاة عن البشر العاديين ، ولو أنها كانت تنتظر أن تعلن سريعاً .

وكان مؤكدا أيضا أن كلماته تمثل ماراَه أصدق تمثيل . لقد تكلم بما عرف ، وشهد بما رأى . كان كلامه ينم عن إقتناعه الكلى .

عندما يرى الناس خادم الله يهتم بمصالحه العالمية الشخصية ، حصيفا فى أمور البيع والشراء ، يهتم بالمظاهر ، يتذلل لذوى المناصب الرفيعة والأثرياء ، عندما يتبينون أن الرجل الذى يكرز يحرص على توظيف أرباح كتبه التى يدون فيها كرازته – فإنهم يميلون الى عدم تصديق كل كلامه . لكن يوحنا لم يكن فيه أقل أثر لهذا الطراز . ولذلك خرج اليه كل الشعب .

٣ – وهو فوق كل شىء لجأ الى أقتناعاتهم الأدبية ووضحها فعلا . كان الشعب يعرفون أنهم ليسوا كما ينبغى أن يكونوا . وقد ظل هذا الشعور يتأصل أكثر فأكثر . والآن تقاطروا الى ذلك الرجل الذى أعلن لهم أنفسهم وبين لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه . يا للتأثير السحرى العجيب الذى عمله فى أولئك الذين تحدث الى أعماق نفوسهم !!

كان هذا دواما هو مصدر قوة وعاظ الكنيسة البابوية العظماء أمثال ماسيلون . أما أغفال هذه الطريقة فى الإقتراب الى نفوس البشر فمعناه خسارة أقدر الأسلحة فى الإتصال بالناس . اذا لجأنا فقط الى العقل سبقنا فى هذا المضمار كتاب الأدب والروايات والقصص . ان خادم الله لا يستخدم سلطانه السامى المنقطع النظير بقدر ما يستخدمه فى الالتجاء مباشرة الى القلب والضمير .

وبالرغم من أن المرء قد ينفر من كرازة التوبة لكنها ان تحدثت بالحق عن نفسه وجد ذاته منجذبا بقوة سحرية ليسمع الصوت الذى يجرحه . لقد وبخ يوحنا هيرودس من أجل أمور كثيرة ، لكن ذلك الطاغية إستدعاه مرارا « وسمعه بسرور » (مر ٦ : ٢٠) .

قبل صراحة أن يوحنا « رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معمـوديته » (مت ٣ : ٧) . ويبدو أن مجيـئهم قد بعث فى نفسه بعض التعجب « يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى » ؟ ويوحى هذا الوصف الذى وصفهم به أنهم أتوا لمجرد الإنتقاد - لأنهم لايريدون مطلقا التسليم فى قيادة اسرائيل الروحية ، كما كانوا يتلهفون على أن يبقوا على إتصال بالحركة الجديدة الى أن يمتصوا حيويتها أو يحولوا تيارها الى مصلحتهم الشخصية .

لكن الأرجح أنه كانت هنالك بواعث أعمق فى كثير من الحالات ، فالفريسيون كانوا حفاظ الطقوس ، كانوا يتشاجرون لأتفه الأمور كانوا يدققون فى كل شيء لدرجة أنهم كانوا يستطيعون تحديد المسافة بالبوصة التى يحل سيرها يوم السبت . لكن مجرد الأمور الظاهرية الدينية لن تشبع بصفة مستمرة النفس التى خلقت على صورة الله ، والتى لابد أن تتحول عنها بنفور شديد وبرغبة ملحة نحو الاله الحى .

أما الصدوقيون فقد كانوا ماديين ، يقال ان رد فعل الخرافات هو الكفر ، ولذا كان رد فعل الفريسية هو الصدوقية ، لأن الصدوقيين إذ كرهوا تفسير الأسفار المقدسة تفسير حرفيا متزمتاأنكروا أن هنالك عالما أبديا وحالة روحية ، وأكدوا أنه « لا قيامة ولا ملاك ولا روح » .

لكن مجرد الموقف السلبى لا يشبع . فالقلب لا يزال يئن محاولا التعبير عن ألمه الممض تحت ظـلام مـذهب اللاأدرية (١) . والغرائز الطبيعية أشـد قـوة من العقل . فلا يستغرب إذا أن وجدنا هاتين الطائفتين الكبيرتين ممثلتين فى الجموع التى إحتشدت على شواطىء الأردن .

(٢) ولنذكر بايجاز الأغراض الرئيسية من كرازة المعمدان .

١ - « **قد اقترب ملكوت السماوات** » . كان اليهودى يفهم من هذه العبارة عودة حكم رجال الدين ، والرجوع الى تلك الأيام العظيمة فى تاريخ شعبه حينما كان الله نفسه هو المشرع وهو الملك . ألم يتنبأ دانيال أنه فى أيام آخر الامبراطوريات العظيمة الممثلة فى حلم نبوخذنصر يقيم اله السـماوات مملكة لن تنقـرض أبدا تسحق وتفنـى كل الممالك ، وهى تثبت الى

---

(١) هو الذى يقول بعدم كفاية العقل لفهم الوحى .

الأبد ؟ ألم ير مقدما ذلك العصر الذى فيه يأتى ذاك الذى قيل بأنه مثل ابن إنسان الى القديم الأيام لكى يأخذ منه سلطانا أبديا لن يزول وملكوتا لا ينقرض (دا ٧ : ١٣و١٤) ؟ ألم يتنبأ بأن عظمة الممالك التى تحت كل السماء سوف تعطى لقديسى العلى (دا ٧ : ٢٧) ؟ .

اذا فقد كانت كل هذه النبوات على وشك الإتمام . كان المسيا الذى طال إنتظاره قد اقترب . وهنا يسبقه المعمدان ممهد الطريق الذى وصفه أشعياء النبى بالقول :

صوت صارخ فى البرية
أعدوا طريق الرب
قوموا سبله

(اش ٤٠ : ٣)

لكن لابد أن أن سامعيه قد أساءوا فهم وصفه لأحوال وملابسات ذلك الحكم الذى طال إنتظاره . فأنه بدلا من الإسهاب فى وصف المجد المادى لعصر المسيا ، الذى يفوق جدا مجد سليمان ، أصر على ضرورة اتمام بعض المطالب الرئيسية ، الأمر الذى رفع كل الفكرة عن الحكم المرتقب الى مستوى جديد أحتلت فيه مركز الصدارة الأمور الداخلية الروحية بدلا من الأمور الخارجية المادية . هذا هو الدرس القديم الذى يحتاج الى تكرار فى كل العصور ، إنه ان لم يولد الإنسان من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله .

ثق من هذا أنه لن تستطيع أية ظروف خارجية - مهما كانت جميلة ونافعة - أن تهب البركة الحقيقية . قد نوضع وسط السماء نفسها ونكون فقراء وبؤساء وعميانا وعرايا ما لم يتحد القلب بالمحبة مع الحمل الذى فى وسط العرش . هو نور تلك المدينة وطلعته تنيرها ، ومن عرشه يجرى نهر مسراتها ، وخدمته هى عملها المبهج السار . وإنعدام الشركة معه معناه انعدام الإنسجام مع أفراحها .

يجب أن تتركز الحياة فى المسيح لكى تتوافق مع بركة السماء . ولن نجد راحة أو سعادة طالما كنا نتوقع أن نجدهما فى الظروف الخارجية ، لكننا عندما نصطلح مع الله فأننا نجد البركة والراحة ، البر بركة . عندما يتوج الملك فى القلب تصبح النفس فى الملكوت الذى هو بر وسلام وفرح فى الروح القدس ، بل بتعبير أدق يصبح ذلك الملكوت في النفس . وعندما تخضع القلوب للملك ، عندما ترفع كل الأبواب رؤوسها ، وتنفتح الأبواب الدهرية لدخوله ، فعندئذ تزول اللعنة التى ظلت ترفرف طويلا فوق العالم .

كل الخليقة تئن وتتمخض متوقعة إستعلان أبناء الله . لكنها عندما تعلن فى كل جمالها يسكن الحق فى البرية ، والعدل فى البستان يقيم ويكون صنع العدل سلاما وعمل العدل سكونا وطمأنينة الى الأبد ، يصير السراب أجما والمعطشة ينابيع ماء (اش ٣٢ : ١٦و١٧ ، ٣٥ : ٧) .

٢ - وبجانب أعلان الملكوت أصر يوحنا على المناداة بـ « الغضب الآتى » . لقد رأى أن مجىء الملك سيجلب الآلام حتما لمن كانوا منغمسين فى الخطية .

كان لابد أن يكون هنالك تمييز دقيق فأن المسيا الذى كان مرتقبا كان لا بد أن يميز بدقة بين الأبرار والأشرار ، بين الذين خدموه ، والذين لم يخدموه ، وقد وضح المعمدان كلماته بتشبيه يألفه الشرقيون . فعندما تحصد الحنطة تجمع فى حزم وتنقل الى البيدر ، وهو عادة مكان مستدير ذو أرض صلبة يتراوح قطره بين خمسين ومائة قدم .

فى هذا البيدر تدرس الحنطة لعزلها عن التبن ، لكن الإثنين يبقيان مختلفين ببعضهما حتى المساء حيث تذرى الحنطة بالرفش (المذراة) وترفع الى أعلا فى وجه نسيم المساء ، وهكذا يحمل النسيم التبن بعيدا . أما الحنطة فتسقط على الأرض . لذلك صرخ المعمدان قائلا توجد عملية تمييز وفرز دقيقة قبل ان تشتعل النار التى لا تطفأ لكى لا يعين شىء للنار سوى التبن . وهذه نبوة تمت بحذافيرها . ففى البداية جذب المسيح لنفسه كل البشر ، ولكن حالما بدأت خدمته كشف صفاتهم . فانجذب القليلون اليه بصفة دائمة أما الأغلبية فقد نفروا منه . لم يكن هناك صنف وسط . كان الناس أما له أو عليه . كان الخراف عن جانب والجداء عن الجانب الآخر . كان هنالك خمس عذارى حكيمات وخمس جاهلات . كان هنالك قوم دخلوا من الباب الضيق وآخرون تزاحموا حول الطريق الواسع المؤدى الى الهلاك .

وهذا ما حدث فى كل جيل . إن يسوع هو المحك . وموقفنا بأزائه يكشف القناع عن طبيعة النفس الحقيقية .

وكان لا بد أن يكون أيضا وقت للاختبار . « قد وضعت الفأس على أصل الشجرة » . وهذه عملية مألوفة للذين يعرفون شيئا عن الغابات . ان الحطاب يقطع الشجرة التى تشغل مكانا يمكن إستخدامه بطريقة أنفع . وهو لا يتعجل فى الأمر . فأنه بعد فحص دقيق تخرج الكلمة من فمه « أقطعها . لماذا تبطل الأرض » . وإذا ما خرجت هذه الكلمة من فمه فلا مجال للإستئناف .

كانت الأمة اليهودية قد أصبحت مع الأسف الشديد عديمة الثمر . لكن كانت هنالك فترة مهلة – ثلاث سنوات . هى مدة خدمة السيد . ثم أضيفت إليها ثلاثون سنة . كان ينبغى أن تمر هذه الفترة قبل حلول الغضب الذى هددوا به . وفى أثناء هذه الفترة كانت الفأس موضوعة على أصل الشجر تتهيأ لتضرب الضربة القاضية . على أنها لم تمتد لتضرب هذه الضربة إلا بعد أن انتزع كل رجاء فى الاصلاح ، وبعدئذ لقيت الأمة مصيرها المحتوم .

لعل هذه هى حالة أحد القراء . لقدغرست فى مكان جميل وشربت من ندى نعمة الله ومطره ، وسطعت عليك أشعة شمس عنايته ولكن أى ثمر قدمت ؟ بماذا كافأت الكرام السماوى ؟ ألا يفكر هو الآن فى نتائج إطالة الفرص التى قدمها لك لكى تثمر ؟ لقد أنتظر عنبا لكنك قدمت عنبا رديا . ربما يفكر أنه من الأصلح أن يجردك من الوكالة التى إستخدمتها لماربك الشخصية لا لمجده .

ان « الغضب الآتى » مهيأ حتما لامثال هؤلاء . بعد الفحص الدقيق وبعد تقديم الفرص الكثيرة للاصلاح ، وبعد اصرار النفس على موقفها وعنادها ، يجب أن يكون هنالك « قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين » (عب ١٠ : ٢٧) .

لعل نار كرازة يوحنا قد تمت مبدئيا فى النكبات المروعة التى حلت بشعب اليهود ، والتى بلغت نهايتها القصوى فى حصار أورشليم وسقوطها نحن نعرف كيف أن جماعة المؤمنين القليلين الذين آمنوا بكرازة المسيح وتلاميذه قد حسبوا – بكيفية معجزية – أهلا للنجاة من كل تلك النكبات التى حلت ، وأهلا للوقوف أمام ابن الله . أما أغلبية الشعب اليهودى الذين لم يؤمنوا فقد تبين أنهم هم التبن والأشجار غير المثمرة ، وهم الذين أعدوا لتلك النيران المروعة التى تركت آثارها فى فلسطين الى هذا اليوم .

لكن هنالك معنى أعمق . فان غضب الله يحل لا على الأمم كجماعات بل على الخطاة كأفراد . « الذى لايؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يوحنا ٣ : ٣٦) . ان قصاص الخطية أمر لا مفر منه . واجرة الخطية هى موت . والأرض التى تخرج شوكا وحسكا بعد أن شربت المطر الآتى عليها مرارا كثيرة فهى مرفوضة وقريبة من اللعنة ، ونهايتها للحريق (عب ٦ : ٧ و ٨) .

فى العهد القديم كان كل تعد ومعصية ينال مجازاة عادلة (عب ٢ : ٢) . كان، كل من خالف ناموس موسى فعلى فم شاهدين أو ثلاثة شهود يموت

بدون رأفة . فكم عقابا أشر تظنون إنه يحسب مستحقا من داس إبن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنسا وازدرى بروح النعمة » (عب ١٠ : ٢٨و٢٩) .

وحتى إذا سلمنا - وهذا ما يجب أن يكون - أن الكثير من التعبيرات التى تشير إلى هلاك الأشرار رمزية ، فيجب التسليم أيضا أن لها مثيلاتها فى دائرة النفس والروح ، وهذه مروعة جدا بقدر ما تسمو النفس على الجسد . ان النار للجسد محتملة بالمقارنة مع بعض أنواع الآلام التى يتعرض لها القلب والنفس أحيانا حتى فى هذه الحياة . ألم نقل فى بعض الأحيان « إن الآلام الجسدية يمكن إحتمالها . أما الآلام التى تعض القلب ، الآلام الداخلية التى تحرق كالنار فكيف يمكن أن تحتمل » ؟

وإن كنا نتألم من التشهير والجحود وسوء الظن فى هذه الحياة ، حيث توجد بعض الملطفات والتعزيات الوقتية ، فكيف تكون حالة الآلام فى الحياة الأخرى حيث لا توجد ملطفات أو تعزيات ، حيث لا توجد جرعة ماء تخفف العطش ؟ صدقونى أنه عندما قال المسيح « فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى » كان قد رأى عذابا مروعا ، كان خيرا للمعذبين لو لم يولدوا .

لقد رأى كل الوعاظ المقتدرين نتائج الخطية المروعة وشهدوا بأمانة عنها كما تتم فى هذه الحياة والحياة الأخرى . إن السبب فى ضعف كرازتنا فى الأيام الحاضرة وعقمها هو عدم رؤية هلاك الأشرار المحتوم فى كثير من الأحيان ، لن تستطيع أن تجد محصولا من الأرض بمجرد رذاذ بسيط من الأمطار وبأشعة الشمس، بل يجب حرثها عميقا وعندما نرى-نحن وعاظ اليوم- الخطية كما يراها الله ، ونبدأ بأن نطبق المقاييس الإلهية على الضمائر البشرية ، عندما تتبين فى عيوننا وفى نغمة أحاديثنا الحزينةغيرتنا الشديدة ولهفتنا على الآخرين ، عندما نعرف أهوال الرب ، ونبدأ باقناع الناس كأننا نريد أختطافهم من النار بالحاحنا وتوسلاتنا - فاننا عندئذ فقط ندرك نتائج كرازة المعمدان عندما التف حوله الجند والعشارون والفريسيون والكتبة قائلين « ماذا نفعل » ؟

إذا فقد كانت كل كرازة يوحنا تؤدى إلى طلب التوبة . كانت الكلمة التى طالما إنسابت من بين شفتيه هى « توبوا » . لم يكن كافيا الإنتساب المباشر لإبرهيم ، أو إتمام الطقوس الموسوية . فالله قادر أن يقيم من الحجارة أولادا لإبرهيم. بل يجب ترك الخطية، والرجوع النهائى إلى الله، وصنع أثمار تليق بالتوبة والحياة المصلحة . لم تكن هنالك طريقة أخرى لاعداد الشعب لمجيء الرب .

معمودية التوبة

(مر ١ : ٤) (١)

جاء آخر وأعظم سفراء ملك السماء وعلى حقويه منطقة من جلد خشن وأسرع نحو الصحراء وعاش بين الوحوش لكنه وجدها وديعة ومسالمة أكثر من الإنسان كان طعامه جرادا وعسلا بريا وكان جسده نحيلا وعيناه غائرتين فبدا منظره محتقرا ومرذولا من الناس

و . درامونـد

فى الوقت الذى نتحدث عنه الآن ظهرت شيعة غريبة تدعى شيعة الأسينيين ، وانتشرت فى فلسطين ، لكن موطنها كان فى واحة « عين جدى » . ولابد أن يوحنا إختلط مع معتنقى مبادىء هذه الشيعة الذين كانوا متصوفى زمانهم .

كان هدف الأسينيين الطهارة الأدبية والطقسية . كانوا يسعون نحو المثل الأعلى للقداسة ، التى إعتقدوا أنها لن تتحقق فى هذا العالم . ولذلك هجروا القرى والمدن ، ولجأوا إلى المغائر وشقوق الأرض . وكرسوا أنفسهم للزهد والتقشف والأصوام والصلوات ، وكانوا يعولون أنفسهم ببعض أعمال زراعية خفيفة . ويخبرنا الذين بحثوا تاريخهم أن النقطة الرئيسية عندهم كانت هى الإيمان بكلمة الله الموحى بها . كانوا يرجون أن يصلوا إلى أسمى درجات الشركة مع الله بالتأملات والصلاة وتعذيب الجسد والغسلات الكثيرة والتدقيق فى حفظ نواميس الطهارة الطقسية . وقد اتفقوا مع الفريسيين فى حفظ السبت بالدقة المتناهية . كان طعامهم اليومى من أبسط الأنواع ، وكانوا

(١) « كان يوحنا يعمد فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » .

يتناولونه فى أمكنة إجتماعاتهم الدينية . وبعد الإستحمام كانوا يتلون بضع صلوات ونصائح ، ثم يذهبون إلى غرف تناول الطعام بوجوه مغطاة كأنهم ذاهبون إلى هيكل مقدس ، كانوا يمتنعون عن الأقسام ويحتقرون الثروة ، ويمقتون جدا الحرب والعبودية ، ويواجهون التعذيب والموت بكل شجاعة ، ويعافون الإنغماس فى الملذات .

وواضح أن يوحنا لم يكن عضوا فى هذه الجماعة المقدسة التى كانت تختلف إختلافا بينا عن الفريسيين والصدوقيين فى زمانهم . كان الأسينيون يلبسون ملابس بيضاء رمزا للطهارة التى ينشدونها ، أما هو فكان يكتفى بلبس ثوب من وبر الأبل ، ووضع منطقة من جلد على حقويه . كانوا يغمسون الخبز بالزوفا ، أما هو فكان يغمس بالعسل ، كانوا يعيشون حياة إجتماعية ، أما هو فعاش وحيدا منذ فجر حياته . لكن لا شك فى أنه إتفق مع هذه الشيعة فى كثير من التعاليم والتصرفات .

وبالرغم من ذلك فإن يوحنا المعمدان لم يتأثر بأية ظروف كائنة فى عصره . فقد منحه الله قدرة انفرد بها وحده . أما إنه كان شاعرا بهذا فيتبين من تصريحه الذى قال فيه « الذى أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى » . (يو ١ : ٣٣) ، ومن إجابة المسيح للفريسيين « معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس » يتضح أنه أراد أن ينقل إلينا نفس الفكرة . وفضلا عن ذلك فإن الروح القدس يؤكد لنا على لسان الإنجيلى الرابع أنه « كان إنسان مرسل من الله إسمه يوحنا . هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكى يؤمن الكل بواسطته » (يو ١ : ٦) . كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية فجاء إلى جميع الكورة المحيطة (لو ٣ : ٣) .

(١) الدعوة للتوبة :

ليوحنا خدمة مع كل البشر. أو بتعبير آخر إنه يمثل نوعا من التعليم والتأثير ينبغى أن نجوزه إذا أردنا حقا أن نتبين نعمة المسيح ونقدرها حق قدرها . ينبغى أن يتم معنا نحن أيضا عمل تمهيدى . هنالك جبال من الكبرياء ومحبة الذات يجب أن تمهد ، هنالك طرق معوجة ومنحرفة يجب أن تقوم ، هنالك خشونة يجب أن تصقل، وذلك ان أردنا أن نبصر مجد الله فى وجه يسوع المسيح. وبقدر ما تكون توبتنا كاملة ودائمة بقدر ما ندرك ملءحمل الله ومجده.

لكن ينبغى أن نحذر كل الحذر هنا لئلا يظن أن التوبة نوع من الأعمال الصالحة ينبغى أن تتم لكى نستحق نعمة المسيح . ينبغى أن يكون واضحا أيضا أن التوبة يجب أن لا ينظر إليها بدون الإيمان فى المخلص ، فالإيمان جزء منها لا يتجزأ . وينبغى أن يكون واضحا كذلك أنه بالرغم من أن « الله يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا » (أع ١٧ : ٣٠) . فإن يسوع رفع « ليعطى التوبة وغفران الخطايا » (أع ٥ : ٣١) .

ان معنى التوبة حسب التفسير الحرفى للكلمة فى اليونانية هو « تغيير العقل » . ولعله من الأفضل أن نقول : تغيير فى وجهة نظر الإرادة . ان النفس غير التائبة تختار طريقها وإرادتها دون مبالاة بناموس الله. «إهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعا لناموس الله لأنه أيضا لا يستطيع . فالذين هم فى الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله» (رو ٨ : ٧ و ٨). أما فى التوبة فالنفس تغير موقفها . لأنها لا تعود بعد ترفض نير إرادة الله كثور حرون ، بل تخضع له وتكون مستعدة أن تخضع . ان تأنيب الضمير يعمل عمله بصفة مستمرة ، والشعور بأباطيل كل المخلوقات موجود بصفة مستمرة ، والرغبة الملحة نحو الحياة الحقيقية ، ونحو الرجوع من الظلمة الى النور ومن سلطان الشيطان الى الله . قد تتمرد العادات ، قد تنفر الميول ، قد يعوزنا الشعور بالسلام والفرح ، لكن الإرادة قد وضعت قرارها السرى وبدأت فى الرجوع الى الله كما يحدث فى دورة الأرض فإن المكان الذى نسكن فيه يصل إلى أبعد نقطة عن الشمس ثم يتجاوزها ويبدأ ببطء فى العودة نحوها ، الى الدفء والحرارة .

مما لا شك فيه أن التوبة هى من عمل الإرادة . فى بدايتها قد لا يكون هنالك أى شعور بالفرح أو الإصطلاح مع الله ، بل شعور بأن بعض طرق الحياة خاطئة وشريرة ومؤذية ومحزنة لله ، ورغبة تتحول الى عزم على الرجوع عنها ، وطلب الله الذى صنع الجبال وخلق الريح ، الذى يجعل الفجر ظلاما ويمشى على مشارف الأرض (عا ٤ : ١٣) .

يمكن إعتبار التوبة بأنها الجانب الآخر من الإيمان . هما وجهان لعملة واحدة ، ناحيتان لعمل واحد . ان كان عمل النفس الذى يأتى بها علاقة طيبة مع الله يسمى رجوعا عن الطريق الذى تسلكه فإن التوبة تمثل الرغبة فى الرجوع عن الخطية ، والإيمان يمثل الرغبة فى الرجوع الى الله . يجب أن

نكون راغبين فى الرجوع عن الخطية وعن برنا الذاتى . هذه هى التوبة . ويجب أن نكون راغبين فى أن نخلص بالله ، بطريقته ونأتى إليه من أجل هذه الغاية ، وهذا هو الإيمان .

ونحن نحتاج إلى الرجوع عن برنا الذاتى كرجوعنا عن خطايانا . تحدث أغسطينوس عن مساعيه وراء البر وقال عنها إنها خطايا جميلة . وبولس تنصل من كل المساعى التى بذلها للاصطلاح مع الله قبل رؤية وجه المخلص . يجب أن تكف عن جهودك التى تبذلها لتخلص نفسك . ليست هذه إلا « ثوب عدة » (١) على حد تعبير النبى (اش ٦٤ : ٦) . لا شىء غير المخلص وعمله ينفع النفس التى يجب أن تواجه الفحص أمام العدل الإلهى والطهارة الكاملة .

تأتى التوبة أحيانا وبصفة خاصة بالاصغاء إلى مطالب المسيح . فإننا نستيقظ فجأة لنتحقق من شخصيته ، ونرى كيف يحبنا ، وكم ينقصنا ، والجحود الشديد الذى اظهرناه نحو آلامه ، وقطرات دمائه وصليبه ، وجمال صفاته ، وقوة مطالبه .

وفى أحيان أخرى تنتج التوبة من كرازة يوحنا المعمدان . عندما نسمع عن الفأس توضع على أصل الشجر ، وعن النار التى لا تطفأ المعدة لالتهام التبن ، ترتعش فرائص القلب . عندما نؤخذ الى حافة الهاوية فنضطر أن نرى طريق الغرور الذى نسلكه ينتهى بالهلاك المحتم . عندما تنهدم ثقتنا فى برنا الذاتى ونسمع كرازة المعمدان فى مثل هذا الوقت ترى النفس خيبت كل آمالها فى أباطيلها التى صنعتها لنفسها ، وترجع منها كلها كما رجعت مريم من القبر الذى دفنت فيه آمالها فوجدت يسوع واقفا ، ومجد القيامة باديا على وجهه ومحبته الملتهبة من عينيه .

وخليق بنا أن نميز بين الكلمتين « توبة » و » ندامة » فالأولى هى أول عمل للإرادة عندما تنتعش وتحيا بالروح القدس ، فترجع من الأعمال الميتة لتعبد الله الحى الحقيقى والثانية تمثل الإنفعالات التى تتأثر بقوة بمرور السنين بالروح القدس إذ يبين كل الآلام والأحزان التى سببتها خطايانا لربنا المبارك . إننا نتوب مرة واحدة لكننا نندم مرارا . إننا نتوب ونؤمن بالإنجيل ، نؤمن بإنجيل

---

(١) أو « ثوب الطامث » حسب ترجمة اليسوعيين أو « خرق قذرة » حسب الترجمة الانكليزية .

إبن الله ، وإذ ننظر إلى الذى طعنته خطايانا ننوح . إننا نتوب عندما نطيع دعوته للمجيء إليه لنحيا ، ونندم إذ نقف خلفه باكين ، ونبدأ بأن نغسل قدميه بدموعنا ونمسحها بشعر رؤوسنا .

إن لم يكن يوحنا المعمدان قد عمل عمله فيك قط فاحرص على أن تفتح قلبك لصوته الداوى . دعه يتمم خدمته . أحرص على أن لا ترفض مشورة الله إذ تخرج من شفتيه ، بل عرض نفسك لقوتها الفاحصة ، واسمح لها بأن تتخذ طريقا مستقيماً . إن المعمدان يأتى لكى يعد طريق الرب ، ويقوم فى قفر طبيعتنا سبيلا لالهنا (اش ٤٠ : ٣) . وطبيعى أنك إن كنت منذ حداثتك قد نعمت بالحياة مع والدين تقيين ، وقد تحول قلبك الصغير الى الله فى فجر الحياة ، فلا داعى لك لتجوز هذه الإختبارات مثل الذين قضوا السنوات الطويلة فى خدمة الشيطان . هؤلاء ليست لهم الا كلمة واحدة هى « توبوا » . يجب أن يتخذوا فى لحظة موقفا مختلفاً نحو الله والقداسة نحو المسيح وخلاصه .

(٢) علامات ومظاهر التوبة :

١ - **الإعتراف** : « واعتمدوا جميعهم منه فى نهر الأردن معترفين بخطاياهم » . ليس من الميسور أن نقول ماذا تعنيه هذه العبارة بالدقة . لكن لعل المقصود أن الناس إذ احسوا بتأنيب الضمير ومرارة النفس بسبب فساد حياتهم وشعورهم بخطاياهم الدفينة وقفوا « مقرين ومخبرين بأفعالهم » كما حدث فى موقف خالد بعد ذلك بوقت طويل (اع ١٩ : ١٧ - ٢٠) .

إعترف المتمسك بمجرد المظاهر ان قبر خدماته الدينية المبيض يخفى عفونه ونتانة . واعترف المتشكك بأن سبب رفضه الديانة يعزى الى بغضته لمطالب ناموس الله المقدس ، وإعترف الجموع بأنهم أنانيون شهوانيون أغلقوا أحشاءهم ورفضوا أن يقدموا للفقراء ما يحتاجونه من لباس وطعام . واعترف العشار بأنه قد ابتز أموالا أكثر من اللازم . واعترف الجندى بأنه تحت ستار وظيفته أزعج المساكين ووجه التهم الكاذبة لكثيرين من الأبرياء ، اعترف صاحب السيرة الشريرة أنه كثيرا ماكمن للدماء وأهلك الأبرياء طمعا فى ربح أو حقدا عليهم . وهكذا إمتلأ الجو من صراخ وتنهدات الجماهير المتألمين الذين رأوا خطيتهم لأول مرة فى نور الأبدية وفى ضوء هلاكها المحتوم . وهكذا كانت لهب « الغضب الآتى » تسطع إشعتها الفاحصة على التصرفات التى كانت ترى فى غبش الجهل والإهمال أنها لا غبار عليها .

وبجانب شاطىء ذلك النهر إعترف الناس بخطيتهم لا إلى الله فحسب بل أيضا إلى بعضهم بعضا . وهنا زالت الأحقاد القديمة ، وسويت النزاعات السابقة ، وتبودلت كلمات الإعتذار والصفح ، وصافحت الأيدى بعضها بعضا بعد مرور سنوات من القطيعة والنزاع .

الإعتراف علامة أساسية للتوبة الصادقة وبدونه يصبح الغفران مستحيلا . « من يكتم خطاياه لا ينجح . ومن يقر بها ويتركها يرحم » (ام ٢٨ : ١٣) ان إعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم » (١ يو ١ : ٩) . طالما كنا ملتزمين الصمت فإن عظامنا تشيخ فى آلامنا الداخلية ، وتحرقنا الحمى ببطء . ولا يمكن أن نجد راحة ولو اضطجعنا على أريكة من حرير ، لكن عندما نعترف بخطـايانا فإننا نجـد الراحـة فى الحال « قلت إعترف للرب بذنبى وأنت رفعت آثام خطيتى » (مز ٣٢ : ٥) .

إعترفى لله بخطيتك أيها النفس المتعبة المحرومة من رؤية المسيح . الأرجح جداً أن خطية دفينة ، أو خطية لم يعترف بها ، تحجب أشـعة الشمس الحقيقية . لا تلتمس المعاذير ، لا تهون شيئاً ، لا تتحدث عن الخطأ فى الحكم على الأشياء ، بل عن عدم إستقامة القلب والإرادة . لا تكتف باعتراف إجمالى بل أذكر خطـاياك بالتفصيل . قدم كل تصرف خاطىء أمام محكمة الله العادلة ، اكشف الأسرار وتحدث عن الرواية المظلمة الأليمة . ابدأ من البداية ثم كمل إعترافك . وحالما تعترف بخطاياك فإنك تجد التأكيد بالغفران من أجل ذاك الذى أحبنا وبذل نفسه كفارة لخطايانا ، وليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم . حالما ننتهى من الإعتراف ، بل حتى فى أثناء الإعتراف ، نسمع الصوت الإلهى يؤكد لنا بأن خطايانا الكثيرة قد أبعدت عنا كبعد المشرق من المغرب ، وقد طرحت فى أعماق البحر .

لكن الإعتراف يجب أن لا يكون لله وحده أو للكاهن وحده ، عندما تكون الخطايا قد أساءت إلى الآخرين . ان كان لأخينا شىء علينا وجب أن نبعث عنه – تاركين قرباننا على المذبح – ونصطلح معه إولا . يجب أن نكتب خطابا طالبين الصفح ، أو ننطق بكلمات الإعتذار ، يجب أن نصلح ما أفسدناه إصلاحا كريما ونعوض ما اتلفناه . يجب أن لا نتخلف وراء صفوف خطاة العهد القديم الذين أمروا بأن يضيفوا خمسا عند رد الخسائر التى سببوها

لاخوتهم . والخطية الوحيدة التى نتبرر فى الإعتراف بها لإخواننا هى التى إرتكبناها ضدهم . وما عداها فيجب أن نعترف بها لله على يد كاهنه .

٢ – **أثمار تليق بالتوبة** : « أصنعوا أثمارا تليق بالتوبة » . هذا ما قاله يوحنا ، بشىء من الغضب عندما رأى الكثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته . لقد أصر على أن المسيحية العملية ليست أقوالا بل حياة ، ليست مجرد المظاهر والطقوس بل المبادىء . وقرر بأن صدق التوبة يجب أن تشهد له الثمار المناسبة « هل يجتنون من العنب شوكا أو من التين حسكا » .

ولعل طلب المعمدان هذا هو الذى بعث زكا على إعترافه للمسيح لما دخل إلى بيته . كان هذا العشار الغنى يعيش فى أريحا التى كرز يوحنا بجوارها ، والأرجح أنه كان واحدا من العشارين الذين خلبت البابهم خدمته . إننا نتخيل التعليقات التى يمكن أن تكون قد جرت على ألسنة أصدقائه حينما رأوه فتهامسوا بعضهم إلى البعض . وقال واحد منهم « أليس هذا هو زكا ؟ » . وقال الآخر « ماذا يفعل هنا ؟ » . وقال ثالث « لعله يجىء الوقت لكى يعود الى صوابه » . وقال رابع « أرجو أن يستطيع المعمدان التأثير على حياته » .

وكان هناك ما مس ذلك القلب المتحجر. لقد نبت فيه رجاء عظيم وعزم أكيد. لعله اشترك فى الإعترافات السابق الإشارة إليها . لكنه فعل أكثر ذلك . فإنه لدى وصوله إلى أريحا صار إنسانا جديدا . لقد أعطى نصف أمواله لاطعام المساكين ، وان كان قد وشى بأحد رد أربعة أضعاف . كثيرا ما شوهد خادمه فى أحقر أحياء المدينة باحثا عن أفقر المساكين وموزعا عليهم الصدقات من شخص مجهول . وسر الكثيرون من الفقراء إذ وجدوا مبالغ محترمة تدفع إليهم مع قصاصة ورق موقع عليها من محصل الضرائب الغنى يقول فيها « لقد أخذت منك مبلغا من المال منذ سنوات دون أن يكون لى الحق فيه ، وها أنا أعيده اليك مع تعويض أربعة أضعاف » . وان سأله أحد عن سبب كل هذا أجاب « لقد نزلت الى الأردن وسمعت المعمدان وأعتقد أن الملكوت قريب وأن الملك قد اقترب وأريد أن أستعد له حتى اذا ما أتى أمكنه أن يمكث فى بيتى».

انك لن تستطيع أن تصطلح مع الله الا اذا اصطلحت مع أخيك الانسان . لا يكفى أن تعترف بالاساءات التى اقترفتها بل يجب أن تكون مستعدا

للتعويض عنها على قدر استطاعتك . ليست الخطية أمرا هينا ، ويجب معالجتها من جذورها وفروعها .

٣ – **معمودية التوبة** : « واعتمدوا منه معترفين بخطاياهم » . ان خاصية التطهير التى للماء قد أعطته أهمية دينية منذ الأجيال السحيقة فالبشر نظروا الى الخطية كتلوث فى القلب ، وصاغوا طلباتهم لازالتها فى كلمات مشتقة من استعمال الماء « طهرنى بالزوفا فاطهر . اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج » .

لقد تاقوا أن يشعروا بأنه كما يتخلص الجسد من الدنس هكذا ينبغى أن تتحرر النفس من التلوث . وفى بعض الأحيان اتخذت هذه الفكرة شكلا ماديا فنسب الناس لمياه بعض الأنهار ، كالجنج والنيل وابانة ، قوة سحرية للتطهير من الخطية .

على أنه لم يكن فى تعليم يوحنا شىء من هذا . فانه لم يناد بمعمودية الولادة الثانية ، بل بمعمودية التوبة . كانت تعبر عن وترمز الى رغبة النفس وقصدها أن تعترف بخطاياها كشرط أساسى للحصول على الغفران الالهى .

ليس أمرا جوهريا أن نناقش الموضوع الشائك الخاص بالمصدر الذى استقى منه يوحنا معموديته . فالبعض يقولون انه استقاها من عادات الاسينيين أو ممارسات الربيين الذين كانوا يلزمون جميع المتهودين من الأمم بممارسة هذا الطقس . لكنه يكفينا أن نذكر بأنه قد أرسل ليعمد ، وأن فكرة معموديته كانت « من السماء » ، وأن الطقس اذ وصل الى يديه اتخذ شكلا جديدا وأهمية جديدة . كان يعنى الموت عن الماضى ودفنه ، والقيامة الى حياة جديدة أفضل ، كانت النفس اذ تنسى ماهو وراء ، وتموت عنه ، وتحث بأن تدرك معنى هذه الخدمة الرمزية ، وتمتد الى ما هو قدام والى ما هو فوق ، الى ما هو أفضل . واثقة أنها اذ تفعل هذا قد قبل الله اعترافها ، وأنه كان ينتظر أن يقبلها راحما ويحبها فضلا .

من السهل أن نرى كيف وجد كل هذا قبولا عند الشعب، ومس قلوب الشباب بصفة خاصة ! فى ذلك الوقت كان هنالك بجوار بحر الجليل جماعة قليلة من الشبان الغيورين الذين تأثروا جدا بالتيارات الفكرية المحيطة بهم، وكانوا يمقتون أسلوب حياة الرومانيين ، وعلى أحر من الجمر انتظارا لمجيء الملكوت .

عندما كانوا يقضون ساعات الليل فى سفن الصيد فى بحر الجليل كثيرا ما تحدثوا عن عهد الله القديم ، وعن مجيء المسيا وعن رجاسات خدمة هيكلهم المحبوب . وإذا آتتهم الأنباء يوما ما عن هذا الكارز الجديد الغريب ، تركوا كل شيء ، وهاموا على وجوههم حتى وصلوا إلى وادى نهر الإردن ، فوقفوا مبهوتين أمام كلماته .

تعرف يوحنا عليهم كلهم ، أما واحدا فواحدا أو جملة ، فأصبحوا أصدقاءه الحميمين وتلاميذه الموالين . نحن نعرف إسم واحد أو اثنين منهم ، وهذان تركا معلمهم السابق لاتباع المسيح . لكننا لا نعرف شيئاً عن الباقين سوى أنه علمهم أن يصوموا ويصلوا ، وأنهم التصقوا بمعلمهم العظيم بذلك الذى سبق أن نظروا إليه بشيء من الشك بأنه منافس له .

كان ذلك يعنى شيئاً كثيرا ليوحنا . فإنه لم يكن له أصدقاء قط . ولا شك فى أن محبة وولاء هؤلاء الشبان النبلاء والتفافهم حوله بعثت فى نفسه راحة جزيلة . لكنه كان يحول أنظاره بصفة مستمرة عنهم أجمعين ، كأنه كان يتطلع إلى شخصية أسمى تبرز حالا من الجماهير ، وإلى ذاك الذى يبعث صوته فى نفسه أعظم فرح ، ويكمل فرحه ، لأنه سيكون هو صوت العريس نفسه .



- ٧ -

ظهور المسيا

(يو ١ : ٣١) (١)

تمر أمامى كما من وراء زجاج معتم
بعض أشباح مجيدة عن المحبة والحق
والقداسة والقوة وإننى أعترف أنها لك
أيها المسيح وأباركك فى هذه الساعة

(ف . ر. هافرجال)

كانت حياة يوحنا فى هذه الفترة عجيبة جداً . ففى النهار كان يكرز للجماهير التى إزدحمت حوله أو يعمدها ، وفى الليل كان ينام فى كوخ حقير أو كهف مظلم . لكن الإقتناع كان يتزايد بقوة فى نفسه بأن المسيا قد أقترب مجيئه ، ثم تحول هذا الإقتناع إلى رؤيا . فإن الروح القدس الذى ملأه كان يعلمه ، ويبدأ يرى الخطوط الرئيسية عن شخصه وعمله . واذ فكر فيه على ضوء التعاليم الكريمة التى علمه اياها ذاك الذى أرسله ليعمد (يو ١:٣٣) فان الصورة الباهتة التى كان يراها عن شخصية المسيح المجيدة تلألأت وسطعت على صحيفة مخيلته الحساسة ، فتمكن حتى من وصفه للآخرين ، وتكوين صورة صادقة عنه لنفسه .

أستطاع أن يرى بأن الملك القادم - كما مر بنا - بمثابة حطاب يضع الفأس على أصل الشجر . ومزارع رفشة فى يده لينتقى بيدره . ومعمدان متهيئ لتغطيس كل النفوس الأمينة فى ناره المطهرة ، وقديم الأيام يجب أن يفضل عنه فى الكرامة ، ولو كان قد أتى بعده فى الزمن ، لأنه كان قبله فى مجد الكون الأزلى (يو ١ : ١٥ - ٣٠) .

---

(١) « وأنا لم أكن أعرفه . لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء » .

كانت هذه الرؤيا ، عن الشمس قبل شروقها ، اذ رآها من فوق قمة اخلاقه النبيلة ، هى التى بعثت فيه روح التواضع العجيب . لقد أصر على الاعتراف بأنه ليس مستحقا أن يؤدى أحقر الخدمات لذاك الذى أعلن عن مجيئه . ونتيجة لهذا قال اكتفى بأن أكون صوتا يرتفع الى لحظة ليعلن مجىء الملك ، ويموت سريعا فى جو الصحراء ، دون أن يعرف أحد شيئاً عن شخصية الصارخ أو يبحث عنه ، « اننى لست مستحقا أن أحل سيور حذائه . » يأتى بعدى الذى صار قدامى الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » .

لم يكن يوحنا متواضعا فى تقديره لنفسه فحسب بل أيضا فى تقديره لنتائج خدمته . فقد اعتبرها خدمة عابرة وقتية وتمهيدية ، قد اعطيت اليه ليتممها ، وكان مفروضا أنها تتم فى وقت وجيز . كان سعيه قصيرا ، وكان متوقعا ان يكمل سريعا (اع ١٣ : ٢٥) . وكانت رسالته البسيطة ان يأمر الشعب بأن يؤمنوا بالذى يأتى بعده (اع ١٩ : ٤) . كان هو كوكب الصبح الذى يبشر باقتراب النهار ، والمقضى عليه بالاحتجاب فى مجد الفجر .

لكن فكرتنا عن تواضع هذه النفس السامية تزداد قوة عندما نتأمل فى ذلك المنظر الرائع الذى فيه اعترف لأول مرة بالرسالة الالهية لقريبه يسوع الناصرى ومطالبه . تأمل فى التقاء الشمس والنجم . واذكر أن هذا يوضح الاختبار الذى لا بد أن يحدث للنفس المطهرة المقدسة التى ترغب فيه وتستعد له .

(١) مجىء الرب شاطىء الأردن .

لقد ظل ابن الانسان فيما لابيه ثلاثين عاما يؤدى العمل العادى فى حانوت نجار قروى . وهنالك وجد مجالا كافيا لطبيعته الغنية العميقة ، الأمر الذى يذكرنا بحديقة الفيلسوف التى ولو كانت مكانا متواضعا فى مدينة مزدحمة إلا انها اتصل أحد طرفيها بالجانب الآخر من العالم واتصل الطرف الآخر بسماء الله . لابد أنه كثيرا ما شعر بجاذبية قوية نحو عالم البشر المتسع الذى أحبه ، ولابد أن الرياح التى كانت تمر فوق منزله القروى كثيرا ما حملت اليه أنين القلوب الكسيرة طالبة اليه أن يسرع لاغاثتها . لابد أن أصوات الكثيرين من أمثال يايرس قد رنت فى أذنه متوسلة اليه أن يغيث بناتهم الوحيدات ، وأصوات الأخوات متوسلة من أجل أخوتهن أمثال لعازر ، وأصوات الجدع والعرج والعمى متوسلين أن يأتى ويشفيهم . لكنه تأبى متطلعا الى عقرب الساعة حتى تم الوقت الذى سبق أن حدد فى غرفة المشورة الأزليـة .

وحالما وصلته أنباء خدمة المعمدان وأدرك أن البواب قد اتخذ مكانه على باب حظيرة الخراف متأهبا لادخال الراعي الحقيقي (يو ١٠ : ٣) لم يتوان بعد . تقدم فى ثقة ، وسار متئدا نحو منظر خدمة المعمدان ، يجب أن يترك الناصرة والأهل ، ويتخذ الطريق الذى ينتهى الى الجلجثة . « حينئذ جاء يسوع من الجليل الى الأردن الى يوحنا ليعتمد منه » (مت ٣ : ١٣) .

يقول التقليد ان مكان معمودية يوحنا كان بالقرب من أريحا ، حيث يقل عمق المياه ، وحيث تتسلل منه المياه الى الخارج فى شكل برك متسعة . لكن البعض يقولون انه كان بالقرب من الطرف الجنوبى لبحر الجليل الذى لا يبعد عن الناصرة أكثر من سفر يوم .

ولعل يسوع وصل فى ساعة متأخرة بعد الظهر . ومما دونه لوقا الأنجيلى يبدو أن جميع الشعب اعتمدوا فى ذلك اليوم على الأقل (لو ٣ : ٢١) . ولعل الجموع تفرقوا ويقى النبى العظيم وحيدا مع تلميذ أو اثنين ممن سبق التحدث عنهم . أو ربما يكون يسوع قد وصل عندما كان شاطىء النهر مكتظا بالجماهير المشتعلة بنار الغيرة وعلى أى الحالتين فان تغييرا فجائيا ملحوظا بدا على وجه المعمدان حالما رأى قريبه واقفا على بعد منه .

تخيل لنفسك هذا المنظر الرائع . تصور النهر العجاج يندفع من بحر الجليل الى البحر الميت ، تصور شاطئيه الخشنين ، والغابات الظليلة ، وشبح المعمدان المستقيم المفتول العضلات ، ويسوع الناصرى – كما صورته لنا التقاليد القديمة – بشعره الأسود وعينيه الزرقاويتين الفاحصتين ، ووجهه القوى الحلو ، وكل جمال شخصه ، تصور كيف أن المعمدان حالما ابصره انحنى ذلك العنق المشرئب الى أسفل بل انحنى كل جسمه بحركة لا ارادية ، وتلعثم ذلك الصوت الذى تعود أن يدوى فى البرية .

قال يوحنا « أنا لم أكن أعرفه » (يو ١:٣١) . لكن هذا لا يفهم منه أنه لم تكن له معرفة قط بقريبه الكامل الصفات الذي بلا لوم . ولو أنه كان ممكنا أن يحدث طالما كانت حياة يوحنا قد قضيت فى البرية بعيدا عن الناس .

لكن الأقرب الى المعقول أن نفترض أنهما ، وهما مرتبطان برابطة القرابة ، قد التقيا معا مرارا كثيرة سواء فى حداثتهما أو فيما بعد . لكن المعمدان لم يكن يدرك قط أن يسوع كان المسيا الذى أرسل ليعلن عن مجيئه . لم يكن يدرك علاقته بالسماء ورسالته . لم يخطر بباله أن هذا النجار القروى البسيط ، المتصل به بصلة قرابة وثيقة ، الذى كادت تكون حياته الحياة العادية – لم

يخطر بباله أن هذا هو الذى كتب عنه موسى والأنبياء . وعلى هذا الاعتبار أمكنه أن يقول أنا لم أكن أعرفه » .

لكن يوحنا كان يعرف تماما أن حياته صفحة نقية ناصعة البياض لم تشبها شائبة . لقد سمع عن محبته الرقيقة لأمه المباركة ، عن اخلاصه لاخوته وأخواته ، عن طهارته المطلقة ، عن سهراته الطويلة على الجبال طول الليل ، عن خبرته الكاملة بالكتب المقدسة ، عن حديثه عن الآب . لهذا كان يكن له كل احترام يقرب من العبادة . وحالما اقترب يسوع ليعتمد أحس يوحنا بأن هنالك هوة سحيقة بينه وبين الباقين . فهؤلاء العشارون والخطاة . والكتبة والفريسيون ، هؤلاء الجنود وعامة الشعب كانوا فى أمس الحاجة للتوبة والاعتراف والغفران . أما هذا فلم تكن له حاجة لشيء من هذا قط ، اذ كان دائما ، وباعتراف الجميع « قدوسا وبلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة » (عب ٧:٢٦) . ولهذا قال له « أنا محتاج أن اعتمد منك وأنت تأتى الى » (مت ٣:١٤) .

وعلاوة على ذلك فقد كان هنالك – على الأرجح ـ احساس داخلى قادر على تمييز الأشخاص . كانت عينه الثاقبة تفحص قلوبهم اذ يسمعهم يعترفون بخطاياهم ، ولأول نظرة كان يستطيع أن يخبر عما فيهم . لقد كان خبيرا بالنفوس . بين كل اللآلى التى مرت من بين يديه ـ وكانت من بينها لآلى جيدة جدا ـ لم يوجد ما يحاكى هذه اللؤلؤة الكثيرة الثمن التى تستحق أن يبيع المرء كل ما يمتلكه للحصول عليها . وجد فى هذه الشخصية عظمة لا تحد ، مجدا أدبيا ، نعمة رقيقة ، جاذبية تفوق الوصف . كل هذا أدركه فى الحال أعظم مواليد النساء بسبب نبله وعظمة نفسه . كان ادراك المسيح يتطلب شخصا كالمعمدان . ان ذاك الذى لم يخنع قط أمام ملك أو أمام الشعب ، سقط عند قدمى المسيح حالما رآه . وذلك النسر الذى ظل يحلق فى كبد السماء بدون توقف بدأ كأن سهما صوب نحوه فجأة ، فتوقف عن الطيران ، وسقط بغتة وهو يصرخ صراخا غريبا شديدا عند قدمى خالقه : « أنامحتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى الى » ؟ .

(٢) أهمية معمودية المسيح :

« اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر » . بهذه الكلمات تمكن الرب من التغلب على اعتراضات صديقه الوفى الأمين . هذا أول ما دون من كلمات المسيح بعد فترة توقف أكثر من عشرين عاما . هذه أيضا هى بداية

خدمته العلنية ، وهى تستحق التأمل ولو بصفة عابرة . انه لم يقل « أنا محتاج أن أعتمد منك » ولا قال « أنت لست فى حاجة أن تعتمد منى » ، ولا فكر فى أن يبين لماذا يعتمد الأكبر من الأصغر، أو لماذا يتم هذا الطقس الذى يقترن بالاعتراف بالخطية لذاك الذى كان بلا خطية قـط . كان يكفى أن يشـير الى المعمدان بأن هذه هى ارادة الله ويليق بهما اطاعتهـا . « يليق بنـا (بك وبى) أن نكمل كل بر » .

واذ اعتمد الرب اعترف بسلطة المعمدان الالهية . احتل مركزا فريدا كآخر الأنبياء وأعظمهم ، لأنه ختم فترة العهد القديم « لأن جميع الأنبياء والناموس الى يوحنا تنبأوا » (حتى جاء يوحنا) (مت ١١:١٣) ، وكممثل لإيليا النبى قبل أن يجىء يوم الرب العظيم الشهير ، وكبواب للحظيرة اليهودية . وان كان يسوع قد طلب أن يعتمد على يديه فقد كان ذلك يشير الى أن الآب هو الذى أرسله كما كان بمثابة اعتراف بخدمته .

وعلاوة على هذا فقد كانت معمودية يوحنا بمثابة افتتاحية للملكوت السماوات . بها حلت الروحيات محل الماديات . ان النظام القديم الذى أعطى امتيازات خاصة لأولاد ابرهيم كان فى طريق الزوال معترفا بأن الله قادر أن يقيم أولادا لأبرهيم من الحجارة المتناثرة على شاطىء الأردن ومتطلبا بأن الذين يريدون دخول الملكوت ينبغى أن يولدوا من فوق من الماء والروح . كانت هى العلامة الخارجية المنظورة بأن اليهودية فشلت فى سد أعواز أعمق حاجيات روح الانسان ، وبأن نظاما جديدا أعمق روحانية على وشك أن يحل محلها . ولهذا قال المسيح « أنا أيضا ـ مع انى ملك ـ أطيع ناموس الملكوت ، وأحنى رأسى لكى أتقدم الى عرشى بنفس العلامة كأصغر واحد من رعاياى » .

والأرجح أنه كان هنالك سبب أعمق . كانت مياه الأردن وهى تنحدر الى البحر الميت رمزية . كانت فى طهارة منعها وسط ثلوج جبل حرمون ، وفى جمال طريقها الأول ، ترمز الى خلقة الانسان فى البداية عندما خلقه الخالق على صورته ومثاله وقال عنه انه حسن جدا . لكنها فى هذه المياه العكرة القذرة المندفعة الى بحر الموت ، هذه المياه التى اعترف فيها الوف الخطاة بخطاياهم بدموع وأنات كثيرة ، كانت جديرة بأن ترمز الى تاريخ جنسنا البشرى الذى تلوث بالشر الذى فى العالم بالشهوة ، والذى استحق أجرة الخطية أى الموت . فى وسط هذا الجنس البشرى الخاطىء وقف الرب كواحد

منهم ، كانت معموديته تمثلا بجنسنا الخاطىء ، ولو أنه كان بلا خطية واستطاع أن يتحدى أعداءه فى أدق الظروف « من منكم يبكتنى على خطية » .

هل اعتمد لأنه كان فى حاجة الى التوبة أو الاعتراف بخطاياه ؟ كلا وألف كلا لقد كان طاهرا كحضن الله الكائن فيه، كان طاهرا كالنار التى أضاءت توقهم فى رابعة النهار، كان طاهرا كالثلوج على جبل حرمون التى تتلألأ كالسحب فى الأفق . لكنه قبل أن يجعل خطية لكى نصير نحن بر الله فيه (٢كو ٥:٢١) .

جرت العادة أنه عندما كان رب العائلة يختار خروف الفصح كان يأخذه ـ قبل ذبحه بثلاثة أيام ـ الى الكاهن ليختم بختم الهيكل . كان يجب أن يختم الرب – قبل موته بثلاث سنوات . بخاتم الروح القدس بوساطة يوحنا المعمدان . « لأن هذا الله الآن قد ختمه » (يو ٦:٢٧) .

« يليق بنا » اننى أحب هذه الكلمة « يليق » . وان كان الرب الاله قد فكر بهذا القدر فيما يليق أفلا يجدر بنا أن نفعل هكذا نحن أيضا ؟ لا يهمنا كثيرا أن نفكر فيما هو محرم أو ضار ، أو فيما يصح أو لا يصح أن يمارسه اخوتنا المسيحيون ، لكن الذى يهمنا أكثر هو أن نفكر فيما اذا كان هذا المسلك المعين يليق بنا . هل أنا فى حاجة الى ممارسة هذا الطقس المعين ؟ انه يليق . هل أنا فى حاجة الى اتمام هذا العمل الوضيع ؟ يليق . هل أنا فى حاجة الى التخلى عن حريتى فى التصرف فى هذه الناحية ؟ هذا يليق جدا . وكلما تقدمت أى نفس خائرة ضعيفة جبانة وتممت ما تعتقد أنه صواب لأنه لائق تقدم اليها يسوع وربت على كتفها وقال «لست وحيدا فى هذا ، اننى واقف بجوارك هنا ، يليق بنا أن نكمل بر الى أقصى حدوده » .

أيتها النفس ، أنك لن تتقدمى الى طريق وعر غير مطروق دون أن تسمعى وقع خلقك ، وتدركى أنه فى كل عمل من أعمال البر يقرن يسوع نفسه معك قائلا « يليق بنا أن نكمل كل بر » .

يظن البعض أن الرب يسوع يشير هنا الى نبوة دانيال الرائعة (دا ٩ : ٢٤ (١)) . فلكى يقضى حمل الله على الخطية ، ويأتى بالبر الأبدى ،

(١) « سبعون أسبوعا قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكمل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الأثم وليؤتى بالبر الابدى ولختم الرؤيا ولمسح قدوس القدوسين » .

كان يجب أن يقف أمام المعمدان كممثل لكل الخطاة فى كل الدهور ، كانت هذه هى أول خطوة فى رحلته نحو الصليب ، وكانت كل خطوة فى هذه الرحلة اتماما لكل بر لكى يأتى بالبر الأبدى .

« حينئذ سمح له » . هنالك أشياء ينبغى أن نتممها من أجل المسيح ، وهنالك ينبغى أن نتحملها من أجله . ان الفضائل الايجابية كثيرة ، لكن السلبية نادرة وتكلف أكثر ، سيما على الطبيعة القوية كطبيعة المعمدان . لكن فى كل أدوار حياتنا لا يوجد شيء يلفت النظر أكثر من أن يرضخ القوى لغيره ، ويقبل تفسيرا لاية مهمة أعمق مما كان يراه ، ويتنازل عن آرائه المقتنع بها بسبب توسلات صوت هادىء خفيف . أيتها النفس العزيزة ارضخى للمسيح . اسمح له بأن يتمم طريقه . أحمل نيره ، كن وديعا متواضع القلب ، فتجد راحة .

(٣) تمييز المسيا :

لقد أعطى ليوحنا أن يميز بأن يسوع هو المسيح .كانت علامة خاصة تلك التى أعطيت اليه ـ على أساس أنه هو ممهد الطريق ـ لكى يتبين بها شخصية المسيا بصفة قاطعة.من باب تحصيل الحاصل القول أنه يستحيل على العين العادية غير الممسوحة أن ترى نزول الروح القديس . فأقوال يوحنا توضح هذه الناحية بكل جلاء. إسمعه يقول «وأنا لم أكن أعرفه (كابن الله) لكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى الذى ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذى يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله» (يو ١: ٣٢-٣٤).

وتتبين نفس الفكرة إذا أمعنا النظر فيما دونه الإنجيلى الأول « وإذا السموات قد إنفتحت له (أى ليوحنا) فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه» (مت ٣:١٦).

هنا يظهر الله ذاته للإنسان . فإنه حالما صعد يسوع الناصرى من الماء أعطيت ليوحنا العلامة التى كان يتوقعها بفارغ الصبر . لقد آمن بأنه سوف يراها ، لكنه لم يخطر بباله أنها ستمنح من أجل شخص من أقاربه . نحن لا نتوقع أن يأتى الله العظيم لنا .

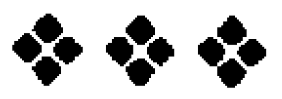
وتدل الكلمة « وإذا » على دهشته . لقد رأى السماء من بعيد ، وإذ بها تنفتح إعماقها أمامه عن مجد عظيم . لقد انشق الحجاب ليخرج الروح القدس ، الذى بدأ نازلا فى شكل منظور كحمامة فى حركتها اللطيفة ويستقر على رأس القدوس الذى وقف هنالك بعد المعمودية مباشرة .

وقد حرص الإنجيلى - وهو يسرد روايته فيما بعد - على أن يبين أن الروح لم يات فقط بل « استقر عليه » (يو ١ : ٣٣) . هنا معجزة المعجزات أن يرتضى بأن يستقر فى شخصية منظورة بعد أن ظل أجيالا كثيرة يحوم فوق طوفان الخطية البشرية ، باحثا عن مكان يستقر فيه بلا جدوى . هنا على الأقل نجد فلكا أمكن لنوح الثانى إدخال الحمامة الهائمة التى لم تستطع أن تقتات على الجيف والموت كالغراب .

ونادى صوت الله من السماء بأن يسوع الناصرى هو إبنه الحبيب الذى سر به . ولم يبق لدى المعمدان أقل شك فى أن مشتهى كل الأمم ، السيد الذى طلبه شعبه ، ملاك العهد ، قد أتى إلى هيكله بغتة ليعمل مثل نار الممحص ومثل اشنان القصار (ملاخى ٣ : ١ و ٢) . « يوحنا شهد له ونادى (وصرخ) وشهد يوحنا قائلاً إنى قد رأيت الروح نازلا مثل الحمامة من السماء فاستقر عليه (يو ١ : ١٥ و ٣٢) .

كانت لهذا التمييز قيمة عظيمة فى نظر المعمدان . فقد عرف أن مهمته أوشكت أن تتم وأن رسالته كادت تنتهى . لقد فتح الباب للراعى الحقيقى ، ويجب أن يسلمه الآن كل عهدة الخراف . يجب أن يزيد يسوع وأن ينقص هو . فإن الذى من السماء هو فوق الجميع ، أما عن شخصه فإنه من الأرض ومن الأرض تكلم .

لقد أشرقت الشمس وبدأ كوكب الصباح يتوارى .



- ٨ -

لم يكن هو النور بل ليشهد للنور

(يو ١ : ٨)

كل من أعتمـد على كمـاله الشخصى
لا قيمة له ولا جمال له فمجد الربيـع
الحقيقى لا يعتمد على ساعاته الزاهية
بل على الصيف الغنى بزهوره

(١٠١ . بروكتور)

كان لمعمودية المسيح وإعلانه أثر عجيب فى خدمة المعمدان فقبل ذلك اليوم الخالد كانت تعاليمه تتجه نحو التوبة والإعتراف بالخطية . أما بعده فكانت شهادته منصبة على شخص ومجد راعى إسرائيل . لقد أدرك أنه فى المدة الباقية من خدمته القصيرة ، التى لم تتجاوز الستة شهور على الأكثر ، يجب أن يحصر كل جهده فى المناداة للشعب عن إمتيازات ومطالب ذلك القائم بينهم ولو لم يعرفوه « كان إنسان مرسل من الله إسمه يوحنا . هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكى يؤمن الكل بواسطته . لم يكن هو النور بل ليشهد للنور» (يو ١: ٦-٨).

ينقسم موضوعنا إذا إلى قسمين بطبيعة الحال : الأول إعترافات يوحنا عن نفسه ، والثانى شهادته عن الرب . ومما هو جدير بالذكر أن نلاحظ بأن هذه الإعترافات وهذه الشهادة أعطيت فى ثلاثه أيام متعاقبة كما يبدو من تكرار هذه العبارة « فى الغد » مرتين . « وفى الغد (أى بعد أن قابل الوفد المرسل من السنهدريم وأجاب على أسئلتهم) نظر يسوع مقبلا إليـه » (يو ١ : ٢٩) . « وفى الغد أيضا كان يوحنا واقفا هو وإثنان من تلاميذه » ع ٣٥ .

تم هذا فى بيت عنـيا أو بيت عبرة على شاطىء نهر الأردن الشرقى ع ٢٨. يبلغ إتساع النهر هناك مائة قدم ، ويتراوح عمقه فى غير أيام الفيضان بين خمسة وسبعة أقدام ، ويقع هذا المكان فى واد حار ، وتميزه خضرته عن المساحات الشاسعة من الأراضى المقفرة المحيطة به .

(١) إعترافات المعمدان عن نفسه :

عندما يستعمل الإنجيلي الرابع كلمه « اليهود » فأنه يعني بصفة مستمرة « السنهدريم » ، أشتهر يوحنا المعمدان جدا وصار تأثيره عظيما جدا حتى لم يستطع قادة الدين في عصره أن يتجاهلوه . لقد احتقروه في قلوبهم وتمنوا أن يعملوا به « ما أرادوا » .. لم يحتملوا كرازته عن التوبة ووصفه أياهم بأنهم أولاد الأفاعي . لقد أبوا أن يلتقوا به علنا ، وعزموا على أن يرسلوا إليه وفدا لعلهم يستخلصون من بين شفتيه إعترافا يتخذونه تكاة يتصرفون بمقتضاه . « أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوا من أنت . ما بالك تعمد » . كان السؤال الأول جوهريا بصفه عامة ، أما الثاني فكان يهم حزب الفريسيين بصفة خاصة . لأنهم كانوا هم الحزب المحافظ المدقق في الطقوس ، كانوا لا يودون أن يضاف إلى اليهودية طقس جديد لم يوافقوا هم عليه .

ياله من منظر. النهر تتدفق مياهه، والوادي إشتدت حرارة الجو فيه ، الجماهير المزدحمة، المعمدان المفتول العضلات يحيط به جماعة قليلة من التلاميذ . ويشق هذه الجماهير المزدحمة وفد من الشيوخ بذقونهم البيضاء ، يمثلون الديانة التي كانت على وشك الفناء . هذه هي المناظر الرئيسية لحادثة خالدة .

حدث سكون عميق . ومد الناس أعناقهم وفتحوا آذانهم ليروا ويسمعوا كل شيء عندما تحدى الوفد النبي بهذا السؤال « من أنت ؟ » . حدث صمت رهيب ، فقد كان الناس مستعدين أن يصدقوا كل ما يقوله ذلك الواعظ الشاب المقتدر . » (لو ٣ : ١٥) . لو أنه قدم أي تشجيع لأحلامهم وآمالهم لكانوا قد أعادوا رفع راية المكابيين المهلهلة وثاروا ضد الإحتلال الروماني بقيادته ، ولعلهم كانوا قد صادفوا بعض النجاح الوقتي الذي تكتسحه الدماء فيما بعد . « فإعترف ولم ينكر وأقر لست أنا المسيح » (يو ١ : ٢٠) .

وان كانت أصوات التذمر قد أرتفعت في غضب وخيبة أمل وحزن إذ تناقلت الألسنة هذه الإجابة فقد أسكتها السؤال الثاني « إذا ماذا ؟ إيليا أنت » ؟ مشيرين بذلك إلى نبوة ملاخي (٤ : ٥) . « ولو أنهم وضعوا السؤال بصيغة أخرى وقالوا « هل أتيت بقوة إيليا » لكان قد إعترف بالايجاب . لكن لأنهم قصدوا أن يسألوا أن كان هو إيليا بالذات وقد عاد إلى العالم ثانية ، فلم يكن هنالك بد من الإجابة بصفة قاطعة حازمة «لست أنا» .

كان هنالك فى جعبتهم سهم ثالث لأن الأثنين السابقين قد أخطأ المرمى . وفي وسط الأصغاء التام الذى بدأ على الجماهير الفاتحة كل آذانها قدموا هذا السؤال « ألنبى أنت ؟ » مشيرين إلى نبوة موسى بأن الله سيقيم لهم نبيا مثله (تث ١٨ : ١٥ ، اع ٣ : ٢٢ ، ٧ : ٣٧) . فأجاب لا » .

أرتبك الوفد ، فقد فرغت جعبة أسئلتهم . لقد كادت مهمتهم تصبح عقيمة مجدبة إلا اذا استخلصوا منه إعترافا إيجابيا . كان يجب أن يقدموا سؤالا قاطعا . فتقدم المتكلم بلسانهم للمرة الرابعة متحديا ذلك الكائن الغريب الذى لم يستطيعوا أن يتبينوا كهنه أو يحددوا مركزه الدينى « فقالوا له من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا . ماذا تقول عن نفسك . قال أنا صوت صارخ فى البرية . قوموا طريق الرب كما قال أشعياء النبى » .

يالها من شخصية نبيلة . يالها من قوة سامية جدا . لو أنه كان رجلا ضعيفاً لترك نفسه فوق تيار الحماس المندفع وسمح له أن يجرفه . يا له من مزيج بين القوة والتواضع . لما أوحى إليه الناس بأنه هو المسيح أصر بأنه لم يكن سوى مجرد صوت ، صوت السفير الذى لا يكاد الناس يلاحظونه لأنهم شخصوا بعيونهم إلى الناحية التى أتى منها ليشاهدوا الملك نفسه ، وعندما امتدحوه بسبب تعليمه قال لهم أن الذى يفرز الحنطة من التين سوف يأتى . وعندما أزدحموا حول معموديته كرر القول مرارا أنها إنما هى معمودية الماء أما المسيح فسوف يعمد بالروح القدس ونار .

وماذا كان السبب؟ آه لقد عرف محدوديته. صحيح أنه كان أعظم مواليد النساء ، لكنه عرف أن صدره لم يكن متسعا الإتساع الكافى ، ولا كان قلبه رقيقاً الرقة الكافية لكى يستطيع أن يدعو إليه جميع المتعبين والثقيلى الأحمال ليجـدوا فيه راحــة .

لم يكن ممكنا له أن يقول إنه هو والأب واحد ، أو يقرن نفسه باللاهوت فيقول « نحن » . لم يتجاسر أن يطلب أن يؤمنوا به كما يؤمنون بالأب . لكن أتى بعده من أستطاع أن يقول كل هذا . وهكذا قرر يوحنا أن يسوع هو أبن الله وملك إسرائيل ، ولم يمل من أن يصرح بالهوة السحيقة التى لا يمكن عبورها القائمة بينه وبين يسوع .

إن مثل هذا التواضع يكون عادة مقترنا برؤيا حقيقية عن المسيح . إن تطلعنا إليه من الأرض المنخفضة بدا الجبل كأنه يصل إلى السماء ، أما ان

إرتفعنا ووقفنا فوق قمة الجبل تبينت لنا فى الحال المسافة الشاسعة بين أعلى قمم الجبال وبين أقرب نجم . ربما يكون يوحنا قد بدا للجماهير بأنه قد تحققت فيه كل شروط النبوة عن شخصية المسيا . أما هو فقد وقف على الجبل وأدرك كيف يسمو المسيح عنه سموا عظيما جدا لا حد له . يبدو هذا واضحا فى اجابته عن سؤال السنهدريم الأخير « فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد أن كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبى . أجابهم يوحنا قائلا أنا أعمد لأننى أرسلت لأعمد وأنا اعلم يقينا ان عملى فى هذه الناحية وقتى وعابر ، ولكن ماذا يضيركم هذا ؟ فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه . هو الذى يأتى بعدى الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه . لقد أتى المسيح . ألم أره واقفا وسط جماهيركم ، بل لقد نزل الى نفس هذا الشاطىء » .

ولابد أن يكون الشعب قد التفتوا بعضهم الى بعض اذ تكلم يوحنا بهذا . ماذا ؟ هل أتى المسيا ؟ هذا ما نشك فيه جدا . لم تحدث آيات على الأرض أو فى السماء خليقة بمجيئة . كيف وقف فى وسطهم دون أن ينتبهوا له ؟ .

لكن هـذا ما حدث ، وهذا ما لا يزال يحدث . ان المسيح لا يزال فينا ومعنا . قد لا نكون هنالك علامات بارزة تنبىء عن حضوره المبارك اذ يقف وسط كل جماعة مكونة من اثنين أو ثلاثة مجتمعين باسمه ، لكن عين الإيمان تتبينه . بينما لا يرى الآخرون سوى قمم جبال جزيرة بطمس ، ترى عين الايمان وجها أكثر لمعانا من الشمس ، وتسمع الآذن المطهرة نبرات صوت كخرير الميـاه فى هـدوء الليـل .

اذكروا كيف قال « الذى يحـبنى يحبـه أبى وأنا أحبـه وأظهـر له ذاتـى » (يو ١٤ : ٢١) . وكما أعلنه الروح القدس ليوحنا هكذا يعلنه لنا نحن أيضا أن كنا نرغب فى هذا كيوحنا وننتظر متوقعين استعلان ابن الله ، لأن هذا ما وعد به قائلا « أنه يأخذ مما لى ويخبركم » (يو ١٦ : ١٥) .

وعندما يتكلم ابن الايمان هكذا - بلهجة اليقين - عما رآه وشاهده ولمسته يداه من جهة كلمة الحياة فليس عجيبا أن كان أبناء هذا العالم المنطمسة بصائرهم يبتدئون بان يسالوا ويهزأوا . ماذا يوجد هنالك مما يمكن أن يرى ولم يروه ؟ وماذا يمكن سماعه ولم يسمعـوه ؟ نعم أن « الانسـان الطبيعـى لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . ولا يقدر أن يعرفه لأنه انما يحكم فيه روحيا » (١كو٢:١٤) . قال المعمدان « فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه » .

(٢) شهادة المعمدان عن الرب .

انقضت ستة أسابيع منذ تلك الرؤيا الرائعة ، رؤيا السماء مفتوحة ونزول الروح ، كان فيها يتفرس فى وجه كل قادم الى شاطىء النهر لعله يرى ثانية ذلك الوجه الألهى الجميل . لكنه لم يحظ بأمنيته لأن يسوع كان فى البرية مع الوحوش يجرب من أبليس أربعين يوما وأربعين ليلة بتجارب عنيفة جدا .

وفى نهاية الستة الأسابيع تم مع وفد السنهدريم الحديث السابق الإشارة اليه . وفى اليوم التالى عندما كان اعترافه بحقارته لا يزال ماثلا فى أذهان سامعيه ، وعندما كان البعض ينتقدونه والآخرون يعطفون عليه ، وعندما كانت العلامات قد بدأت تظهر بأن نفوذه قد بدأ يتقلص ظله ، أبرقت عيناه ولمع وجهه وصرخ قائلا « هذا هو الذى قلت عنه يأتى بعدى رجل صار قدامى لأنه كان قبلى ... هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » .

هل تحولت كل العيون نحو المسيح ؟ هل رأت فيه الجموع شخصية فريدة فتفرسوا فيه بكيفية تلفت الأنظار ؟ هل رأى أحد فيه ذلك الجمال السماوى والقوة الروحية ؟ لا ندرى . ولا الكتاب أخبرنا شيئا عن هذا سوى أنه فى اليوم التالى عندما كان يوحنا واقفا هو واثنان من تلاميذه نظر الى يسوع ماشيا وأكد ما سبق أن قرره « هوذا حمل الله » ، تبعه التلميذان ولم يعودا الى معلمهما القديم الذى سبق أن عرف بأن هذا سيحدث ، وكان راضيا بأن ينقص هو ان كان المسيح يزيد » .

ولنتامل فى الاعلانات التالية التى أعطيت ليوحنا ، ثم أعطيت عن طريقه لأسرائيل ، الذين اعتقدوا بأنه هو نبى الرب بكل معنى الكلمة ، وكان لهم كل سند فى هذا الاعتقاد . وقد أيدت هذا الاعتقاد الأجيال اللاحقة التى اعتبرته واحدا من الستة العظماء الذين تركوا آثارهم فى العالم .

١ - **لقد رأى أزلية المسيح** . « كان قبلى » (١ : ٣٠) . هذه العبارة تشبه كلمات المسيح حين قال « قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن » (يو ٨ : ٥٨) . وبعد ذلك بقليل قال يوحنا عبارة مماثلة بل أقوى « الذى يأتى من فوق هو فوق الجميع » (يو ٣ : ٣١) . بكلمات كهذه علم المعمدان تلاميذه ، لقد أكد بان يسوع الناصرى كائن قبل بناء الناصرة ، وقبل ولادته من الفتاة القروية : لقد أدرك بان مخارجه منذ القدم ، بل منذ الازل ، وانه هو الله القدير ،

أب الدهور ورئيس السلام . كان يدرك أنه شخصيا من الأرض ، ومن الأرض تكلم ، أما ذاك فإنه أتى من فوق وهو فوق الجميع . لذلك لا نعجب أن رأينا أحد تلاميذه يقتدى به فيكتب هكذا « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . كل شيء به كان » .

٢ - وأدرك الناحية الكفارية فى خدمة المسيح . « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » . هل استطاع أن يستخدم هذا الاصطلاح بسبب تحدره من عائلة كهنوتية ؟ لا شك فى أن الروح القدس هو الذى أوحى اليه هذه الحقيقة ، لكن تدريبه السابق كابن كاهن ساعده على قبولها ونقلها الينا . يحاول البعض أن يضيقوا معنى هذه الكلمات قائلين أنها انما تشير الى أخلاق يسوع الشخصية وطهارته ورقته ، لكن اليهود الذين سمعوها لم يكن ممكنا أن يفهموا الجزء منها الا بمعنى واحد . لقداستطاعوا فى الحال أن يقرنوا بها كلمات الناموس والأنبياء والمزامير « يحمل التيس عليه كل ذنوبهم الى أرض مقفرة » (لا ١٦ : ٢٢) . « هو حمل خطية كثيرين » (اش ٥٣ : ١٢) . « كشاة تساق الى الذبح » (اش ٥٣ : ٧) .

على منحدر جبل المريا عبر صوت الشاب عن مشتهى الاجيال « هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة » (تك ٢٢ : ٧) كان هذا هو صراخ القلب البشرى فى كل الأجيال . من أيام هابيل قدم الناس أبكار غنمهم ، ووضعوها على المذبح ، وأحرقوها بالنار . لكن كان هنالك على الدوام شعور بالفشل وعدم الكفاية. فى كل جيل وفى كل جو قدم الكهنة الخروف على المذبح . لكن عملية التكرار المستمر كانت تحمل الشهادة بعدم كفايته عن التكفير وهاك تفسير الوحى نفسه فى هذا الصدد « وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مرارا كثيرة تلك الذبائح عينها التى لاتستطيع البتة أن تنزع الخطية »(عب١٠:١١) لابد أن قلوب الكثيرين من الكهنة الأنقياء كانت تردد نفس السؤال «أين الخروف ؟».

وإذ أدرك الأنبياء- بوضوح أكثر- طبيعة معاملات الله مع الانسان (كميخا مثلا الذى رأي أنه حتى تقديم البكر لن يمكن أن يكفر عن خطية النفس ٦:٧) ألا نفترض أنهم هم أيضا كانوا يتساءلون «اين الخروف»؟ إن الطبيعة تعجز عن الاجابة على هذا السؤال . أنها قتانة تخلب الالباب بسبب جمالها الرائع . لكنها بالرغم من هذا الجمال لا تستطيع أن تجيب توسلات الضمير فتزيل قصاص الخطية ، وتكسر شوكتها ! لكى يسير الانسان مع الله بقلب غير واجف .

والحيوانات ليست إلا رمزا للحل الكامل لمشكلة الخطية البشرية المتكررة على الدوام ، وهكذا ينبعث السؤال فى كل الأجيال « أين الخروف » .

وهكــذا أرسل الله ابنه من السماء لكى يكون الجواب الشافى للسؤال العام . واذ أبصر المعمدان ، المرسل من السماء ، يسوع قادما اليه صرخ قائلا « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » .

أيها العزيز ثق بأنه حمل الله ، وعليه وضعت خطية العالم ، فوقف أمام الله بعبء ثقيل هو أنه « جعل خطية » ، وضع عليه أثم جميعنا ، مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليــه ، ضرب من أجل ذنوبنا . حمل خطية كثيرين .

وكما جلب آدم الاول الخطية على جنسنا هكذا رفعها آدم الثانى بذبيحة نفسه . وان كان بعض الناس يهلكــون الآن فليس ذلك بسـبب خطيــة آدم ، ولا لأنهم ولدوا فى جنس خاطىء ، بل بسبب الخطية التى يرتكبونها بتعمد وأصرار ، أو لأنهم بسبب عدم الإيمان يحرمون أنفسهم من بركات موت المسيح . ان العبد الذى سامحه سيده ثم أمسك بعنق العبد رفيقه جلب على نفسه ثانية كل القصاص الذى كان قد أعفاه منه سيده . وان كان أى واحد منا يتشـبث بالخطية ، رافضا عمل المسيح من أجلنا ، ودائسا عليه تحت قدميه ، فانه يحرم نفسه من كل بركات آلام المخلص ، ويعيد على نفسه ذلك القصاص الذى يتوق أن يخلصنا منه .

٣ - **وأدرك معمودية الروح القدس** .« هذا هو الذى يعمد بالروح القدس » . ان مخلصنا كابن الله كان منذ الازل واحدا مع الروح فى سر الثالوث المبارك . لقد سر الأب أن يحل فيه كل ملء اللاهوت ، وهو ينقله الى كل أبناء البشر الذين يتحدون به بإيمــان حى . وهكذا اسـتطاع أن يؤكد لتلاميــذه بأنهم ان مكثوا فى أورشــليم منتظرين موعد الأب تعمـدوا بالروح القدس كما عمد يوحنــا بالماء (اع ١ : ٤ و ٥) .

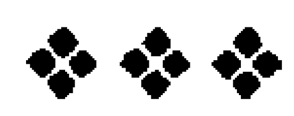
ان هده الكلمة « معمودية » فى تطبيقها على الروح القدس يحسن حصرها فى مظاهر القوة الروحية العجيبة المدونة فى الأصحاحات الثانى والثامن والعاشر والتاسع عشرمن سفر الأعمال . أما كلمة « ملء » فيجب إستخدامها عن إختبارات فيض الروح القدس الساكن فينا . ومع ذلك فإننا أجمعين يمكننا

إستخدام كلمات المعمدان ونخبر المسيح ، رأسنا الحى ، بأننا فى حاجة الى أن نمحص بلهيب النار ، فى حاجة الى أن نطهر من الدنس ، فى حاجة الى أن تلتهب غيرتنا بنار الروح القدس ، فى حاجة الى أن نحمل على حضنه الى حيث تشتعل السبع المنائر أمام عرش الله . وهكذا نرى دم الحمل ونار الروح القدس متحدين بكيفية لا تنفصل قط .

٤ —**ورأى سر الثالوث المقدس.** لقد أعلن هذا لأول مرة للانسان ، كان هنالك الآب يتكلم من السماء ، والروح نازلا مثل حمامة ، وبينهما كان إبن الإنسان الذى أعلن عنه بأنه هو ابن الله ، الابن الحبيب. ويقينا أنه كان فى مقدور يوحنا أن يقول أن لحما ودما لم يعلن له هذا ، لكنه أعلن له برؤيا الهية .

إن عقيدة الثالوث المقدس سر عميق أخفى عن الذهن ، وأعلن للقلوب الوديعة المتواضعة ، أخفى عن الحكماء والفهماء وأعلن للأطفال . فرحب إذا بيسوع المسيح كما فعل يوحنا ، وعندئذ يعلن لقلبك سر اللاهوت كما أعلن ليوحنا . سوف تسمع الآب يشهد لابنه ، وترى كيف أن الأبن يعلن الآب بوضوح ويصنع فداء ، سوف تدرك معنى الوقوف تحت السماء المفتوحة وترى قيمة الامتلاء بالروح القدس . ما الفائدة من المناقشة عن الثالوث أن لم تكن لك الرغبة الروحية فى مواهب الثالوث ؟ أما أن كانت لك هذه الرغبة وفتحت قلبك ، قبلت الموهبة وفهمت العقيدة .

٥ — **وأدرك بنوية المسيح لله** . « وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو إبن الله » . ان لهذه الشهادة قيمة عظيمة ، كان يوحنا يعرف البشر ، ويعرف نفسه ، ويعرف المسيح . ولم يكن ممكنا أن يصرح بكل هذا لو لم يكن مقتنعا به كل الاقتناع . ولم يكن ممكنا أن يقتنع كل الاقتناع لو لم يقدم إليه الدليل الذى لا يدحض . لهذا لم يبال بالمرة عندما كرر نفس النداء فى اليوم التالى فانفض عنه كل تابعيه لكى يتبعوا يسوع الناصرى . لقد شبع قلب المعمدان لأنه سمع صوت العريس . لقد جاء إبن الله وأعطاه بصيرة ليعرف الحق (١ يو ٥ : ٢٠) .



ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص

(يــو ٣ : ٣٠)

أين التعـاليـم التى نـادى بهـا المعمـدان !
أين النفس التـى لم تنحـرف واللسـان الـذى
لم يـرهب أحـدا ؟ أين الحكمـة الصـابرة التى
استوطنت الصخور المحيطة فى عزلة وصلاة ؟
أيـن ذاك الـذى كـان يحسـبه ربحـا أن خبـا
نوره وازدحـم العـالم كله حـول يسوع !

(كبـل)

عاد الرب من وادى الأردن الى الجليل والناصرة . وبعد ذلك مباشـرة تمت هذه الحوادث على التتابع :عرس قانا الجليل ، عودته لأورشليم، تطهير الهيكل ، حـديث نيقوديموس . واذ كان حجاج الفصح يتفرقون عائدين الى بيوتهم غادر هو أيضا المدينة مع تلاميذه وبدأ رحلة تبشيرية فى كل أرض اليهـودية .

لم يتحدث الكتاب المقدس عن هذه الرحلة بالتفصيل . فليس لدينا سوى لمحة بسيطة عنها فى ع٢٢ ، ولمحة أخرى فى (اع ١٠ : ٣٦ و ٣٧) فى حديث الرسول بطرس الى كرنيليوس ، حيث يقول عن المسيح أنه بشر بالسلام فى كل اليهودية بعد المعمودية التى كرز بها يوحنا . ويمكننا تعيين المـدة التى إستغرقتها هذه الرحلة على وجه التحديد ، لكنها لابد أن تكون قد إستغرقت بضعة شـهور ، لأنه لبث فى أماكن مختلفة من وقت لآخـر .

والأرجح جدا أن الرب لم يكشف عن حقيقته ، لم يعلم بنفس الوضوح الذى راعاه فيما بعد . وفى معظم الأحيان كانت تعاليمه وقتئذ تتفق مع تعاليم المعمدان ، فقد دون عن بداية خدمته « جاء يسـوع الى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول قد كمـل الزمـان واقترب الله . فتوبوا وآمنـوا بالأنجيـل » (مر ١ : ١٤ و ١٥) . لكن أعماله كشفت عن عظمته الألهية .

وأينما ذهب كان يقابل بالترحيب العظيم والحماسة الشديدة . وقد مثلت من جديد تلك المناظر التى تمت منذ بضعة شهور عند بدء خدمة المعمدان . وقد اقترن نجاح خدمة المعلم السماوى (يو٣:٢) بازدحام الجماهير الذين إذ سئموا من فساد حياة الكتبة والفريسيين تحولوا بلهفة شديدة الى الراعى الحقيقى الوديع ، المتواضع القلب ، القدوس . يقال أن المواشى اذ تمرض وتسأم من الرحلة عبر الاطلانطيقى تظهر علامات الانتعاش اذ تتنسم أول نسيم محمل برائحة حقول البرسيم قبيل وصولها الشاطىء .

كان المعمدان أثناء كل هذا الوقت مستمرا فى عمله الأعدادى فى وادى الأردن ، رغم أن موجة الاضطهاد اضطرته الى مغادرة شاطىء نهر الأردن الغربى الى عين نون وساليم على الشاطىء الشرقى ، حيث كان بعض أتباعه لا يزالون ملتصقين به «لم يكن يوحنا قد ألقى بعد فى السجن» على أن العلامات كانت تنذر بأن مصيره المحتوم كان يقترب . وهكذا كان يعمد فى عين نون بقرب ساليم . حيث يتسع مجرى الأردن ، الامر الذى يتناسب مع خدمته .

« وكانوا يأتون ويعتمدون » منه هناك . لقد استمر كوكب الصباح فى السماء مع الشمس التى أعلن أشراقها ، لكن مجده قد بدأ يتناقص .

ويبدو من ع٢٥ أن يهوديا (ولعله كان مبعوثا من السنهدريم) قد أتى الى جماعة تلاميذ المعمدان الأمناء بأنباء عن العمل الذى كان يسوع يقوم به فى اليهودية ، وهذا أدى الى مناقشة للمقارنة بين قيمة كل من المعموديتين . لقد اعترف بأن يسوع لم يتمم بيديه طقس المعمودية ، ولعل ذلك كان يرجع الى نفس الأسباب التى ذكرها رسوله العظيم فيما بعد (يو ٤ : ٢) أنظر أيضا (١كو ١:١٤ – ١٧) . لكن تلاميذه مارسوها بناء على أمره وإرشاده وإستحسانه، لذلك أمكن لتلاميذ المعمدان أن يقدموا تقريرا عنها لمعلمهم إذ جاءوا اليه تتقد نار الغضب فى أعينهم ، وتتبين ثورة الحقد على وجوههم قائلين : « يا معلم هوذا الذى كان معك فى بحر الأردن الذى أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون اليه » ع٢٦ .

وكأنهم قد قالوا له : يا معلم أليس هذا شرا جسيما ؟ « أنظر كيف كوفئت شهادتك الكريمة . لقد كنت فى يوم مجدك مسرفا أكثر من اللازم فى إعترافاتك ، ومفرطا فى شهادتك . هوذا ذلك المعلم الجديد قد بدأ يحل محلك ، فإنه هو أيضا يعلم ويعمد ويجمع حوله جماعة التلاميذ » .

لكن ذلك القلب الممتلىء محبة لم يكن قابلا أن تشتعل فيه شرارة الغيرة والحسد . فلم يكن فيه شيىء سوى المحبة ، لأنه غطس فى معمودية المحبة المقدســة التى لاشت منه كل أثر لمحبة الذات والغيرة اللتين كانتا فيه مثلنا تماما . وكأن تلك الشرارة قد سقطت في محيط فانطفأت فى الحال . وهكذا ترى إجابته من أعظم الأقوال التى نطق بها البشر .

لقد قال الرب أنه لم يكن بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا . ولقد بينت هذه الكلمات عظمته الأدبية وسموه أن لم يكونا قد تبينا من أى شىء آخر .

لقد بدأ عظيما عندما دوى صوته فى فلسطين كبوق ، فجذب إليه الجماهير الكثيرة . وبدأ عظيما عندما تجاسر على أن يخبر هيرودس بأنه لا يحل له أن تكون له زوجة أخيه ، ناطقا بكلمات ذهلت منها نفس جدران قصره . وبدا عظيما عندما عمد ذلك الذى كان العالم ينتظره والذى « تعين إبن الله بقــوة » (رو ١ : ٤) . لكنه بدا أكثر عظمة عندما رفض أن يشترك فى تلك المناقشات السخيفة ، وقال بكل بساطة « لا يقدر انسان أن يأخذ شيئا أن لم يكن قد أعطى من السماء » .

(١) لقد اعتبر يوحنا أن التأثير والمركز هما هبتان الهيتان

يا للفوارق العظيمة الكائنة بين البشر ، بين بطرس ويوحنا مثلا . لقد ترك كل منهما تأثيرة على البشرية ، وكان كل منهما لازما لأتمام عمله الخاص ، لكن كلا منهما كان يختلف عن كل من عداه . فى بعض الأحيان نخطىء إذ ننسب نجاح الخدام وقواتهم الخاصة الى ظروفهم وعصورهم ووالديهم ومعلميهم . لكن هنالك تفسيرا أعمق وأكثر معقولية . وإذا طبقنا كلمات المعمدان أمكننا أن نقول:لم يكن لهم شىء لم يأخذوه من السماء بترتيب من الله مباشرة وبأمر منه.

كان هذا هو تعليل المعمدان : « كل ما لدى من نجاح وبركة يعزى الى تدبير ذاك الذى أرسلنى لأكرز بانجيله وأعلن مجيء أبنه . لكل إنسان عمله ومجال خدمته معينين من الله . فإن كان هذا المعلم الجديد قد صادف مثل هذا النجاح فليس لنا الحق فى أن نغير منه لئلا نخطىء الى الله الذى جعله ما هو عليه الآن ، وأن لم تلتف حولنا الجماهير كما كان سابقا فلنكتف بهذا عالمين أنه ترتيب السماء ، ويكفينا أن نتمم ما تعين لنا ونترك كل النتائج لله » .

يقينا أن هذه أية ذهبية : « لا يقدر انسان أن يأخذ شيئا أن لم يكن قد أعطى من السماء » . هل صادفت نجاحا عظيما فى عملك ؟ هل تلتف

الجماهير حولك ويزدحمون فى قاعة اجتماعاتك ؟ لا تنسب هذه الى نفسك ، فإنها كلها هبات من نعمة الله . هو يرفع واحدا ويخفض آخر . لا يوجد عندك شىء لم تأخذه . وان كنت قد أخذته فاحرص على أن تمرن ذاتك دواما على موهبة الأخذ لكى تستطيع أن تأخذ أكثر فأكثر ، نعمة فوق نعمة .

إن النهر فى فيضانه يجوف قاع المجرى الذى يجرى فيه . كن شاكرا . وأياك وخطية الزهو والافتخار ، فان الذى أعطى قد يأخذ . واعطاء المواهب العظمى يتضمن المسئولية العظمى فى يوم الحساب . لا تستكبر بل خف . والنجاح الكثير يمكن التمتع به بحيث لا يؤذى الحياة الداخلية – طريقة واحدة هى أن يعتبر كهبة ثمينة من المسيح يجب أن تستخدم من أجله .

لك وزنة واحدة فقط ، ونجاح ضئيل ؟ اعتبر أن هذا ما أراده الله . كان يمكن أن يعطى أكثر لو أنه أراد . فاشكره على ما أعطى ولو كان ضئيلا . انتفع بما عندك . عندما توزع أرغفة الشعير الخمسة والسمكتان تزداد جدا حتى تشبع الألوف . لا تجرؤ بأن تحسد شخصا آخر أكثر نجاحا وأكثر نفعا منك ، لئلا تتهم بالتذمر على تدبير ربك .

وهنا أيضا نجد العلاج ضد الغيرة التى تسيظ الجفاف لخادم الله أكثر من أى شىء آخر . فالخادم الذى تقادم عليه العهد وبدأت شهرته تتناقص ، كثيرا ما يجدها تجربة عنيفة جدا أن يرى بعض الشباب يتقدمون الى المراكز التى كان يشغلها هو يوما ما لكنه اضطر لهجرها . فهو يجدب بعنف بأن يحقر من شأن مقدرتهم ، ويذكرهم بشىء من عدم التقدير ، وإذا مدحهم أضاف بضع عبارات تهدم مدحه لهم . لماذا ينجح هذا الشاب الذى لم يكن قد ولد يوم كانت خدمته هو فى أوج قوتها بينما قد بدأت شهرته هو تتناقص ؟ .

أن أفكارا كهذه تقوض أركان النفس . ولا علاج لها ألا اذا رجعت النفس – متعاونة مع الارادة المسترشدة بالروح القدس – بهذه الكلمات « لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئا أن لم يكن قد أعطى من السماء . لقد كانت لى ساعات بهيجة فى نهار مجدى ، ولا زال لى نور بهيج فى غروب الشمس . لقد كان نجاحى هبة من الله ، والراحة الآن هى هبة منه كذلك ، وأننى أفرح لأنه يقيم آخرين لاتمام عمله . اننى أفرح لأن الملكوت يقترب ، لأن المسيح تسر نفسه ، لأن الناس يخلصون . هذا هو فرحى ، وسيكمل » .

كم من التعاسة والآلام وخيبة الأمل يمكن تفاديها لو أن كل واحد منا فى بداية حياته تساءل جادا عن مصير ذلك العمل الذى اليه دعى والذى قد أعدالله إليه. بدلا من أن نكون مقلدين نكون مبتدئين صالحين بدلاً من أن نقضى وقتنا فى أمور ثانوية تافهة نصرف كل جهدنا فى الغرض الرئيسى من وجودنا . لقد خلق الله كل واحد منا لغرض معين ، ووضع فينا أحد أفكاره العظمى ، وأمدنا بكل ما يلزم لتحقيقه . قد نتبين معناه من مميزات مواهبنا العقلية أو من نصيحة الأصدقاء ، أو من دواعى ظروفنا ، أو من ايحاء الروح القدس . والا فيجب أن نكتفى بالاستمرار فى خدمتنا متممين أياها كل يوم وفقا للمثال الذى يظهر لنا ، لا بالجملة بل بالقطاعى ، واثقين أن مهمة الحياة سوف تكمل يوما ما اذ توضع كل قطعة من العمل فى محلها كما تمت خيمة الاجتماع أخيرا ، وانتصبت كاملة بعد أن وضعت كل قطعة فى محلها .

لكل واحد منا أهميته فى نظر الله ، ولأحقر واحد مكانه فى المقاصد الألهية ، وله درسه ليتعلمه ، وعمله ليتممه . والجيل الذى نعيش فيه لا يستغنى عن أى واحد منا . ولأحقر قطعة فى رقعة شطرنج الله قد تأكل وزيرا أو تكش ملكا » . لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها » (اف ٢ : ١٠) .

(٢) وتطلع يوحنا فرأى مثلا أعلى أثر غنى وكمالا من مثله العالى .

لا شك فى أن الأنباء قد وصلته عن الآية الأولى التى صنعها الرب فى قانا الجليل . نحن نعلم أنه كان لها تأثير عظيم فى نفوس جماعة التلاميذ القليلى العدد الملتهبين غيرة ، الذين دعوا ليشاركوا أفراح القرية مع معلمهم الجديد . ونعلم أن بعضهم كانوا لا يزالون متصلين بمعلمهم القديم وزعيمهم السابق . فلا بد أن يكون قد استقى من هؤلاء أنباء كاملة عن بداية هذه الخدمة التى طال انتظارها . ولابد أن يكون قد ذهل اذ سمع عنها لأول مرة . لقد سبق أن أعلن عن ذاك الذى رفشه فى يده لينقى بيدره ، الذى يعمد بالنار ، عن حمل الله القدوس المسالم الذى أنفصل عن الخطاة . لكن المسيا بدأ خدمته بالاختلاط بالقرويين البسطاء فى أفراح عرسهم ، والاشتراك عمليا فى أفراحهم البريئة بتحويل الماء الى خمر . لقد أتى ابن الانسان « يأكل ويشرب » . يالها من هوة سحيقة بينه وبين تقشف الصحراء والباس الخشن وأبسط طعام . « جاء يوحنا المعمدان لا يأكل ولا يشرب » .

أيمكن أن يكون هذا هو المسيا ؟ ومع ذلك فلا شك فى أن السماء قد انفتحت فوقه ، وان الحمامة نزلت ، وان صوت الله أعلن بأنه هو الابن الحبيب . لكن هذا يختلف كل الاختلاف عن كل ما كان ينتظره .

وإذ أطال المعمدان التأمل فى هذه الحادثة التى فعلها يسوع وأظهر بها مجده : وفى حادثة تطهير الهيكل التى تمت بعد ذلك مباشرة ، فلا بد أن يكون قد اقتنع بأن هذه الفكرة عن القداسة هى الحقيقية . ان نوع الحياة الذى اختاره لا يمكن تطبيقه بصفة عامة . لم يكن منتظرا أن يهجر جميع البشر مطالب الحياة اليومية ليصرفوا حياتهم فى البرية العادية كما فعل هو . ولم يكن من خيرهم أو خير العالم لو أن طريقة حياته أصبحت هى القاعدة العامة . وإلا اعتبر اعترافا عمليا بأن الحياة العادية دنسة ونجسة ، وبأنها من المستحيل أن تتمشى مع مبادىء ملكوت السماء السامية ، وإعتبر بأن التكريس لله معناه أن القديس يتحتم عليه هجر الزوجة والأولاد ، والعائلة ومشاغل العالم والموسيقى والشعر. مع أن الفكرة الصائبة عنها تتضمن بأن ما خلقه الله يجب أن لا يحسب دنسا أو نجسا ، بل يحسب الكل ضمن دائرة ملكوت الفادى .

إذا فشعار حياة التكريس المسيحى هو ما نجده فى تصريح الرسول العجيب « كل خليقة الله جيدة ولا يرفض شىء اذا أخذ مع الشكرلأنه يقدس بكلمة الله والصلاة » (١تى ٤ : ٤ و ٥) .

وإذ رأى يوحنا ، تحت أشعة الروح القدس المنيرة ، أن هذا هو المثل الأعلى الألهى ، وان الفادى لا يمكن أن يتناقض مع الخالق ، وأن الملكوت لا يتعارض مع الحياة العائلية ، وأن حضور الملك لا يتعارض مع عواطف وضحك الطفل وافراح العرس القروى البريئة .

وإذ رأى يوحنا هذا صرخ فى الحال « ان هذا المنظر القروى هو المفتاح لخدمة المسيا فى إسرائيل . أنه ليس فقط ضيفا على مائدة العريس بل هو العريس نفسه . لقد جاء لكى يخطب ود الجنس المختار ويربحهم . لقد قيل عنهم قديما حفصيبة (١) وبعولة (٢) ، أما الآن فان تلك الكلمات القديمة تعود الى الذاكرة بمعنى جديد مشبع برائحة الربيع (اش ٦٢:٤ و ٥) . أن أرضنا ستتزوج بعد أن ظلت طويلا مهجورة وموحشة . يا لأفراحها العظيمة ، أن العريس هنا . من له العروس فهو العريس ، أما أنا فأنى صديق العريس ، وقد أرسلت لكى أقوم بعملية التوسط بين الطرفين وأمهد لحفلة الزفاف المباركة ،

---

(١) معناها : سرورى بها . (٢) معناها : متزوجة أو ذات بعل .

المبـاركة بالغبطة العظيمة المتسببة عن سماع صـوت العريس .هل تخبروننى بأنه يكرز وبأن الكل يلتفون حوله ؟ هذا هو كل ما كنت ابغيه . اذا فرحى هذا قد كمل . ينبغى أنه يزيد وأنى أنا أنقص » .

(٣) واتسع افق يوحنا فى معرفة طبيعة المسيح الحقيقية.

يتساءل البعض عما إذا كانت الفقرة التالية (يو ١ : ٣١ - ٣٦) هى من أقوال المعمدان أم هى من تعليق يوحنا الإنجيلى إننى أوافـق الكثيـرين من المفسرين البارزين الذين يذهبون إلى الرأى الأول . فالتعبيرات المستخدمة فى هذه الفقرة تشبه تمام الشبه الكلمات التى إستخدمها المسيح فى حديثه مع نيقوديموس ، التى طالما رددها كما نرى فى الأصحاح الخامس من يوحنا . لعلها قد وصلت إلى المعمدان عن طريق اندراوس وبطرس ويوحنا ، الذين لابد أن يكونوا قد قصوا على معلمهم السابق الوقور ما سمعوه من يسوع .

تأمل إذا فى عقيـدة المعمـدان فى هذه الحقبـة من حيـاته .

لقد أمن بلاهوت إبن الإنسان وبأنه من السماء وفوق الجميع .

وآمن بأن تعاليمة فريدة لا يمكن أن تصدر الا عن اللاهوت ، وبأنه لم ينقل ما سمعه من غيره بل تكلم بما يعرفه وشهد بما رآه « لأن الذى أرسله الله يتكلم بكلام الله » .

وأمن بوحدته مع الروح القدس . فالمعلمون البشريون فى أسمى درجاتهم لا يمكن أن ينالوا الروح القدس إلا بقدر محدود ، أما يسوع الناصرى فقد كان فيه كل الملء .

وأمن بعلاقته الوثيقة بالله الأب مستخدما الإصطلاح اليهودى المعروف عن البنوية ليصف لاهوته بمعنى فريد ومكررا التصريح الذى سمعه ساعه المعمودية ليؤكد بأن الآب قد أحبه كأبن .

وأخيرا أمن بمركز الوساطة الذى أتخذه يسوع النـاصرى ، بأن الأب قـد « دفع كل شىء فى يده » وبأن اليوم كان قادما ليجلس على كرسى داود ، بل إنه هو ملك الملوك ورب الأرباب ، وقد علقت على منطقته مفاتيح الموت والهاوية وكل القوات الروحية غير المنظورة .

إلى هذه العقيدة أضاف المعمدان شهادة كانت واسطة لنور والبركة لربوات من البشر . إنه وإن مات لكنه يتكلم بعد فى كل الأجيال مؤكدا لنا أن الإيمان فى يسوع معناه الحصول على الحياة الأبدية كحقيقة راهنة ، على الحياة التى تملأ كيان الإنسان بالله وتتحدى الزمن وكل عوامل التغيير .

الإيمان هو العملية التى بها نفتح قلوبنا لنقبل عطية الله ، كما تفتح الأرض صدرها للشمس والمطر ، كما تفتح المرأة الحكيمة أبواب بيتها ونوافذه ليستقبل الشمس والهواء .

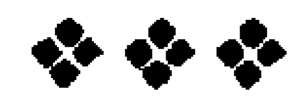
أيها القارىء العزيز ! إننى أتمنى من كل قلبى أن يكون لك هذا الإيمان أن يكون لك القلب الذى يفتح ليسوع وأن يكون لك الأرادة الخاضعة . أن كل ما تحتاجه هو أن تريد بأن يكون لك ، ثم أن تؤمن بأنه قد دخل فعلا ، وان كنت لم تستطع أن تسمع خطوات أقدامه أو صوت الأجراس المعلقة حول هدب ثوبه . وان أغلقت قلبك دونه فإن ذلك معناه ليس فقط الحرمان من الحياة التى يمكن أن تكون لك بل حلول غضب الله . هنالك فكرتان ختاميتان :

(الأولى) أن الرجاء الوحيد فى نقص النفس هو زيادة المسيح ، فى كل منا يوجد قدر وفير من محبة الذات ، والتمرد على إرادة الله ، تحويل نفس الخدمات التى نقدمها لله إلى شر ، التظاهر بالتواضع والدعة للحصول على مدح الناس . وكيف السبيل إلى التخلص من لوح الكبرياء والأعتداد بالذات ؟ يجب أن ندير ظهورنا لظلنا ، وندير الوجه نحو المسيح . يجب أن ننظر إلى كل الأشياء من وجهة نظره هو ، مجتهدين دائما أن ندرك كيف ينظر إليها ، وبعد ذلك ندخل إلى عواطفه . يقال أن المرأة التى تحب ، تفكر بعقل الرجل الذى تحبه » . ويقينا أننا أن كنا نحب المسيح محبة ملتهبة فإننا نفكر بأفكاره ، ونحس بأفراحه ، ولا نعود نعيش لأنفسنا بل له .

(الثانية) يجب أن ننظر إلى علاقتنا بالمسيح كرابطة الزيجة بين أنفسنا وبين خالقنا وفادينا الذى هو أيضا رجلنا (بعلنا) . قال الرسول « إذا يا أخوتى أنتم أيضا قد متم للناموس بجسد المسيح لكى تصيروا لأخر الذى قد أقيم من الأموات لنثمر لله » (رو ٧ : ٤) .

إن إبن الله لا يكتفى بأن يحبنا . هو لا يقدر أن يستريح ألا إذا وهبناه كل محبتنا ردا على محبته . أنه « يتطلع من الكوى (كوى النفس) بوصوص (يظهر نفسه) من الشبابيك » . حبيبنا يتكلم ويقول لنا « قومى يا حبيبتى يا جميلتى وتعالى » . هو ينتظر حتى يسمعنا نقول :

حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن
الى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال
أرجع يا حبيبى (نش ٢) .



-١٠-

قصــور الملــوك

(مر ٦)

أكمل عـدد خاصتك يارب أعزل التبن

من القمح ثم انزل انزل وبنزولك حل لغز

الحيـاة التى يختلط فيها بالشر ويثيران

حربا لا تهــدأ

(ج. هـ. ن.)

ينتقل بنا الحديث بعد ذلك إلى التأمل فى علاقات المعمدان مع هيرودس انتيباس بن هيرودس الكبير ، وهو أمير حقير ورث ربع سلطان أبيه ، ولذلك سمى رئيس ربع ، وحكم الجليل وجزءا من بيرية (لو ٣ : ١) وقد قضى أغلب وقته فى طبرية فى فخفخة عظيمة نقلها من رومية التى قضى فيها جزءا من حياته الأولى . ومن بداية حياته أودع سلطة استبدادية ، وكنتيجة طبيعيه حتمية أصبح شهوانيا ضعيفا متقلبا وقاسيا .

ولنتأمل الآن فى التصادم الذى حدث بين هذا الإنسان الذى قال عنه الرب أنه ثعلب ، وبين يوحنا المعمدان . ونحن نكتفى هنا بأن نذكر أن كل شخصية عظيمة فى التاريخ كان لها خصم عنيد . فموسى كان له فرعون ، وإيليا كان له أخاب ، وارميا كان له يهوياقيم ، وبولس كان له نيرون .

(١) سبب هذا التصــادم :

لقد تقاطر كل سكان العالم ليروا يوحنا المعمدان ويسمعوه ، وإمتلأ كل فم بالحديث عن شذوذه ، وعن فصاحته . ورويت روايات عجيبة عن التأثير الذى أحدثه فى حياة الذين إتصلوا به . وعرف هيرودس كل هذا . فقد كان جواسيسه يحضرون كل إجتماع كبير ويقومون بالخدمة التى تقوم بها الصحف اليوم . كان على علم بالمواضيع التى تشغل الرأى العام .

وراقب هيرودس أيضا لمدة بضعة شهور تصرفات المعمدان ، ولم يكن يتوقع أن المعمدان يرقب هو بدوره كل حركاته بل أدق تصرفاته . وكانت النتيجة مرضية جدا ، فقد أدرك هيرودس أن يوحنا رجل صادق أمين . « كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه (أو يراقبه) » (مر ٦ : ٢٠) . وقد منعت الملك مهابة الحكم من الذهاب بنفسه إلى وادى الأردن ، لكنه كان شغوفا جدا بأن يرى رجل الله العظيم هذا ويسمعه . لذلك وجد يوحنا نفسه عقب أحدى العظات أو إحدى المناقشات مع الفريسيين أو عقب إجراء إحدى خدمات المعمودية ، وجد نفسه أمام أحد سفراء الملك الذى دعاه لكى يلقى أحدى عظاته فى القصر الملكى . وهكذا إستدعاه الملك « وإذ سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور » (مر ٦ : ٢٠) .

قد نعجب أشد العجب كيف يرتضى رجل مثل هيرودس يعيش فى بيت من زجاج (أى يعيش حياة دنسة مستهترة) أم يستدعى واعظا قاسيا فى كرازته عن التوبة كيوحنا المعمدان الذى تحطمت بيوت زجاجية كثيرة أمام كلماته القاسية . لكن يجب أن نذكر بأن معظم الناس إذا ما دخلوا قصور الملوك حرصوا على أن لا يتكلموا إلا الكلمات الناعمة . ومهما كانوا قساة فى توبيخ خطايا الطبقات الوضيعة فإنهم يغيرون لهجتهم إذا ما وقفوا أمام خطاة فى مراكز رفيعة . إذا فكان لهيرودس كل الحق فى أن يتوقع بأن يطيع يوحنا هذا الناموس غير المكتوب ، وإنه وان كان يوبخ الخطية بصفة عامة ، فلن يجرؤ على مهاجمته شخصيا .

لعله كان هنالك عامل أخر أثر على هيرودس . لقد عرف أن الأرض إمتلأت من شهرة المعمدان ، ولذلك ظن بأنه إذا ناصر ديانة الجماهير كان هذا طريقا سهـلا للشهرة ، وربما حول الأنظار عن خطاياه الشخصية التى أنتنت رائحتها . ولعله فى هذه الناحية كان له نفس الشعور نحو نبى البرية الذى كان لسمعان الفريسى نحو يسـوع حينما دعاه ليأكل معه . كان هذا هو لسان حاله : « نعم ليحضر يوحنا المعمدان ، ان حياة القصر كئيبة ومملة ولابد أن تحدث زيارته شيئاً من التحول . لا مانع من قتل بعض الوقت رتحمل قليل من خشونة كلامه وفظاظة طباعه . وعلاوة على ذلك فإن زيارته لى ترضى اتباعه ، وهذا له قيمه كبيرة عندى . وعلى أى حال فليأت إذا » .

هذا يذكرنا بمنظر مماثل فى تاريخ العهد القديم عندما إستدعى أخاب ميخا بناء على رجاء يهوشافاط . « وأما الرسول الذى ذهب ليدعو ميخا فكلمه قائلا هوذا كلام جميع الأنبياء بفم واحد خير للملك . فليكن كلامك مثل كلام واحد منهم وتكلم بخير » (١ مل ٢٢ : ١٣) .

يقول بعض المفسرين (مر ٦ : ٢٠) أن عظة المعمدان الأولى أمام هيرودس تلتها أخرى ثم أخرى . وعلى هذا الأساس يكون المعمدان قد عالج فى أول الأمر أمورا عامة ، ولفت نظر الملك الى بعض أخطاء بسيطة لم تكن شخصية جداً ففاز باحترامه الصادق له . ويخبرنا الكتاب أنه « سمعه (أو اعتاد أن يسمعه) بسرور » وأنه « فعل كثيراً » .

شعر هيرودس ببعض الراحة إذ أحس بأن هنالك أشياء كثيرة يمكن أن يفعلها وأخطاء كثيرة يمكن أن يصلحها ، طالما كانت خطيئة حياته العظمى لم تمس . نعم أننا نلاحظ بأن الناس مستعدون أن يفعلوا كثيراً فى طريق إصلاح الاعوجاج طالما كانت الخطية الوحيدة التى تزعج القلب ، والتى ركزت النفس فيها كل تفكيرها لم تمس . لكن يوحنا أدرك أن واجبه نحو هيرودس ، ونحو الحق ، نحو الحياة الأدبية بصفه عامة ، يقتضيه ان يبعد إلى العمق ، ويطعن فى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ . ولذلك أنتهز أحدى الفرص الخالدة فواجه الملك المجرم بالجريمة التى يتحدث بها الناس سرا فى كل مكان ، ونطق بالكلمة الخالدة التى لا يمكن أن تنسى « لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك » .

إننا نتخيل كيف أن أحدى غرف القصر التى إستخدمت فى المناظر الخليعة قد أعدت لتكون غرفة إجتماع صفت فيها المقاعد واكتظت بالمستمعين الذين كانوا يحضرون كلما حضر المعمدان . فى الوسط جلس الملك والمرأة التى كان يعيش معها فى علاقة غير شرعية ، وبجوارها جلست إبنتها سالومى ، وحولهم جلس رجال الحاشية وسيداتهم ، النبلاء والوصيفات ، الجند والخدم . وزاد فى رونق المنظر بهاء الملابس الفخمة واللآلى النادرة والأثاثات الفاخرة .

بدأت العظة ، وبدأ يوحنا كعادته بمهاجمه الخطية ومفاتن العصر ، ثم أعلن مجيء الملكوت وحضور الملك الأعظم ، وباسم الله أمر بالتوبة واصلاح الحياة . تأثر هيرودس كعادته واقتنع ، ووافق على إقتراحات الواعظ ، وأظهر فى جلسته المعتادة أنه سمع بسرور . كان موقفه كموقفنا عندما ننظر البرق فى السماء أثناء الصيف فإنه لا يساورنا أى خوف .

وللحال بدأ يوحنا يتكلم كلاما مباشراً وشخصيا أكثر مما فعل من قبل . بدأ يوبخ خطية نوى المراكز الرفيعة بكلمات نارية ، ويهاجم الفساد الذى ملأ القصر الملكى، وإذا بدأ كلامه ساد السكون والرهبة على الجالسين الذين إختلفت ملابسهم عن ملابسه الخشنة إختلافا بينا، وإختلف خوفهم وفزعهم عن فصاحته ورزانة موقفه . هنا وجدنا الناس الذين فى الثياب الناعمة الذين تعودوا الحياة الناعمة، واقفين أمام المعمدان كقصب الغاب الذى ينحنى أمام الريح العاصفة.

وأخيرا تعمق الواعظ أكثر وأشار إلى المرأة الجالسة بجوار هيرودس، والتفت إلى هيرودس ، ثم صرخ فى وجهه قائلا. «لا يحل أن تكون لك إمراة أخيك» .

لا داعى لأطالة الحديث عن كل تفاصيل تلك الخطية الشنيعة لكن يكفى القول إن كل الظروف التى جعلتها أكثر شناعة كانت متوفرة ، فإن زوجة هيرودس ، وهى إبنة اريتاس ملك بلاد العرب ، كانت لا تزال حيه ، كما كان فيلبس زوج هيروديا لا يزال حيا . وقد بدأ الإتصال فى روما عندما كان هيرودس ضيفا على أخيه فيلبس الذى كان على ما يبدو منتدبا فى مهمة دينية تتعلق بمصالح الأمة اليهودية الدينية .

أن أساس إتهام يوحنا له أعمق مما قد يبدو من التأمل السطحى فى كلماته . كان ممكنا أن يقول « ليس هذا العمل لائقا ، وأن والد زوجتك قد يشن عليك غارة ويهدد الحدود الشرقية لملكتك . لا يليق أن تعرض نفسك لخطر الحرب التى قد تعطى روما فرصة أخرى ضدك » .

كان ممكنا أن يقول أيضا « هذه خطوة غير حكيمة لأنها تقطع علاقتك بأسرتك وتعرضك للكراهية العامة » .

كان ممكنا أن يقول « لا يتفق مع السياسة والكياسة أن تعرض نفسك لغضب الامبراطور » .

لكنه لم يقل شيئا من هذا قط ، بل رفع القضية الى محكمة أعلى . فقد أوقف الطرفين المجرمين أمام الله . واذ وضع الفأس على أصل الشجرة ، ووجه الحديث الى ضمير هيرودس النائم طويلا ، الذى أراده يوحنا أن يشترك فى المحاكمة ، قال على الفور « اننى أدعوك للمحاكمة أمام الله ، وفى ضوء كلمته المقدسة . وضميرك شاهد ضدك ، أنت تعلم علم اليقين أنه لا يحق لك أن تعيش كما تعيش . لا تزن » .

عندئذ ذهل كل المستمعين . وحل على الاجتماع صمت الموت . ولعل ذلك الصمت قد قطع حبله الفزع الشديد .وكأن الشلل قد اصاب كل واحد حتى ان يدا لم تمتد لتلقى القبض على ذلك الواعظ .والكتاب يقول صراحة ان « هيرودس أرسل وأمسك يوحنا » (مر ٦ : ١٧) الامر الذى نستنتج منه أن الواعظ الذى لم يعتوره أقل خوف جاز وسط المجتمعين الذين أصابهم الشلل والذهول ، تاركا وراءه ذعرا مماثلا لما وقع على المجتمعين المتهورين فى قصر بيلشاصر عندما سجلت يد القدير كلمات غريبة على جدران القصر بأحرف من نار .

ولابد أن الشعور الأول بالفزع والرعب قد زال سريعا . لعل البعض قد اسرعوا ليطيبوا خاطر هيروديا ، والبعض ليلاطفوا هيرودس . لعل هيروديا قد اسرعت الى مخدعها تحف بها السيدات من أرقى الطبقات، مهددة بأشد انتقام يبطش بالواعظ ، مماثلة ايزابل التى تعطشت لدم إيليا . ومن حاشية هيرودس لابد أن يكون الكثيرون قد تجمعوا ليلاطفوه بكلمات ملطفة مخففة كهذه العبارات . « هذه وقاحة أكثر من اللازم »، أو « ماذا ينتظر من شخص كهذا » . أو « هذا شنوذ جسيم فى الطباع » ، أو « هذه مخالفة للكياسة والذوق » .

لكن هيروديا لم تترك عشيقها فى راحة. ولعلها فى مساء أحد الأيام اذ كان يوحنا مختليا للتأمل والصلاة ، وكان تلاميذه غائبين ولم يكن أحد معه من الشعب ، أرسلت اليه حفنة من الجند ، فالقـوا القبض عليـه ، واخـذوه الى قلعة ماكيـرا الحصينة .

(٢) سجن يوحنا وظروفه

كان يطلق على قلعة ماكيرا «البرج الأسود » . كانت تقع على الشاطىء الشرقى للبحر الميت على خط عرض واحد تقريبا مع بيت لحم . ولا تزال آثار هذه القلعة باقية الى اليوم ، حيث ترى حجارة مربعة هائلة على جبل مرتفع ، محاط من ثلاث جهات بهوة لا يمكن تسلقها ولا ترى العين قاعها ،على حد وصف يوسيفوس. أما الجهة الرابعة فإنها أقل رعبا، إذ تحف بها خرب كثيرة.

ذكر سائح المانى أن بها الكثير من مقذوفات البراكين السمراء والحمراء والسوداء يختلط بها حجر الخفاف ، وهذه المقذوفات عبارة عن كتل ضخمة جداً مبعثرة أو صخور عمودية .

أما النهر الجارى تحتها فتحف به أشجار النخيل وقصب الغاب العالى وأشجار أخرى متنوعة ، ويتصاعد منه ضباب كثيف هنا وهنالك ، حيث تنفجر المياه الكبريتية من شقوق الصخور .

يحدثنا الدكتور جيكى أن هيرودس بنى فى هذا الموقع الحصين سورا ضخما يحيط بقمة الجبل ، وعلى زواياه أقيمت ابراج أرتفاعها مائتا قدم . ثم بنى داخل الاسوار قصرا فخما به صفوف من الاعمدة صنع كل منها حجر واحد. أما غرفه فقد غطيت جدرانها بالرخام الملون ، وبه حمامات فخمة ، وكل أنواع الترف الرومانى . ولم ينس أن يزوده بصهاريج ضخمة ، وثكنات للجند ، ومخازن شحنت بكل ما يتطلبه الأمر فى حالة الحصار . كان الناظر من الشبابيك يرى منظرا جميلا للبحر الميت ، وكل مجرى نهر الأردن ، وأورشليم، وحبرون ، وقلعة مارسابا . وإلى الشمال كان يرى مرتفعات جبال الفسجة وعباريم . وعلى بعد قليل من القصر كان هنالك حصن كئيب مظلم به سجن سفلى (لا تزال ترى أثاره) منحوت إلى أسفل فى الصخر. هنا سجن يوحنا .

يقول البشير صراحة أنهم « أوثقوا » إبن الصحراء الممتلىء قلبه بمحبة الحرية العزيزة ، الدقيق الإحساس جدا إذ كان يحس حتى بلمسة شروق الشمس والنسيم والجمال الذى فوق الجبال ، والذى تعود أن يتنقل هنا وهنالك كما يشاء . كأنهم قصدوا الأمعان فى اذلاله وإهانته إذا وثقوا هاتين اليدين وهاتين القدمين ، تلك الأعضاء الرخصة الرشيقة الطاهرة .

إنها لخطية هينة أن يحبس عصفور برى فى قفص ضيق لكى يخبط رأسه فى قضبانة بينما تدعوه الشمس لكى يحلق فى الفضاء مغتبطا مسرورا ، لكنها خطية شنيعة أن يحبس واعظ البر والحق والطهر فى سرداب مظلم وياله من فارق شاسع بين حفلات المجون والملذات والمسرات العالمية التى إمتلأ بها قصر الملك ، وبين التعذيب البطىء الذى قضى على روح المعمدان النبيلة أن تتحملة بضعة شهور مضنية .

أيها القارىء العزيز ، هل تحس بشىء كهذا فى حياتك ؟ فى كثيرة من القلاع القديمة يلفت نظر السائح إلى غرفة مظلمة يقال عنها أن الأرواح الشريرة تتمشى فيها ليلا . وفى كثير من القلوب توجد غرف سفلية مظلمة حبس فيها الضمير وأوثق . فى الظاهر يرى الفرح كأنه فرح قصر ملكى ، أما فى الداخل فتوجد الحسرات والأنات والتعاسة والقلق والأضطراب . فى ساعات الخلوة يسمع صوت ينفذ من أضخم الجدران وسط تظاهرات بعدم الأكتراث ، ويرى الصوت فى بيتك ، فتحاول النفس عبثا أن تصم أذنيها ، يالها

من صرخة أليمة تحطم القلب ، تلك التى يرددها ذلك الصوت « لا يحل لك ، لا يحل ، لا يحل » . حيثما وجدت فرصة هدوء وراحة سمعتها « لا يحل لك ، لا يحل لك » ولا شيء يسكت ذلك الصوت سوى التوبة والإعتراف ورد الشيء إلى أصله أن كان مستطاعا ، ودم يسوع المسيح إبن الله الذى يطهر من كل خطية .

ويبدو أن الصرامة التى عومل بها يوحنا فى السجن كانت تخف من وقت لأخر : فقد سمح لتلاميذه بمقابلته والتحدث إليه عما كان يجرى فى الخارج . والأغرب من هذا أنه كان يدعى لمقابلة هيرودس نفسه .

ويبدو مما ورد فى (مر ٦ : ١٩ و ٢٠) أن الملك كان مضطرب البال تتجاذبه عوامل هنا وهنالك .

فإنه أولا كان متهيجا جدا من شدة الغيظ ، كلما فكر فى الطريقة التى عامله بها المعمدان إذ عنفه أمام حاشيته إحتدمت نيران الغيظ فى صدره . وكانت تداهمه من وقت لأخر تجربة شديدة هى تلك المرأة التى كانت تعرف أنه طالما كان المعمدان حيا يجرؤ على الكلام مثل ما فعل فإن مركزها فى خطر . وكانت تعرف أن هيرودس يرهب ثورة ضميره كلما فكر فى الحق . وحيثما وجدت الفرصة كانت تهمس فى أذن هيرودس بصفة مستمرة قائلة « كلما أسرعت فى القضاء على ذلك الإنسان كان ذلك أفضل . إن محبتك لى ليست كاملة طالما كنت قد سمحت له بأن يعيش . أنه وغد دنيء » . « فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر » (مر ٦ : ١٩) .

ومن الناحية الأخرى ملأ الخوف قلب هيرودس « لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بار وتديس » (مر ٦ : ٢٠) . كان يهاب الشعب لأنهم كانوا يعتقدون إنه نبى . وفوق كل شيء كان يهاب الله لئلا يتقدم فينتقم منه من أجل أية إساءة يعملها لعبده .

بين هذين العاملين اضطرب هيرودس كثيرا (١) . إذا وجد مع هيروديا فكر بعقليتها وتركها وهو عازم على قتله . إذا ماخلا لنفسه مثل أمامه العامل الأخر وود أن يستدعى يوحنا هكذا :

---

(١) « وإذ سمعه فعل كثيرا » (مر ٦ : ٢٠) . ووردت فى الترجمة الانكليزية المنقحة هكذا « وإذ سمعه اضطرب كثيرا » . ووردت فى الترجمة القبطية هكذا « ويسمع منه ويطيعه فى (أمور) كثيرة وكان حزين القلب »

« ياحاجب ، إننى أريد رؤية المعمدان مرة أخرى ، قل للسجان أن يرسله إلى هنا ، وليكن مجيئه إلى غرفتى الخاصة سرا مكتوما . لست أريد أحدا من حاشيتى يفشى السر » .

ولعل السجان جاء إلى باب السجن ونادى السجين بمزيج من الغيظ والمسكنة « قم أيها الرجل . لقد استدعاك الملك لا تكلمه ألا بأرق الكلمات . هذا خير لك من لسانك القاسي . لماذا لا تترك الملك يدبر شئونه الخاصة بنفسه . ليس لك أو لى دخل فيها » .

ولعل هيرودس سعى ليقنع النبى لكى يسترد عبارته القاسية . قائلا له « تعال ، أنت تذكر ما قلت ، ان سحبت تلك العبارة أطلقت سراحك . إننى إحتراما لزوجتى لا أسمح بأن تظل هذه الكلمات قائمة دون أن تسحب . ان حريتك فى يديك . ان قلت كلمة اعتذار واحدة أطلقت سراحك . إننى أعاهدك بأن لا تمتد اليك يد أى إنسان » .

إن كان عرض كهذا قد قدم إلى ذلك السجين النحيل الجسم الذى فت السجن فى عضده ، وبرحت به الألام فى سجنه الكئيب ، فلا بد أن تكون هذه تجربة شديدة لنفسه . لكنه لم ينحرف عن موقفه قيد شعرة . وبالرغم من أنه كان يعرف إنه لابد أن يعود إلى نفس الألأم فى السجن فقد قابل توسل الملك بنفس الإجابة الحاسمة « ليست لدى الأ نفس الكلمات الأولى . لا يحل لك أن تكون لك أمراة أخيك . لو إننى سحبت كلمة مما قلته لصرت خائنا لألهى وخائنا لك شخصيا . وأنت تعرف صدق هذا » . وإذ تحدث عن البر والتعفف والدينونة العتيدة ارتعب ذلك الملك المجرم .

لم يكن ممكنا أن يفعل يوحنا غير هذا . وقد أظهر فى موقفه هذا ولاء تاما لله وللحق . لم يفكر فى نفسه قط ، بل فكر فى مصير هذين الزوجين الذى أراد أن يحذرهما منه ويخلصهما منه إن أمكن . لهذا كان خليقا بالرب ان يسأل فيما بعد ان كان يوحنا قصبة يحركها الريح . فقد كان يشبه بالحرى شجرة كبيرة جدا تأصلت جذورها عميقا فى الأرض لتحصنها ضد الزوابع ، أو جبلا شامخا كجبل الألب الذى لا تؤثر فيه الزلازل أو الصواعق .

ما أكثر الأشخاص الذين يشبهون هيرودس . أنهم يماثلون التربة السطحية التى تنمو فيها البذار نموا سريعا غير عادى ، لكن الصخر قريب جدا من سطح التربة . انهم يتأثرون الآن بصوت الواعظ وتبيخات الضمير الذى يسمحون له برهة وجيزة بتقديم احتجاجاته . وبعد وقت وجيز يحسون بجاذبية نحو خطيتهم وشهواتهم الدنسة وعاداتهم الخاطئة وأرباحهم الحرام ، فتنزلق أقدامهم من موقفهم السليم ، الذى اعتزموا الوقوف فيه ، الى بالوعة الموت .

قد تحاول أيها القارىء العزيز أن تسلك طريقا متوسطا بين يوحنا المعمدان وهيروديا . قد تعزم الآن أن تتحرر من اغراءاتها الأثيمة وتحطيم القيود التى تجذبك نحوها . قد تتحرر من نيرها الثقيل فعلا . لكنك سرعان ما تحن الى نجاساتها وتعود اليها . ليته يأتى اليك ذلك الصوت الذى تكلم بقوة الى أوغسطينوس ، وتستجيب لندائه كما فعل ، حتى اذا ما تقدمت اليك المرأة المخادعة فى أى شكل اتخذته واقتربت منك وهى تهمس فى اذنك « أنا هى يا أوغسطينوس » استطعت أن تجيبها « لكننى لست أنا هو » .

وهكذا ترك يوحنا فى السجن ومرت الشهور وهو يعانى أشد الآلام فى ذلك السجن المظلم ، متعجبا ، بين الوقت والآخر ، عن سبب عدم تدخل المعلم لأنقاذه ان كان هو ابن الله .

(٣) انحطاط هيرودس

كان يوحنا يستدعى مرارا ويعاد الى السجن ثانية . والأرجح انه قضى اثنى عشرا شهرا على هذه الحال . لكن الملك كان فى كل مرة لا يستجيب لتوبيخات المعمدان ، كان قلبه يزداد قسوة أمام نداءاته ويزداد انجذابا للشهوة . وفى لحظة كان فيها فى نشوة الخمر ، ومتأثرا بشهواته الجنسية ، وجدت هيروديا الفرصة سانحة ، وانقطع آخر خيط من الأمل فى انقاذ المعمدان اذ خضع الملك أمام طلبة هيروديا الدموية ، وأعطى الأوامر بان يفعل كما أرادت .

على أن الرواية لا تنتهى هنا . انه لم يقتل يوحنا المعمدان فقط ، بل أحدث جرحا مميتا فى طبيعته الأدبية لم تشف منه قط كما سترى فيما بعد . لم يفكر فى شىء لما مثل المسيح أمامه سوى ان يرى آية تصنع منه ، وعندما رفض طلبه احتقره هو وعظماؤه ، واستهزأ بدعوته بأنه ملك اسرائيل ، ولم يتردد عن معاملته بازدراء ، وهكذا طرده (لو ٢٣ : ٨ - ١١) .

هل هو غريب أن يلزم الرب الصمت امام رجل كهذا ؟ أى موقف آخر كان ممكنا أن يتخذه ؟ لقد أصبح الانحطاط مروعا كاملا لأن محبة الله لا يمكن أن تقول لنا شيئا طالما كنا لا نقول أن نتوب عن خطيتنا ، بالرغم من أن هذه المحبة مستعدة أن تموت عنا . اننا نتذكر بضع كلمات خطيرة يمكن تطبيقها على هذا المشهد بكل دلالاتها المخيفة « توجد خطية للموت ، ليس لأجل هذه أقول أن يطلب » (١يو ٥ : ١٦) .



- ١١ -

« أنـت هـو » ؟

(مت ١١)

حارب شكوكه ونال قوة لم يشـأ أن يكون
رأيه مزعـزعا بل طـرح عنه أوهـام عقـله
وهكذا وجـد أخيـرا ان ايمانه أصبح أقوى
مما كـان وأن القـوة معـه فى الليـل تلك
القوة التى تخلق الظلام والنور ولا تسكن
فى النور وحده « تنيسن »

مما هو جدير بالملاحظة أن نرى كيف ظل بعض من تلاميذ يوحنا متمسكين بقائدهم العظيم. فقد تشتت الأغلبية، فعاد البعض الى بيوتهم ، واتبع البعض يسوع، وظلت حفنة من التلاميذ معه دون أن تزعزعهم عاصفة الحقد التى هبت على معلمهم، بل بالعكس ازدادوا اقترابا منه بولاء مخلص وعواطف ملتهبة لم تتغير. لم يكن ممكنا لهم أن ينسوا علاقته بهم وتأثيره عليهم. فقد دعاهم أولا الى الحياة الحقيقية ، وعلمهم أن يصلوا ، وعرفهم بالمسيح ، ولذلك لم يجرؤوا على أن يهجروه الآن فى أيامه الكئيبة التى قضاها فى السجن حزينا .

يا لها من بركة لا تقدر أن يكون لنا أصدقاء كهؤلاء لا يهجروننا عندما تنفض من حولنا الجماهير ، بل يزدادون اقترابا منا لما تشتد الملمات وتحل النكبات . ان أعمق بركات الأرض أن يكون المرء محبوبا هكذا . لقد خاطر هؤلاء الأبطال بحياتهم عندما أظهروا علاقتهم هذه بمعلمهم . لم يترددوا عن أن يأتوا اليه فى سجنه لينقلوا اليه أخبار العالم الخارجى ، سيما الأنباء المتعلقة بما كان يفعله ويقوله يسوع الذى ارتبطت حياته بحياة معلمهم بكيفية عجيبة فاخبر يوحنا تلاميذه بهذا كله » (لو ٧ : ١٨) .

حمل يوحنا اثنين من أخلص وأثبت تلاميذه بهذا السؤال الذى كان يدور مدة طويلة فى عقله واضطر آخر الأمر أن يفصح عنه « فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه وأرسل الى يسوع قائلا أنت هو الآتى أم ننتظر آخر » .

(١) ريبـة يوحنـا :

أيمكن أن يكون هذا هو الذى منذ بضعة شهور وقف فى منبره المنحوت فى الصخر ، ممتلئة نفسه بكل يقينية الأيمان .

كان نور الشمس الساطع على شخصه اذ وقف مستقيما وسط الجماهير الغفيرة رمزا للنور الذى ملأ نفسه . لم يكن فى صدره أى أثر للريبة أو الشك . لقد أشـار الى المسـيح بكل يقين وثقـة قائلا : هذا هو ، هذا هو حمل الله ، ابن الآب ، عريس النفس . لكن يا للفارق العظيم بين هذا وبين تلك الصرخة الأليمـة « أنت هـو ؟ » .

يقول بعض المفسرين - حرصا على أن لا تشان سمعته - أنه أرسل هذين التلميذين من أجل خاطرهما لكى ينفتح قلباهما ويثبت أيمانهما ، ولكى يجدا قائدا ومعلما بعد انتقاله ، لكن العبارة لا تتحمل هذا التأويل والتفسير : والأرجح جدا أن يوحنا المعمدان قد غمرته سحابة من الشك لحظة وجيزة ، وجرب بانعدام تلك الثقة التى ملأت قلبه فرحا عظيما عندما رأى الحمامة نازلة لتستقر على المسـيح .

لم يتردد الكتاب المقدس عن أن يحدثنا عن سقطات أنبل شخصياته ، عن ابراهيم الذى توهم ان المصريين قد يقتلونه ، عن ايليا الذى ارتمى تحت ظل رتمـة (شجيرة صغيرة) طالبا الموت لنفسه ، عن توما الذى كان مستعدا أن يموت مع ربه لكنه لم يصدق بأنه قد قام . وبهذا قدم لنا الروح القدس خدمة من أجل الخدمات لأننا منه نتعلم ان المادة التى خلق الله منها أعظم القديسين كانت لحما ودما مثلنا ، وأنهم لم يصلوا الى ما وصلوا اليه ألا بالنعمة الالهية التى ظهرت فيهم بكل وضوح .

ان كان السلم قد استقر على الأرض الواطية حيث نعيش ونحيا ونتحرك فان لنا رجاء بأن نتسلقه لكى نقف مع غيرنا الذين تسلقوا درجاته المتتابعة ووصلوا الى أعلى الدرجات . نعم يجب أن نصدق بأن ايمان يوحنا قد تزعزع قليـلا - على الأقل لبضعة أيام - وبدأ كأنه سـوف يهوى الى هاوية لا قرار

لها . لقد أرسلهما الى يسوع قائلا « أنت هو الآتى » ؟ ويمكن القول ان ضعف الايمان هذا كان يعزى الى ثلاثة عوامل : -

١ - **انقباض النفس** . لقد كان ابن صحراء ، كان طليقا يتمتع بالحرية . اذا ما نام بالليل أو عمل فى النهار امتدت السماء فوقه ببسطتها ومساحاتها اللانهائية . وعندما وجد نفسه مكبلا بالأغلال ، محبوسا فى غرفة مظلمة سادته الكآبة والحزن . تعطش الى الحرية تعطش العصفور البرى المحبوس ، وتاقت نفسه الى أن يتحرك دون أن يسمع صليل القيود وأن يشرب من مياه نهر الأردن الصافية ، وان يستنشق نسيم الصباح ، وأن يتطلع الى فضاء الطبيعة اللانهائي . وهل نجد صعوبة فى أن نفهم كيف كان لقيوده رد فعل على حالته العقلية والروحية وعلى جهازه العصبى ، أو كيف كان لوهنه الجسمانى تأثير على نفسه ؟ .

ان تركيبنا الجسمانى متناه فى الدقة . كثيرا ما كان انعدام الفرح الروحى والسلام والحرارة فى الصلاة يعزى الى ملازمتنا غرفة ضيقة ، أو اضطرارنا لاستنشاق هواء فاسد ، أو عدم استطاعتنا الى الخروج من المدن الكبيرة الصاخبة الى الريف الغنى بزهوره وحقوله وخضرته . قد يكون الطبيب ألزم من الكاهن فى بعض الأمراض الروحية ، قد يكون الخروج الى ساحل البحر أو الجبال ألزم من الذهاب الى المؤتمرات الروحية .

يا لها من تعزية لا حد لها ان نعرف بأن الله يدرك كيف تضطرب طبيعتنا بسهولة . انه يستطيع أن يعزو شكوكنا ومخاوفنا الى مصادرها الحقيقيه . أنه يعرف أن القوس قد انثنى الى درجة الانكسار ، وان الحبل قد شد الى أقصى درجة الإحتمال . انه لا يوبخ خدامه عندما يرتمون تحت رتمة ، طالبين لأنفسهم الموت ، بل يرسل اليهم طعاما ويمتعهم بنوم عميق . وعندما يرسلون من سجونهم متسائلين « أنت هو » ؟ ، فلا تسمع كلمة توبيخ ، بل كلمات تشجيع رقيقة وتعليم .

٢ - **خيبة الأمل** . عندما اودع فى السجن فى بداية الأمر توقع فى كل يوم أن يتدخل يسوع لأنقاذه بطريقة ما . اليس هو فاتح أبواب السجون ؟ ألم يدفع اليه كل سلطان ؟ ألم يمسك قضيب بيت داود ؟ يقينا أنه لا يرتضى بأن تابعه الأمين فى يأس ذلك السجن المظلم . وفى تلك العظة الأولى فى الناصرة التى سمع عنها ، ألم يقرر صراحة أنه ضمن برنامجه الالهى الذى

لأجله مسح هو أن يفتح أبواب السجون وينادى للمأسورين بالأطلاق ؟ اذا فانه لابد أن يرسل ملائكته ليفتحوا أبواب السجن ويخرجوه الى النور .

لكن الأسابيع مرت وتلتها الشهور ولم تأت الاغاثة . لم يستطع قلب يوحنا الأمين أن يجد تعليلا لذلك ، وخشى أن يكون قد أخطأ فى التحقق من شخصية المسيح .

ونحن أيضا قد نشترك معه فى شكوكه . فاننا كثيرا ماتوقعنا تدخل الله لإنقاذنا من بعض هموم لا تحتمل . كان السمع مرهفا والقلب خافقا لعلنا نسمع وقع أقدام الملاك ، لكن الساعات المملة قد مضت دون أن يحضر ، فابتدأنا نشك فى عناية الله واهتمامه بأولاده ، وفى فاعلية الصلاة ، وفيما اذا كان يحق لنا أن نطالب بتحقيق مواعيده حرفيا .

٣ - **آراء جزئية عن المسيح** « يوحنا سمع فى السجن بأعمال المسيح » . وكانت كلها خيرا ورحمة .

- ماذا فعل منذ كنتما هنا آخر مرة ؟

- وضع يديه على بعض المرضى وشفاهم ، جمع فى حضنه بضعة أطفال وباركهم ، جلس على الجبال وتحدث عن الراحة والسلام والبركة .

- حسن ، وماذا فعل غير هذا ؟

- لمست امرأة هدب ثوبه وارتعدت واعترفت بخطيتها ثم مضت معافة .

- حسن ، وماذا فعل غير هذا ؟

- كان هنالك بعض العمى فوضع يديه عليهم وأعاد اليهم بصرهم .

- هل هذا هو كل ما فعل ؟ ألم يستخدم الرفش لينقى الحنطة ، والنار ليحرق التبن ؟ هذا قد ما كنت أتوقعه ، وما تعلمت أن أتوقعه من أشعياء وسائر الأنبياء . لا أستطيع فهم هذا . لم أكن أتوقع هذه الحياة الهادئة الرقيقة الخيرة . لابد أن يكون هنالك خطأ ما . اذهبا واسألاه عما اذا كنا ننتظر آخر من طراز آخر يكون كالنار والزلزلة والعاصفة ، وفى نفس الوقت يكون كالصوت الهادىء الخفيف .

كانت ليوحنا آراء جزئية عن المسيح . لقد فكر فيه أن يكون فقط هو المنتقم من الخطية، خالق الثورة ، ديان الجميع المرهوب . لم يكن فى حسابه أية فكرة عن طبيعة السيد الرقيقة الحلوة الهادئة . وهكذا وقع فى بالوعة اليأس هذه لأنه عجز عن أن يدرك تمام الادراك ما قاله الله بفم أنبيائه القديسين منذ بدء العالم .

هذا أمر مؤسف جدا ، لكن ينبغي أن لا نكون قساة في لومه لئلا نلوم أنفسنا . أليس هذا هو ما نفعله ؟ فنحن نكون فكرة عن الله بعضها مما نتوهم عنه أنه ينبغي أن يكون، وبعضها مما استقيناه من آراء منحرفة من الآخرين ، وبعد ذلك نشك لأنه لا يحقق فكرتنا . فمثلا نحن نظن بأنه ان كان هنالك اله عادل فيجب لا يسمح بنصرة الظلم ولا يسمح للبريئين بأن يدوسهم الظالمون والمتغطرسون تحت أقدامهم ، ولا يسمح للاطفال الصغار بتحمل نتائج خطايا آبائهم ، ولا يسمح للبهائم بأن تعذب من أجل مصلحة العلوم الطبية . يقينا أن الله يجب أن يخرج من مكمنه ، ويفتح كل أبواب السجون ، ويطلق المسبيين أحرارا ، ويردد يديه بالبركة على كل الخليقة .

هذا ما نظنه وما نردده . ولذلك فأننا نشك متسائلين عما اذا كان الله فى علو سمائه لاننا نرى أن العالم لايزال يئن ويتمخض .

يكون الناس فكرة - كيوحنا - عن المسيح ، مؤسسة على بعض معلومات خاطئة عن الكتاب المقدس بأنه يجب ان يعمل بطريقة سبق أن ارتأوها ، يجب أن يعمل فى الرعد والعاصفة والنار . وعندما لا يحقق الله هذه الفكرة ، بل يتمم عمله برقة ولطف ، ويتكلم بنغمة هادئة عذبة ، ويؤسس ملكوته بين البشر على المحبة ، فانهم يتساءلون « هل هذا هو ؟ » .

(٢) إجابة الرب :

« وفى تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وادواء وأرواح شريرة ووهب البصر لعميان كثيرين » (لو ٧ : ٢١) . فى أثناء ساعات النهار الطويلة وقف التلميذان وسط الجماهير اذ كان طابور المرضى والمجانين البائسين يمرون أمام المخلص ، وقد اتوا فى ادوار المرضى المختلفة ، وينطلقون وقد نالوا الشفاء والخلاص . حتى الموتى كانوا يقامون . وإذ انتهى السيد من شفاء الجميع التفت اليهما ، وبنغمة رقيقة عذبة قال لهما « اذهبا واخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما . ان العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرن . وطوبى لمن لا يعثر فى » .

١ - **لقد كانت اجابة غير مباشرة** . لم يقل لهما : أنا هو الذى كان ينبغى أن يأتى ولا داعى لانتظار آخر . لو أنه قال هذا لكان قد اقتنع عقل يوحنا لا قلبه. بعد بضع ساعات كان لابد أن تضعف الثقة ويتساءل من جديد .

ربما يكون قد تساءل عما اذا كان يسوع نفسه قد خدع . ان السؤال يمهد الطريق لسؤال آخر دائما طالما كان القلب لم يقنع . لهذا رفض الرب الاجابة على السؤال بطريقة مباشرة مفضلا بالأحرى أن يسكن القلب الثائر المنزعج .

كان ممكنا لله - لو أنه أراد - أن يكتب بحروف نارية فى السماء هذه الكلمات « أنا هو الرب الاله . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى » . أو كان ممكنا أن يجعلها تضىء ثم تنطفىء لتضىء ثانية على طريقة الاعلانات النورانية التى تستخدم ليلا فى المدن الكبرى . هذه قد تذهل العقل لكنها لا تقنع القلب . لو كانت هذه هى طريقة الله لما تمتعنا بالبركة التى تحل على من آمن ولم ير ، ولما تمتعنا ببركة الانتظار حتى يزيل روح الله كل شكوكنا .

قد يقنع العقل وقتيا بما يرى من أدلة ، أما النفس والقلب والروح فانها تخسر المعرفة الحقيقية التى تأتى عن طريق الطهارة والايمان وانتظار الله - وهذه هى أعمق معرفة . وعلاوة على هذا فأنه لو قام واحد من الأموات ، وأتى للناس وقد انطبعت على وجهه رهبة رؤية العالم الآخر فانهم لا يؤمنون . أن براهين الأمور غير المنظورة الأبدية يجب أن تقدم لا للحواس الجسدية بل للنفس . يجب اتباع طريقة أخرى أعمق يجب أن يتعلم القلب أن ينتظر ويثق ويقبل تلك التعاليم والاعلانات التى تثبت الأيمان .

٢ - **وكانت الأجابة غامضة** . يقينا انه ان استطاع أن يفعل كل هذا لأمكنه أن يفعل ما هو أكثر . أن القوة التى شفت المرضى والعرج والعمى وأخرجت الشياطين تستطيع بلا شك انقاذ يوحنا . هذا جعل قلبه أكثر رغبة فى أن يسمع مظاهر القوة هذه . كان يجب أن يتعلم بأن الرب شفى هؤلاء المساكين بمنتهى السهولة لأن طبقة التربة الخفيفة لطبيعتهم لم يكن ممكنا أن تحتمل حصادا أوفر ، فنفوسهم لم تكن تحتمل الحرث العميق الذى لا يستخدم الا فى التربة العميقة . أما يوحنا فلأن نفسه كانت كريمة عميقة - اذ كان أعظم المواليد من النساء - ولأن طبيعته كانت قادرة أن تعطى أعظم الثمار فى فلاحة الله ، فقد ترك منتظرا ، بينما نال الآخرون البركة ومضوا الى حال سبيلهم بعد أن نالوا الشفاء . كان باقيا ليوحنا ثلاثة أشهر فقط ، وفيها كان يجب أن يعمل تأديب الصبر والشك عمله التام .

هنا كانت نقطة الخطأ معك . لقد ظننت ان الله كان قاسيا معك ، أنه ساعد كل شخص آخر سواك . لكنك لم تدرك ان طبيعتك كريمة جدا فى نظره ،

وثمينة فى عينيه ، ولذا فهى تستطيع أن تنمو الى أعلى درجات النمو . لم تدرك ان الله أحبك محبة زائدة جدا ولذا لم يطلق سراحك بالسهولة المنتظرة ، ولم يعطك ما طلبت ولم يخل سبيلك . كان ممكنا له أن يهبك البصر ، أن يشفى رجلك السقيمة ، ان يشفى ابنك ، ان يفتح أبواب سجن ظروفك . كان ممكنا أن يفعل كل ذلك ، لكنك سوف تشكره شكرا لا حد له لعدم اتمامه شيئا من هذا لأنك تستطيع شيئا آخر . لقد ظللنا ننتظر السنوات الطويلة ، لا لأن محبته قد نقصت ، بل لأنها قد زادت ، لا لأنه يرفض ما نسأل بل لأنه يجعلنا شركاء فى بركته عن طريق التدريب الطويل . كانت طبيعة يوحنا سوف تقدم شهيدا عن قريب وتربح أكليل شهيد . ألم يكن هذا مبررا كافيا فى أنه لم يعطه فى الحال الأنقاذ الذى طلبه ؟ .

٣ –**وكانت الأجابة كافية**. بالأضافة الى أعمال الرحمة التى صنعها الرب فأنه قد لفت نظر يوحنا الى الكلمات التى كان فى خطر نسيانها:« شددوا الأيادى المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها ، قولوا لخائفى القلوب تشددوا لا تخافوا . هوذا الهكم . الانتقام يأتى. جزاء الله. هو يأتى ويخلصكم . حينئذ تتفتح عيون العمى وآذان الصم تتفتح. حينئذ يقفز الاعرج كالايل ويترنم لسان الأخرس لأنه قد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر » (اش ٣٥ : ٣ – ٦) « روح السيد الرب على لأنه مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأعصب منكسرى القلب لأنادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالأطلاق » (اش٦١:١) .

لقد سعى الرب أن يقنع السائل بأن آراءه كانت جزئية ومحدودة ، وأنه يجب ان يزداد تعمقا فى درس أسفار العهد القديم . وكأن يسوع قد قال لهما « اذهبا الى معلمكما وقولا له أن يرجع الى النبوة القديمة ويدرسها . لقد حصر تفكيره فقط فى النبوات العنيفة وترك الهادئة الخفيفة اللطيفة . صحيح اننى يجب أن أعلن يوم الانتقام ، لكن يجب أولا أن أنادى بسنة الرب المقبولة . صحيح أيضا اننى يجب ان أتى كعظيم وذراعى تحكم لى ، لكنه صحيح أيضا اننى يجب ان أرعى قطيعى كراع وأجمع الحملان بذراعى وفى حضنى أحملها وأقود المرضعات (اش ٤٠ : ١٠ و ١١) .

إننا نرتكب نفس الخطأ . اننا لم نكون سوى فكرة جزئية عن المسيح ، ونحن نحتاج للرجوع من جديد الى الكتاب المقدس ودراسة كلماته الرائعة من

جديد . وعندئذ نفهم أن الوقت الحاضر هو وقت استتار قوته ، وقت الأنتظار ، وقت الخدمة الرقيقة . سوف يشهر سيفه يوما ما ، سوف ينقى بيدره يوما ما سوف يركب مركبة نارية يوما ما ، يوما ما سوف يجلس على كرسيه ويدين الذين يظلمون الأبرياء ويسحقون المساكين ، اننا لم نر بعد عاقبة الرب ، ولم تقدم إلينا بعد كل الأدلة ، وهذه هى غلطتنا .

لكن مخلصنا يقدم الينا كل يوم أدلة عن قدرة محبته ولاهوته . فى الأسبوع الماضى رأيته يقيم الموتى ، أمس رأيته بعينى يحطم سلاسل سجين ، فى هذه الساعة يهب البصر للعميان ، غدا سوف يخرج الشياطين . إن العالم ملىء بالأدلة على قوته الرحيمة الألهية .

ليست هى أدلة بارزة ومبهرة النظر كأعمال الغضب والانتقام ، لكنها تحتاج الى العين الثاقبة لتراها والقلب النقى ليميزها ، ومع ذلك فأنها ليست أقل قوة فى اظهار هذه الحقيقة : وهى أن ذاك الذى مات حى وسوف يبقى حيا الى أبد الآبدين . هذه الأدلة تكفى لتبين بأن وراء الحجاب الها حيا « بحسب قوة حياة لا تزول » (عب ٧ : ١٦) ، وذلك ليس بسبب التغييرات العجيبة التى تتم فحسب بل أيضا بسبب صفاتها الأدبية .

(٣) طوباوية جديدة :

« طوبى لمن لا يعثر فى » لقد وضع الرب فى متناول المعمدان النبيل بركة أولئك الذين آمنوا ولم يروا ، الذين يثقون فيه ولو قتلهم (١) ، الذين يعرفون كيف ينتظرون الرب، والذين يثقون فيما يعرفونه عن قلبه ولو لم يستطيعوا أن يدركوا كل تصرفاته.هذه هى بركة من لا يعثرون فى غوامض تصرفات الله فى حياتهم.

هذه الطوباوية فى متناول أيدينا نحن أيضا . هنالك أوقات نعجز فيها عن فهم غوامض الحياة والطبيعة .

والعالم ملىء بالألم والحزن ، والصوت الصارخ المعبر عن حاجته يبعث الحزن والكآبة ويكسر القلب . والسعى يبدو أنه للخفيف فقط والحرب للذين بعناية خاصة قد تحدروا من أصل قوى ولو لم تكن قوتهم القوة الأدبية أو الروحية . وان كان الباعث على ألم العالم وحزنه هو الشر فلماذا تئن الطبيعة وتتمخض ؟ لماذا تنهمك الخليقة فى الحرب المروعة حبا فى البقاء ؟

---

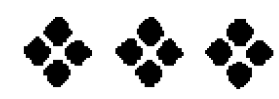
(١) « هوذا يقتلنى . لا انتظر شيئا » (أى ١٣ : ١٥) أو « أنه ولو قتلنى ابقى آملا له » حسب ترجمة اليسوعيين ، أو « انه ولو قتلنى أبقى واثقا فيه » حسب الترجمة الانكليزية .

ان أولاد الله هم الذين يعانون أمر الآلام في بعض الأحيان. فالنيران تحمى لهم سبعة أضعاف . قد تعين لها أيام التعب وليالى الألم . وهم لا يتألمون على يدى الانسان فحسب ، بل يبدو كأن الله قد تحول لهم عدوا .

والسماء تبدو كأنها تحولت نحاسا أمام صراخهم ودموعهم ، فيجد العدو فرصة ليعيرهم قائلا « أين هو الهكم » ؟ واذ تمتلىء الكأس فى ايام كهذه تنبعث منهم هذه الصرخة الداوية « الى متى يارب الى متى ؟» .

كثيرا ما جزت أيها القارىء وجزت انا أيضا ظروفا أليمة كثيرا ما قلنا « هل نسى الله رأفة أو قفص برجزه مراحمه » (١) (مز ٧٧ : ٩) . من بيت السجن قد نبعث الى أخينا فى المجد هذه الرسالة « أعنا لأنك ان تركتنا لنلقى مصيرنا تساءلنا عما اذا كنت أنت هو » . وبهذا نجرب بأن نعثر ، ونصبح على وشك السقوط بسبب غموض معاملات الله لنا ، ونكون أقدر على فهم موقف زوجة أيوب عندما قالت لزوجها « بارك الله ومت (٢) » (أى ٢ : ٩) .

وعندئذ تكون لنا الفرصة أن نرث طوباوية جديدة ، أننا اذ نرفض الخضوع ليد الله المقتدرة ونتساءل ونحتدم غضبا ونتذمر نفوت على أنفسنا الباب الذى يقودنا الى الغبطة الغنية والسعادة الحقيقية ، أما ان هدأنا ، وسكتنا أنفسنا كفطيم ، ودهنا رؤوسنا وغسلنا أوجهنا ، أشرق النور علينا ، وحفظ سلام الله الكامل قلوبنا وأفكارنا ، ودخلنا الى السعادة التى كشفها الرب أمام عينى سابقه الأمين .



---

(١) « أنسى الله الرأفة أم حبس على الغضب احشاءه » حسب ترجمة اليسوعيين ، أو « هل نسى الله ان يكون رؤوفا أم حبس مراحمه فى غضب » حسب الترجمة الانكليزية .

(٢) أو « جدف على الله ومت » حسب ترجمة اليسوعيين ، أو « العن الله ومت » حسب الترجمة الانكليزية .

- ١٢ -

لم يقم أعظم من يوحنا المعمدان ولكن ..

(مت ١١)

افحص قلبك فقد تكون علة تألمك من
غيرك هى فى داخلك كل تراب ضعيف
وكل جسد ضعيف فكن أنت الرجل المثالى
الذى تنشده ان الأرض التى تطأها الآن
متألما قد وطأها أقدس قديسى الله والنور
الذى ارشدهم لا زال يضىء لكى يبين لك
أين وضعوا أقدامهم

(هويتير)

لما كان تلميذا يوحنا واقفين أمام الرب لم ينطق بكلمة مدح واحدة عنه ، لكن حالما تركاه انفتحت أبواب قلبه وبدأ يتحدث مع الجموع عن خادمه الأمين . وكأنه لم يشأ أن يقدم اليه فرصة لينتفخ أو يتكبر بسبب ما قاله . لم يشأ أن يضيف على تجاربه تجربة فى تلك الساعات الموحشة .

يتكلم البشر بالناعمات فى وجوه بعضهم البعض ، ويتكلمون بأقذر الألفاظ من وراءهم . لكن ليس هذا هو الحال مع المسيح . فأنه ينطق بأكرم كلمات المديح لما لا نكون أمامه لنسمعها . قد لا يقول لك المسيح أبدا كم هو يحبك ويقدرك ، لكنك عندما تكون هنالك فى سجنك ، بقلب كسير ونفس كئيبة ، فانه يتكلم عنك ويفكر فيك بالعظائم وأنت هنالك .

(١) الوقت الذى اختاره الرب لمدح المعمدان :

لقد نطق الرب بأعظم كلمات المديح والتقدير عندما وصل يوحنا الى مستوى أدنى من مستواه العادى ، عندما كان فى حالة الضعف .

« لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان »

– لكن هل تعنى حقا أيها الرب القدوس أن هذا الشخص أعظم المولودين من النســاء ؟

– فاجاب المسيح على الفور : لا شك فى هذا .

– لكنه قد تساءل عما اذا كنت أنت هو المسيا .

– أنا أعلـم هــذا .

– كيف تقول انه يماثل موسى واشعياء ودانيال ؟ هل شك فيك هؤلاء كما شك هو ؟ وكيف تقول انه ليس قصبة تحركها الريح مع انه الآن فقط أعطى علامة واضحة كل الوضوح على أنه قد عصفت به عواصف الشك واليأس ؟

فأجاب السيد : ان السماء لا تحكم بمقتضى العواطف العابرة بل بمقتضى حيـاة المرء بصفة عامة ، لا بمقتضى عبارة شك قد بعثتها حوادث يمكن تعليلها ، بل بمقتضى نفس الانسان التى فى داخله ، والتى لى أعمق من العواطف كما أن قلب المحيط أعمق من الأمواج التى على سطحه .

نعم ان الرب يحكم علينا بمقتضى ما هو أعمق وأثبت فى داخلنا ، بمقتضى المثل الأعلى الذى نحاول أن ندركه ، بمقتضى ما تقرره النفس وتختاره ، بمقتضى برعم الامكانيات الذى لم يتفتح بعد ولم يدرك بعد حتى بواسطتنا نحن أنفسنا .

هنالك مثل مشابه لهذا الحادث فى العهد القديم . عندما نلتقى فى بداية الأمر بجدعون الابن الأصغر ليوآش الابيعزرى نجده فى موقف ليس له شأن عظيم ، نجده يخبأ حنطه فى المعصرة لكى يهربها من المديانيين الذى كانوا يلتهمون محصول كل المملكة . لم تكن هنالك غلطة أدبية فى الأفلات من الجواسيس المديانيين الساهرين ، وفى نقل الحنطة من الخلاء حيث يذرى الريح التبن بسهولة ، الى مكان محصور غير لائق كالمعصرة . لكن لم يكن هنالك فى نفس الوقت فى هذا المنظر عمل جليل أو ذو شأن خطير . ومع ذلك فأن ملاك الرب عندما ظهر اليه قال له « الرب معك ياجبار البأس » .

جبار البأس ! اننا أولا نجد عدم تناسب بالمرة بين هذه التحية العظيمة وبين سلوك الرجل الذى وجهت اليه . والنظرة الأولى لهذه التحية تعطى فكرة أنها مبالغ فيها جدا . لكن الحوادث التالية تبرهن على أنه كان جديرا بكل حرف

فيها . فقد كان جدعون جبار بأس ، وكان الله معه . لقد قرأ الملاك ما كانت تخبئه الحادثة الظاهرية العابرة ، ورأي من وراء مظهر الرجل الخشن بطلا عظيما كان ينتظر أن تكشف الأيام عن حقيقته .

أليس هذا في الواقع هو ما قصده الرسول حينما قال ان الأيمان يحسب لنا برا؟ ويملء المعنى نحن نعرف بطبيعة الحال ان كل من يؤمن بيسوع تحسب له كل بركات عمله المجيد، ولذا فأننا نقبل في المحبوب وهو يعير لنا برا (١كو١:٣٠) .

لكن هنالك معنى آخر بمقتضاه يحسب لنا الإيمان برا لأنه يتضمن في داخله قوة الحياة الكاملة . هو الحياة التي في البذرة التي يخرج منها في الوقت المناسب النبات والزهور والبرعم والبذور . ويتكاثر النبات الى ما لا نهاية . لقد حسب الله لإبراهيم كل ما كان في إمكانية إيمانه أن يقدم ، وكل ما قدم ، وكل ما كان ممكنا أن يقدم لو كانت له كل إمتيازات العهد الجديد التي نتمتع بها نحن ، إذا فهنالك الموضوعي وهنالك الذاتي ، وبفضل الأول يحسب لنا كل بر المسيح عندما نؤمن به . وبفضل الثاني يحسب لنا الله كل الثمار التي في إمكان إيماننا عندما يعمل الصبر عمله التام ونكون نحن تامين وكاملين غير نقصين في شيء (يع ١ : ٤) .

(٢) النواحي البارزة في صفات وخدمة يوحنا التي لفت الرب النظر إليها .

١ - **ثباته** . « ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح ؟ » تمتاز لغة الكتاب المقدس بأنها مليئة بالتشبيهات الطبيعية لدرجة أنها تنطبق على كل عصر ، وتتكلم بكل لسان في العالم . لو كان وصفه للأخلاق قد أعطى في لغة الفيلسوف أو رجل العلم لأصبح ما كان مفهوما في عصر ما مربكا ومحيرا أو بلا معنى لعصر آخر ، فالعلم في تقدم مستمر بل في تغير مستمر لكن كلمة الله تستخدم التشبيهات الطبيعية والأمثلة الطبيعية التي يفهمها رجل الشارع في لحظة ولو كان غبيا .

فمثلا من ذا الذى لم يشهد الريح تهب في يوم عاصف فتضطر قصب الغاب الى أن يميل في إتجاهها ؟ هل تستطيع قصبة واحدة أن تقاوم الريح أو تتحداه فتقف منتصبة ؟ كلا ، بل الكل تخضع أمامه كخضوع عبيد الملك - الذين كانوا في باب الملك - أمام هامان المتغطرس كلما دخل القصر الملكي .

وهكذا عندما سأل الرب الشعب ان كان يوحنا يشبة قصبة تحركها الريح ، وكان المفروض أن تكون الإجابة سلبية ، هل كان ممكنا أن يصف بايضاح أكثر من هذا صفة من أسمى صفات يوحنا - صفة تفرده العجيب وعدم مشاكلته للوسط ، وعزمه على إتباع نموذج الحياة الذى أعلنه له الله ؟ إنه فى هذه الناحية يماثل نحميا الصالح عندما أشار إلى ما كان يفعله عادة الولاة الذين كانوا قبله ، وقال «أما أنا فلم أفعل هكذا من أجل خوف الله» (نح ٥: ١٥) ويماثل الفتية الثلاثة الذين وقفوا ثابتين ولم يسجدوا لتمثال نبوخذ نصر الذهبى الذى سجد له عشرات الألوف. إنه بتفرده فى لبسه وطعامه، وتفرده فى رسالته ومطالب معموديته ، باستقلاله عن معلمى الدين ومدارس عصره ، ورفضه أن يهادن الخطايا الشائنة التى سادت طبقات المجتمع المختلفة ، ولا سيما توبيخه هيرودس من أجل خطيته - قد برهن على أنه يماثل بلوطة قوية من بلوط باشان ، أو ارزة متأصلة من ارز لبنان ، وليس كقصبة تحركها الريح .

منذ ذلك الوقت تبعته نفوس أمينة كثيرة فى هذا الطريق الوعر الفريد . والواقع انه الطريق العادى لأغلب النفوس الأمينة فى هذه العصور المسيحية . لا أقول هذا عن الجميع ، لأن البستانى الأعظم يضع زهوره فى أماكن مسيجة ، لكن لا شك فى أن معظم الأشجار التى غرستها يمينه لم تزرع فى الأماكن المسيجة ، بل تواجه الريح العاصفة متحدية أياها فى الخلاء .

أيها القارىء العزيز لا شك أنك تعجب بشخصية المعمدان ، لكنك تشعر بعدم القدرة على الأقتداء به . عندما يتخذ رفقاؤك وأصدقاؤك أحاديث شائنة عن شخص تحبه ، عندما يتبادل أقرانك أحاديث دنسه ، عندما تهب عاصفة من البغض والحقد ضد قضية أنت تعطف عليها فى قلبك ، فأنك تجده من الأيسر أن تنحنى أمام العاصفة مع كل قصبة أخرى تحيط بك عن أن تقف وحيدا متحديا الجميع . ومع ذلك فإن القصبة التى دفعها الجند فى يد المسيح قد تتحول الى قضيب من حديد يحكم به الشعوب .

إنه يستطيع أن يأخذ أكثر الشخصيات مرونة ولينا ورخاوة ويجعلها كأرميا «مدينة محصنة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض». أنت لا تستطيع أن تفعل هذا،لكن الله يستطيع .هو يؤيدك ويعينك ويعضدك بيمين بره (اش٤١:١٠) . فثبت نظرك نحوه لكى يعلم يديك القتال وأصابعك الحرب (مز ١٤٤ : ١) لأنك حينئذ تستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقويك .

٢ - **بساطته** . وجه السيد سؤالا آخر الى الشعب عمن خرجوا الى البرية لينظروا . وبسؤاله هذا كان يعنى أن يوحنا لم يكن شخصا مترفها ، يلبس الثياب الناعمة ويولم الولائم ، بل كان شخصية قوية طاهرة تعلمت سر أنكار الذات وضبط النفس . يميل الكثيرون منا الى لبس الثياب الناعمة أى التنعم والبذخ ، نحن عبيد تقليد المجتمع ، أو على الأقل نحن بصفة مستمرة نهتم بما نشرب وبما نلبس ، أو نتصرف كأن الحياة تنحصر فى مقدار مانملك وتعدد الخدم الذين يقومون بخدماتنا . بينما العكس هو الصحيح . فالسعادة الحقيقية لا تقوم فى زيادة ممتلكاتنا بل فى تحديد إحتياجاتنا .

إننى أوجه الحديث الى الشباب من أخواتى القراء الذين لا يزال فى متناول أيديهم بنيان حياتهم ، وأقول لهم من كل قلبى : تعلموا أن تستغنوا عن الثياب الناعمة والخدم الكثيرين الذين تتميز بهم قصور الملوك ، لا تهموا ألا بأبسط الأطعمة . بالأطعمة التى تمد الجسم بالتغذية والقوة ، ولا تفكروا فى أشباع شهوة النظر أو المذاق .

حاول صديق شاب أن يمنعنى يوما ما عن تناول نوع من الخبز معروف عنه أنه أكثر تغذية ، فهو خبز اسمر مصنوع من الحنطة بكامل عناصرها ، وأراد أن يقدم الى نوعا أخر من الخبز الأبيض الخفيف ، أحلى مذاقا ، لكنه تجرد من كل ماهو مغذ .

هذا هو الذى جعل دانيال يفضل القطانى على أطايب الملك بمنتهى الحزم وقوة الإرادة والذى جعل المعمدان يفضل الجراد والعسل البرىء ولاحظ هنا أنه لم يكن هنالك شىء من عدم اللياقة فى أكلة العسل. فنحن لا يطلب منا أن نرفض أطعمة معينة لأنها حلوة المذاق ،بل المفروض أننا لا نختارها لأنها حلوة المذاق.

وهكذا الحال مع الملابس . فالسيد لا يطلب منا أن نلبس ملابس قبيحة ، أو أن نلفت النظر بقبح ملابسنا أو غرابتها . بل يجب أن نلبس ملابس لائقة وتتناسب مع المركز الذى نشغله . لكن هنالك فرق عظيم بين حصر إهتمامنا فى ملابسنا وبين الإهتمام أولا وقبل كل شىء بارتداء النفس بالفضيلة والوداعة والحق والطهارة وأنكار الذات . ان الذين يهتمون بهذه يمكن أن يؤمنوا على وضع الأخر فى الموضع اللائق .

وعلى العموم ان النفس المكرسه تكريسا حقيقيا يجب أن تهتم بالبساطة . يجب أن لا تحاول لفت الأنظار بالألوان الزاهية أو المظاهر الجذابة . يجب أن

لا تهتم بتنوع الملابس ، بل تكتفى بما يلزم حقيقة لسد حاجيات الطقس والصحة . يجب أن لا تفكر فى منافسة الأخرين فالملابس تستعمل لمنفعتها لا للفخر والكبرياء والخيلاء يجب أن نولى ظهورنا للملابس الناعمة التى تضعف الصحة ولا تمكننا من مد أيدينا لمساعدة المحتاجين فى معترك الحياة .

وهكذا الحال مع الخدم . فإنه لا يليق بنا أن نعتمد على الأخرين . لكن أن سمحت لنا الظروف بأن نحاط بالخدم وجب علينا أن نقبل خدمتهم بروح العطف والشفقة . ويجب أيضا أن لا نسمح لأنفسنا أبدا بأن نتكل عليهم الإتكال الكلى ، بل لنتعلم كيف نؤدى كل شىء لأنفسنا ، وان نكون مستعدين لتأدية كل شىء إذا اقتضى الأمر .

وطبيعى إنه من الضرورى للبعض منا أن يكون لهم خدم لكى نتفرغ نحن لتأدية أعمالنا الخاصة . لأنه لا شىء يدعو الى الأسف أكثر من أن يضيع ذو المواهب العالية أوقاتهم وقوتهم فى تأدية أمور تافهة يمكن أن يؤديها غيرهم جيدا . تأمل فى طبيب مزدحمة عيادته بالمرضى الذين يحتاجون الى خدمته التى لا يستطيع شخص أخر تقديمها ، يصرف ساعات الصباح الثمينة فى الخدمات المنزلية التافهة وتلميع حذائه وإعداد طعامه . أليس الأولى أن تترك هذه لمن لا يستطيعون إتمام الخدمات الجوهرية التى دعى هو إليها ؟

هذا هو سر الإنتفاع بأكبر قسط ممكن من الحياة. أعرف ماذا تستطيع أن تجيده - الأمر الوحيد الذى دعيت لتؤديه للآخرين، والذى قد لا يجيده شخص أخر غيرك . خصص نفسك له تاركا لبعض المساعدين المتطوعين أو المأجورين كل ما يمكن أن يؤدوه مثلك أو أفضل منك. بهذه الروح قال الرسل « لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد فانتخبوا أيها الأخوة سبعة رجال .... فنقيمهم على هذه الحاجة ، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الرب الكلمة » (اع ٦ : ٢ - ٤) .

أنها لتجربة فى الشرق بصفة خاصة - حيث يعمل الطقس على هد الأعصاب ، حيث يكثر الخدم وتقل أجورهم - أن تطلب الثياب الناعمة ويستخدم العدد الوفير من الخدم ، والذى يحدث أن الثياب الناعمة ووفرة الخدم كثيرا ماكانت مبعثا للهم . والتجربة محيطة بنا بصفة مستمرة . وخليق بنا ندقق البحث فى حياتنا من وقت لأخر للتأكد من أن روح النشاط لا يفتر

أو يتلاشى دون أن نشعر كما حدث لجنود هانيبال فى سهول كابوا . إن كان هذا هو الحال فاعزم على أن تستغنى عن الخدم للإحتفاظ بقوتك وبساطتك .

٣ - **مركزه النبيل** . « لكن ماذا خرجتم لتنظروا . أنبيا نعم أقول لكم وأفضل من نبى » . ليست هنالك مهمة أشق من تقدير الناس وهم لا يزالوا أحياء . طالما كان سحر شخصيتهم باقيا ، وموسيقى أصواتهم ترن فى الجو ، فأننا نميل الى المبالغة فى تقدير قيمتهم . طالما كنا قريبين من الجبل فأننا نرى قممه عالية جـدا فوقـنا حتى نظن أنه أعلى الجبال . لكن عندما نبتعد عنه يتغير حكمنا عليه .

أما فى حالة المعمدان فإن الأجيال التى أتت بعد المسيح المخلص لم تستطيع أن تغير فى وجهة نظره نحو تقديره له (أى للمعمدان) بل بالعكس أيدتها . أننا نستطيع أن نعتبره من بين أصفياء الله . فقد كان نبيا ، بل وأعظم من نبى . لقد كان ملاك الرب (حسب تعبير ملاخى) ، المبشر بمجىء الملك . كان آخر الأنبياء ، لأن جميع الأنبياء والناموس الى يوحنا تنبأوا . كان المبشر بالعهد الجديد الأعظم الذى فتح هو أبوابه لكنه لم يسمح له بدخوله .

لكن الرب ذهب الى مدى أبعد ، ولم يتردد عن أن يعتبر يوحنا بين أعظم مواليد النساء . لقد كان بلا شك فى المقدمة . ربما كان له نظراء ، لكن لم يتفوق عليه أحد . نحن لا نستطيع ولا بجرؤ على تعيين الشخص الذى نماثله به . لكن لعل إبراهيم وموسى وبولس يمكن مقارنتهم به . « لم يقم أعظم من يوحنا المعمدان » . لم يضىء نجم فى السماء ألمع من هذه الحياة القصيرة التى لم تعط الا فرصة وجيزة لتعلن مجىء الرب . وبعد خدمة فى نهر الأردن لم تزد على ستة شهور ، تلاها أثنا عشر شهرا فى السجن ، أنطفأت هنا لكى تضىء هنالك فى مجد لا ينطفىء .

كان هنالك اكرام آخر أغدقه الرب على عبده الأمين . كان ملاخى قد تنبا قبل ذلك الوقت بقرنين أو ثلاثة أن إيليا النبى سوف يرسل قبل مجىء يوم الرب العظيم المرهوب . وكان اليهود ينتظرون قدومه بصفـة مستـمرة . بل أنهـم لا يزالون الى اليوم يضعون له كرسيا فى ولائمهم الدينية . وهذا هو معنى سؤالهـم للمعمـدان فى بدء خدمته عما إذا كان هو إيليا . لقد رفض - كما رأينا - أن يتخذ أسما عظيما كهذا ، ولكن لو كان قد سئل عما إذا كان قد جاء بروح إيليا النبى العظيم وقوته لما تجاسر على الأجابة عن السؤال بالنفى .

لكن الرب هنا تخطى إحتشام يوحنا واتضــاعه وإنكاره لذاته وصرح قائلا « وان اردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا النبى المزمع أن يأتى » . عندما نزل من جبل التجلى عاد نفس الموضوع « فسألوه قائلين لماذا يقول الكتبة ان إيليا ينبغى أن يأتى اولا . فأجاب وقال لهم ان أيليا أيضا قد أتى وعملوا به كل ما إرادو كما هو مكتوب عنه » (مر ٩ : ٩ - ١٣) .

(٣) تحفظ السيد :

والآن لنرجع الى كلمات الرب الخالدة « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمـدان ولكن الأصـغر فى ملكوت السـموات أعظـم منه » (مت ١١ : ١١) .

لقد لمعت عظمة يوحنا المعمدان بجمال رائع فى إعترافه الوديع بحقارته . أنها دائما لعلامة على أقصى درجات المعرفة عنـدما يعـترف صاحـبها أنـه لا يزال طفلا يلتقط المحار على شاطىء محيط لا حد له . وقد تجلت عظمة المعمدان فى تواضعه فى تقدير نفسه .

عنـدما لخـص يسوع المسيح صفات نفسه قال « إنى وديع ومتواضع القلب » . وبهذا عبر عن صفات الله لأنه أعلن الله فى شخصه ، وهو « بهاء مجده ورسم جوهره » . كان هو « الله ظهر فى الجسد » . لم يكن هو إبن الله فقط بل كان الله الأبن « من رآنى فقد رأى الآب . أنا والآب واحد » .

لقد ظهرت عظمة يوحنا فى هذا أنه كان وديعا ومتواضع القلب مثل ربه . لم يقم قبله أو بعده أى بشرى برزت فيه هذه الصفات الألهية أكثر منه . لم تخرج من فم أى إنسان كلمات أسمى من إجابة يوحنا لتلاميذه « لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً ان لم يكن قد أعطى من السماء . ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص » (انظر كل الفقرة يو ٣ : ٢٧ - ٣٦) .

لقد تحلى يوحنا بنفس روح الوداعة الذى كان فى ربه عندما « ترك اليهودية ومضى أيضا الى الجليل » (يو ٤ : ١ - ٣) لما علم أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصير ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا . مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمـد بل تلاميذه . كان ممكنا أن تتخـلص الكنيسـة من كل إنقساماتها لو أن شعبها اقتدوا بربهم .

لكن لم يوجد شخص - حتى الرسولان يوحنا وبولس - اتفقت روحه تماما مع روح السيد مثل خادمه الأمين يوحنا المعمدان . وإذا يصح القول إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم منه .

لكن ماذا كان فى فكر الرب عند وضع هذا التحفظ « ولكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه » . يقال ان الرب كان يتحدث عن يوحنا ، ليس كانسان فحسب ، بل كنبى ، وان هذا التصريح ينطبق على يوحنا كنبى بصفة خاصة . يؤيد هذا الرأى قول لوقا البشير « ليس نبى أعظم من يوحنا المعمدان » (لو ٧ : ٢٨) . واذا أضفنا كلمة « نبى » لتلك الآية إزدادت وضوحاً « ان أصغر نبى فى ملكوت السموات نبى أعظم منه » . استطاع يوحنا أن يقول « هوذا حمل الله » . لكن الأصغر فى الذين إذ تشتتوا ذهبوا فى كل مكان يذيعون كلمة الملكوت كرز بيسوع والقيامة .

هنالك طريقة أخرى لتفسير كلمات المسيح . لقد فتح يوحنا الباب لدخول الملكوت لكنه لم يدخله . لقد أذاع أنباء عن حياة البركة ، لكنه لم يسمح له بنصيب فيها . ويقول الرب أن الوجود فى ذلك الملكوت يهيىء الفرصة للوصول الى عظمة لا يصل إليها العظماء الخارجون عنه . هنالك عظمة تأتى من الطبيعة وأخرى من الظروف . ان الطفل على الجبل أعلى من أطول رجل فى الوادى . والولد الصغير فى مدارسنا القروية يعرف عن بعض المواضيع أكثر مما عرفه سقراط أو كونفوشيوس أعظم حكماء العالم . وأصغر متعلم فى ملكوت السموات يتميز برؤية وسماع الأشياء التى أشتهى أنبياء وملوك ان يروها ويسمعوها ولم يسمح لهم . وأصغر شخص فى العهد الجديد الأسمى يعرف ويفهم أكثر مما عرفــه وفهمــه أسمى من وجدوا فى العهود التى سبقته .

ألا يمكن أن تكون هنالك معان أخرى ؟ لقد كانت صفات يوحنا قوية وعظيمة . كانت له الشجاعة والعزم والإرادة الحديدية ، بلغت نفسه من السمو ما مكنه من الإتصال بغير المنظور الأبدى . كان يستطيع أن يرتفع إلى درجات عظيمة الإرتفاع ويتعمق الى درجات عظيمة العمق . كان فى مقدروه الاتصال بالله الأبدى كانسان يتحدث مع صاحبه .

لكن هذا هو المثل الأعلى للصفات ؟ هل هذا هو أقصى ما يتمناه المرء ؟ كلا ، ولعل هذا ما كان ماثلا فى ذهن المخلص عندما وضع هذا التحفظ . ان كان قد أتى لا يأكل ولا يشرب ، وظهر عابسا ومتصوفا ووحيدا ، وعاش بمعزل عن مساكن الناس ، ووبخ خطايا الأخرين بعنف وقسوة ، فإن هذا ليس هو المثل الأعلى لأخلاق البشر .

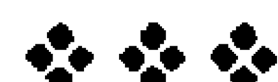
كان هنالك ما هو أسمى كما بدأ فى حياة الرب على الأرض . فيه توازنت كل الصفات . لقد توازنت القوة التى تستطيع التحدث مع الله مع الرقة التى تدخل بيوت البشر وتمسح دموع الحزانى ، وتقدم بلسان التعزية لكل كسير

القلب ، وتشفق وتلاطف ، وتعلم وترشد ، وتعرف لا أن تتحدث مع الله فى البرية فقط ، بل تقدمه الى أحط طبقات البشر وإمكنتهم .

هذا هو المثل الأعلى للأخلاق الخليقة بملكوت السموات . وقد توضحت أكثر فى التطوبيات المنقطعة النظير التى تطوب لا الخشن الملبس بل الحلو والرقيق ، المتواضع والوديع ، وتطبع أرق قبلات السماء على الفضائل التى تجد لها مجالا فى صفات المعمدان القوية الصلبة .

نعم أن القلب الوديع المتواضع يستطيع الحصول على أكثر مما حصل عليه يوحنا أو علمه . يستوى فى هذا الهادىء المستكين مع النشيط ، النساء مع الرجال ، ذو القوة على أن ينتظر ويصمت مع السريع الحركة المندفع ، من يرتضى بصليب العار مع من يمتلىء عرش القوة .

وإن كنت الأصغر فى ملكوت السموات فيمكن أن يكون كل هذا لك بواسطة الروح القدس الذى ينقل طبيعة إبن الإنسان الى القلب الذى يحبه بالحق . « الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه » .



السراج الموقد المنير

(يو ٥ : ٣٥) (١)

ان البشر كبشر لا يمكن أن يسموا على إبن الله الذى هو المثل الأعلى للإنسانية ان الوقت متصر ويكفينا أن نعيش له ونموت له وفيه نرى إبرز صفة لامعة « مكمل بالآلام » وهى ختم خلاصنا مرسومة على جبين ناسوته

(مدام هاملتون كنج)

كان يسوع وقتئذ قد وقف موقف المتهم ، فقد تحداه قادة الدين ، لأنه تجاسر على شفاء إنسان فى يوم السبت ، وآصدار الأمر له بأن يحمل سريره (حصيرته) . وإذ وجه إليه الإتهام قدم دفاعه .

وطبيعى أننا ينبغى أن لا نتوهم لحظة بأن ربنا قد تراخى فى حفظ السبت . لكنه إنما أراد أن يحرر اليوم من القيود والأثقال غير المحتملة التى أحاط بها قادة اليهود هذا اليوم . لقد أراد أن يبين بأن السبت جعل لأغراض نافعة سيما أعمال الرحمة والخير والشفقة . لقد أضطهد الرب يسوع واسيىء إليه لأنه حرر السبت من الآراء السخيفة الغبية عن القداسة .

إنه لأمر جوهرى جدا أن نبذل أقصى جهدنا لحفظ يوم من أيام الأسبوع السبعة فى بلادنا بل فى كل العالم كيوم راحة وإننى لن أنسى كيف حرص ذلك السياسى المسيحى العظيم الذى رحل عنا أخيرا - كيف حرص على حفظ ذلك اليوم من أى عمل غير ضرورى . وقد شهد الذين عرفوه معرفة جيدة كيف كان يوم الرب له بركة عظيمة جدا جسديا وعقليا وروحيا .

لتكن راحتك فى يوم الراحة هذا ، لا بالتسكع كسلا هنا وهنالك ، ولا بقتل الوقت ، بل بتحويل مواهبك فى إتجاه آخر ، لأن الراحة الحقيقية لا تتضمن فى الكسل والبذخ ، بل فى إستخدام مواهبك فى ناحية أخرى من نواحى

---

(١) « كان هو (يوحنا) السراج الموقد المنير وأنتم إردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة » .

العقل الذى انهكته مطالبالستة الأيام السابقة . أنت إذ تقضى بعض الوقت فى مدرسة الأحد والعبادة فى الكنيسة وسماع للعظات تعود الى عملك مجدد القوة .

هنالك فرق كبير من الكلمتين « موقد » و« منير » . فالانارة تعنى الإضاءة بواسطة النور المنبعث من فتيلة السراج الموقدة . لكنها لا يمكن أن تنير ان لم توقد (تحترق) . فالشمعة التى تنيرتفنى قليلا فقليلا وهى تعطى النور . وفتيلة سراجك التى تنقل الزيت الى شعلة النار تتفحم ، وينبغى أن نقصها قليلا فقليلا الى أن تفنى عن أخرها . فيجب أن لا ننسى أبدا إننا إن أردنا أن ننير يجب أن نحترق . يود الكثيرون منا أن ينيروا لكنهم غير مستعدين لدفع النفقة التى يجب أن يتحملها كل رجل صادق يريد أن ينير زمانه . يجب أن نحترق قليلا فقليلا الى أن لا يبقى من الفتيلة ســوى مليمترات ، وعنـدئذ ينطفىء النــور . « السراج الموقد المنير » .

إذا يتضح من هذا أننا أولا نرى تشبيه يوحنا بالشمعة أو السراج ثم نرى الإنفاق الضرورى ، أى الأحتراق للانارة ، ونرى ثالثاً إساءة إستعمال الناس للفرص التى بين أيديهم .

(١) تشـبيه الرب :

« كان هـو (يوحنـا) السراج الموقـد المنير » . أو « النــور الموقـد المنير » (حسب إحدى الترجمات) يخبرنا الرسول يوحنا فى الإصحاح الأول من أنجيله إذ يتحدث عن المعمدان أنه لم يكن هو النور ، لكنه إنما كان قد أرسل ليشهد للنور لكى يؤمن الكل بواسطته (أى بواسطة يوحنا) . « كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان أتيا الى العالم » (١) .

ان يسوع المسيح هو نور العالم . وإننى أعتقد أنه فى كل جيل ينتظر لكى ينير قلوب وأرواح البشر ، مذكرا أيانا بالتعبير الوارد فى سفر الأمثال والبارز جدا « نفس الإنسان سراج الرب » (أم ٢٠ : ٢٧) .

هنا سراج وفيه فتيلته لكنه غير منير . قد يكون الجو مليئا بالضوء لكن الفتيلة لم تجد الثقاب الذى يشعلها فتضىء . لكن إذا ما مسها الثقاب تجمع النور حول الفتيلة التى كانت معتمة ثم بدأت تنير بنور ليس هو نورها . إنه نور مستعار مستمد من شعلة محترقة .

يولد البشر فى العالم كالسراج غير المنير . قد يقفون فى منابر جميلة من ذهب أو فضــة أو قصدير أو فخـار ، لكنهم جميعاً بالطبيعـة غير منيرين . ومن

---

(١) أو « كان هو النور الحقيقى الذى ينير كل انسان آت الى العالم » حسب الترجمة الانكليزية والترجمة القبطية .

الناحية الأخرى ينتظر يسوع المسيح ، نور البشر ، برغبة قوية ، وكلما مر جيل على مسرح الحياة البشرية صار مستعداً لإضاءة النفوس التى قصد بها أن تكون سراج الرب .

فى هذه الدهور الحالية ينيرنا بالأنجيل ، لكننى أعتقد أن كل بصيرة أدبية ، كل غريزة نحو الخلود ، كل شوق نحو الله ، كل تحسس فى الظلام نحو النور الحقيقى ، كل ثورة أدبية نافعة أكتسحت البشرية - كل هذه كانت نتيجة تأثيره، لأنه هو النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان أت الى العالم . كلما وأينما أشتعلت فى قلب المرء قوة روحية ، أو غيرة غير عادية، أو رغبة لمساعدة إخوته، أضاء كشعلة، وجب أن نعتقد بأنه قد استنار من ابن الله، حكمة سفر الأمثال، الذى قد لا يعرفه الآن، ولكنه سيعرفه حالما يجتاز أبواب أورشليم الجديدة . انه ينير كل انسان ، وهو مستعد أن ينير كل انسان يأتى الى العالم .

تعكس هذه الفكرة نورا قويا على بعض الغاز الاختبارات البشرية . اننا نعرف بعض أشخاص أميين وغير متعلمين ، ليست لهم موهبة الكلام لكنهم مع ذلك قد أناروا بكيفية عجيبة حتى استنار كل جيرانهم بالنور المنبعث منهم . ومن الناحية الأخرى نحن نعرف أشخاصا درسوا فى الجامعات وحصلوا على الدرجات ، وفتحت أمامهم منابر هامة وأعطيت اليهم فرص عظيمة للخدمة ، لكن حياتهم كانت فاشلة . لماذا ؟ ان الاجابة على هذا السؤال فى غاية البساطة . كانت الفئة الأولى سرجا أو شموعا مصنوعة من شمع عادى ، وموضوعة فى منابر (شمعدانات) بسيطة . ولكنها أشعلت بنار الله بواسطة الروح القدس . أما الثانية فهى مثل المنابر النفيسة ، لكن الشموع فيها لم تشتعل بنار الله قط . هنالك مئات ممن يسمون أنفسهم مسيحيين ، وقد يكون بعضهم ممن يقرأون هذه السطور ، لم يشتعلوا قط حقيقيا ، لم يمسهم ابن الله قط . لم يعرفوا معنى الأنارة بنوره والاتقاد (الأحتراق) بناره .

ما هى عملية الأنارة ؟ هى اتصال فتيلة السراج أو الشمعة بالنار ، فتقفز النار اليها . وتشتعل فيها دون أن تفقد النار شيئا من قوتها أو حرارتها . وتستمر فى الأشتعال جاذبة الى نفسها الغذاء الذى تمده بها الشمعة والسراج .

هكذا اسمح ليسوع المسيح بأن يلمسك . آمن بالنور لكى تكون ابنا للنور ، انزع عنك كل ما يطفئه ، أطرح عنك أوهامك ، اقتلع تلك الآراء الخاطئة ، أبعد عنك تلك العادات السخيفة . واذ تنزع عنك كل هذا دع يسوع يشعلك . « قومى استنيرى لأنه قد جاء نورك » (اش ٦٠ : ١) « استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضىء لك المسيح » (اف ٥ : ١٤) .

اننا قد اشتعلنا لكى نشعل الآخرين . اننى أتمنى- لو أعطى الى الأختبار - أن اتقد محترقا دون أن أذوب .واذ أفعل هذا أوصل نار الله الى أكبر كمية ممكنة من الشموع غير المنيرة ، وأن أستمر فى الاتقاد الى آخر نسمة .وفى اللحظة الأخيرة أنير عشرين أو ثلاثين أو مائة شمعة دفعة واحدة ، حتى اذا ما فنيت الواحدة بدأت الشموع الباقية تتقد وتبعث نورا يضيء الى أن يأتى يسوع .

فاستمد النور من المسيح ثم اقتسمه مع غيرك . واذكر أن مجد النار هو أن شمعة واحدة صغيرة يمكنها أن تنير مئات من الشموع ، وأن شمعة حقيرة واحدة يمكنها أن تنير كل شموع كنيسة عظيمة دون أن تفقد شيئا من شعلتها . استنار اندراوس بيد المسيح نفسه ونقل الشعلة الى سمعان بطرس ، وهذا نقلها بدوره الى ثلاثة آلاف يوم الخمسين .

وهكذا نرى أن كل مسيحى استنار بنعمة الله يصبح سراجا مثل يوحنا المعمدان . لكن هنالك دائما هوة سحيقة لا يمكن عبورها بين هؤلاء وبين الرب . فنور هؤلاء مكتسب ، أما نوره هو فأنه أصلى . هم يحتاجون بصفة مستمرة الى الأمداد ، أما هو فأنه مصدر النور . كما أن الآب له حياة فى ذاته كذلك أعطى الأبن أيضا أن تكون له حياة فى ذاته ، وحياته هى نور الناس (يو٥:٢٦) .

(٢) الانفاق الضرورى :

« كان هو السراج الموقد المنير » ان أردت ان تنير فيجب ان تتقد (تحترق) . يريد الجميع بلا استثناء أن ينيروا . لكن ليس الجميع مستعدين لدفع النفقة التى بها وحدها يستطيعون الحصول يطمعون فى كل الجوائز ودرجات الشرف . لكنهم غير مستعدين على حق اعطاء نور الحياة الحقيقى . هنالك طلبة كثيرون لتعب الأيام والليالى ، ولذا فأنهم يجدون اطماعهم اضغاث أحلام . قبل أن يحصل الطالب على أعلى الدرجات يجب أن يحرق ، ليس فقط أكبر كمية من زيت الأضاء ة ، بل أيضا كمية كبيرة من عصارة حياته . والمراكز الرفيعة فى عالم الأدب والعلوم لا تمنح لأصحاب الذكاء الفطرى بقدر ما تمنح لمن يكدون ويكدحون ويفنون أنفسهم فى العمل . والكيماوى الناجح يعمل ست عشرة ساعة فى الأربع والعشرون ساعة . والمؤلف الناجح يسكب عصارة حياته فيما يكتب . كل هؤلاء ينيرون لأنهم يتقدون ويحترقون .

وهذا المبدأ شرط أساسى فى خدمة المسيح بصفة خاصة . لقد تحقق فى حياة الرب نفسه . لقد أنار ، وأثارت أشعته ربوات لا حصر لها من النفوس المظلمة ، ولازالت تنير فى كل أرجاء العالم . ولكن أتعرف كيف اتقد واحترق . تذكر التلاميذ كيف كتب عنه « غيرة بيتك أكلتنى » . لقد تألم لكى يخدم . لم

يشأ أن يخلص نفسه» لأنه وضع نصب عينيه إن يخلص الآخرين. لقد أرتفع الى العرش لأنه لم يعف نفسه من موت الصليب. ولقد تعجب بيلاطس لأن موته تم سريعا، وأرسل لقائد المئة ليتأكد من انه مات فى مثل تلك الساعات القصيرة لكنه لم يدرك أنه فى ثلاث سنوات قصيرة شرب كأس الآلام كله. كان هنالك احتراق داخلي مستمر.لقد أنار بسبب النار التى كانت تتقد فى داخله .

كان هذا هو الحال مع الرسول العظيم الذى قال أنه كمل ما نقص من آلام المسيح وشدائده (كو ١ : ٢٤) . ولم يكن ذلك بطبيعة الحال لأن عمل الكفارة كان فيه أى نقص يحتاج الى أن يكمله الرسول ، بل لأن القديسين مدعوون للاشتراك فى آلام ربهم من أجل البشر وفى دموعه ، لكى يحملوا أثقال الآخرين وصليبهم ، ولكى يفنوا حياتهم فى سبيل انعاش أولئك الذين نضب فيهم معين الايمان والرجاء والمحبة .

لقد بذل الرسول بولس أقصى جهده » لقد أنار لأنه لم يتردد قط فى أن يتقد ويحترق . تذكر كيف اكد بأنه قد تضايق وارتبك واضطهد وحمل فى الجسد كل حين أماتة الرب يسوع لكى تظهر حياة يسوع فى جسده المائت . وكان الثمن الذى دفعه من أجل الحياة التى عملت فى قلوب متنصريه هو الموت الذى عمل فيه (٢كو ٤ : ٨ - ١٢) .

وقد جاز كل القديسين نفس الاختبار . لقد عرفوا أنهم لن يكون لديهم أي رجاء فى أن يشعلوا نارا لا تنطفىء الأ اذا كانوا مستعدين أن تتقد أجسادهم محترقة . ولم يحسبوا حياتهم ثمينة عندهم ان كانوا بذلك يتممون سعيهم بفرح والخدمة التى أخذوها من الرب يسوع ليشهدوا ببشارة نعمة الله (أع ٢٠:٢٤) .

ان الرجال والنساء الذين يضيئون ظلمة هذا العالم فى كل الأجيال هم الذين كانت دموعهم طعاما لهم نهارا وليلا . الذين ارتفعت صلواتهم بصراخ شديد ودموع ، الذين أنفقوا وأنفقوا فى سبيل خدمتهم .

ان أراد الخادم المسيحى أن يكون نافعا للوسط الحقير الذى دعى ليعمل فيه ينبغى أن يكون مستعدا بأن يعيش وسط الشعب وينفق نفسه من أجلهم . وفى صحته التى تذبل يوما فيوما تستطيع أن تتبين أنه يدفع ثمن قوته المنيرة لأنه يحترق . ينبغى أن يتعلم جميع خدام الله الناجحين هذا الدرس . ينبغى أن تكون مستعدا بان تتألم ، ولن تستطيع أن تغيث البشر الا اذا مت من أجلهم . ان كنت تريد أن تخلص الأخرين فانك لن تخلص نفسك من الألم . يجب أن تكون مستعدا أن تقع فى الأرض وتموت انِ أردت أن لا تبقى وحدك بل يجب أن تكون مستعدا أن يفنى انسانك الخارجي مثل بولس لكى يتجدد الانسان

الداخلى يوما فيوما . يجب أن تكون مستعدا أن تقول معه « الموت يعمل فينا ولكن الحياة فيكم » (٢كو ٤ : ١٢) .

ان كنت تتقد محترقا فانك تنير : ان عمليتى الاتقاد والأنـــارة لا تتمشيان معا على الدوام . كثيرا ما استمر الاحتراق مدة طويلة دون أن تظهر انارة كثيرة نتيجة الاحتراق والفناء.الأغنياء فى المواهب والملكات الطبيعية يلقون كثيرا ، والفقراء يلقون كل معيشتهم ، وهكذا يستمرون سنة بعد سنة ، دون أن يلاحظ أحد الثمن الغالى الذى يدفعونه فى تأدية شهادتهم . وفضلا عن هذا فالخدمة فى نظر أهل العالم لا تستحق كل التضحية التى يبذلها أولاد الله المخلصون ، فدائرة نفوذهم قد تكون محدودة جدا ، والنفوس التى تتأثر بخدمتهم قليلة جدا ،والشعاع المنبعث من نورهم يكاد لا يعبر الشارع كمصباح الشارع فى يوم ضباب ، وفى بعض الأحيان يبدو كأنه قد زاد الظيم كثافة .

فى كثير من الأحيان يحترق قديسو الله حتى النفس الأخير دون أن يلاحظ العالم انبعاث أى نور منهم . وقد تسمع منهم هذه الشكوى المرة « عبثا تعبت باطلا وفارغا أفنيت قوتى (أش ٤٩ : ٤) . لكن حتى هؤلاء سينيرون . سوف يضيئون كالكواكب الى الأبد فى ذلك العالم الذى فيه ستنال كل النفوس الأمينة والتقية إستحقاقها .

لنهتم نحن بالاتقاد ، وعندئذ يهتم الله بالأنارة . ان واجبنا هو تقديم الطعام يوميا لتلك النار المقدسة المشتعلة من السماء ، وطعامها هو كلمة الله والخدمة المقدســة . وعندئـذ يحـرص الله على أن لا تفقد شعاعة واحــدة من القـوة أو المحبة . انه يضع حولنا عاكسات للضوء لكى تلتقط التأثيرات المنبعثة منا ثم تعكسها على الآخرين « وكان الرب معه (مع صموئيل) ولم يدع شيئا من جميع كلامه يسقط الى الأرض » (١صم ٣ : ١٩) .

لنحرص على أن يكون الرب المقام من بين الأموات فى رفقتنا ، فنصغى اليه عندما يكشف لنا عن أسرار الكتاب المقدس الى أن تلتهب قلوبنا فى داخلنا . وعندما نسرع بأن نخبر عما رأيناه وذقناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ، يرى لمعان على وجوهنا ، سواء أدركنا هذا أم لا ، فيقول الناس عنا أننا كنا مع يسوع (أع ٤ : ١٣) .

إن فكرنا فى الأنارة فقط فقد نخسرها ونخسر الاتقاد . لكن ان حصرنا التفكير فى الاتقاد ، حتى اذا تضمن الآلآم المريرة ، والنيران المحماة سبعة أضعاف ، والترك فى زوايا النسيان ، انبعثت منا أشعة النور الذى لا يمكن ان يخبأ . حيثما وجدت حرارة الاتقاد وجد النور الهادىء الخفيف . فالصيف ان حل غطت الزهور الأرض .

وسيحرص الله على توفير الوقود والانارة . لم تكن النار التى أشتعلت فى العليقة فى حاجة الى وقود « فنظر واذا تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق » (خر ٣ : ٢) . أما معنا فالحاجة مستمرة الى تغذية نار المحبة ونور الحياة بتقديم الوقود المناسب. يجب تقديم الزيت للسراج ، والنار لا يمكن أن تستمر مشتعلة على المذبح دون خدمة الكهنة المستمرة وعنايتهم . لكن تشجع، فأن الذى بدأ فيك عملا صالحا لابد أن يكمله الى يوم يسوع المسيح . سوف تكثر لك كل نعمه لكى تزداد فى كل عمل صالح ، اذ يكون لك كل أكتفاء فى كل شىء (٢كو ٩ : ٨) « الرب يعطى رحمة ومجدا ، لا يمنع خيرا عن السالكين بالكمال » (مز ٨٤ : ١١) . سوف يملأ الله كل احتياجك بحسب غناه فى المجد فى يسوع (فى ٤ : ١٩) . اننا لنجد معونة كبيرة اذ نتأمل فى النص الكامل لهذا العبارة « مؤازرة (١) روح يسوع المسيح » (فى١:١٩) : كأننا متصلون ببئر من آبار الزيت التى يبدو أنها لا تنضب . والعجيب جدا أن الله كثيرا ما وضع سرجه المنيرة فى أمكنة مهجورة . كنا نتوقع أن يضع شخصا مثل يوحنا فى مكان مرتفع ، أو على عرش ، لكى يمتد نفوذه الى أقصى ما يمكن ، لكنه بدلاً من هذا سمح له بأن يقضى الشهور النفيسة من حياته القصيرة فى السجن . وخفت نور السراج فى الرطوبة الخانقة .

قد تكون هذه هى الحالة معك أنت أيضا . ربما قد قضى عليك أن تقضى سنيك البطيئة السير فى سكون غرفة المرض ، فى زوايا النسيان فى كنيسة قرية حقيرة ، أو بين الشتائم والاحقاد . وعندئذ يبدو ان هذا ضياع للوقت . أن الوحدة والغم والكآبة عسيرة الاحتمال ، لكن الشعور بضآلة الانتاج ، رغم هذا الثمن الباهظ ، أليم جدا .

هل هذا هو اختبارك فى سجنك ؟ تذكر ان يوسف سبقك اليه . ان كان السجن مظلما جدا فربما يكون الله قد وضعك فيه لأنه اراد ان يضع فيه سراجا لكى تتمم هناك عملا فى غاية الأهمية من أجله ومن أجل الآخرين . وهل يحتاج الى النور ألا فى اظلم الأمكنة ؟ استمر اذا فى الانارة ، وعندئذ تدرك يوما ما ان الله سوف يحول ذلك السجن الى مركز رفيع ينبعث منه نورك الى كل العالم ، لأن يوحنا أنار جيله من سجنه كما أناره من منبره بجوار الأردن . قال الرسول « ثم أريد أن تعلموا أيها الأخوة أن أمورى قد آلت أكثر الى تقدم الانجيل حتى أن وثقى صارت ظاهرة فى المسيح فى كل دار الولاية » (فى ١ : ١٢و١٣) .

---

(١) « اعانة » حسب ترجمة اليسوعيين ، أو « مؤونة » أو « زاد » حسب الترجمة الانكليزية .

(٣) تحذير المسيح من اساءة استعمال الفرص :

« وانتم اردتم ان تبتهجوا بنوره ساعة » . والكلمة اليونانية التى ترجمت عنها كلمة « تبتهجوا » تحمل معنى لعب الفراشة حول النور ، أو رقص الأولاد حول شعلة من نور وهى تخفت قليلا فقليلا . كأن نورا قد اعطى للناس مدة ساعة ليستخدموه فى اغراض سامية مقدسة . أما هم فانهم يستخدمونه للرقص ولعب الورق ، بدلا من أن يمنقطوا احقاءهم للمهام الخطيرة .

قال لهم الرب « وانتم اردتم ان تبتهجوا بنوره وترقصوا وتغنوا . لقد وقفتم أمام خدمته كمن يريد أن يضيع الوقت . طالما كان يحدثكم عن الملكوت القادم أصغيتم وكنتم مسرورين ، لكن اذ بدأ يدعوكم للتوبة ويحذركم من الغضب الآتى تركتموه » .

انه الآن كسراج يكاد ينطفىء وساعته توشك على الانتهاء . والفترة الوجيزة التى جاء ليقضيها قد انتهت . « يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل » (يو ٩ : ٤) .

أن خدمة الأنجيل لا تدوم الا ساعة . وحياة الأنسان يمكن تشبيهها بيوم قصير (١كو ٣:٤) . وفى هذا اليوم لا تشغل اذاعة الأنباء السارة من الله سوى فترة محدودة . وان صحت تنبؤات بعض المفسرين الحاليين فأن نهاية العالم قد اقتربت.عندئذ يسكت صوت المنادى باقتراب العريس،ولا تسمع بعد فى الشوارع اصوات الخدم الداعين لعشاء العرس، ولا يوجد من يكسر ويوزع خبز الحياة .

خليق بالبشر أن يحرصوا كل الحرص على الانتفاع بهذه الفرص السريعة الزوال ، دون أن يصغوا الى صوت الواعظ كأنه صوت موسيقى عذب ، لا يطلبون مجرد تشنيف الآذان أو اشباع العقل ، بل يحرصون على أن يسمعوا رسالة الأبدية ، ويتقبلوا – فى قلوب وديعة حافظة – تلك البذار النفيسة وهى تقع من يد الزارع ، مجتهدين بأن يقدموا أكبر كمية من الثمار .

آه ، أيها الأولاد الذين يلعبون فى الأسواق ويمرحون ، احرصوا على ان لا تفلت من بين أيديكم تلك الفرص التى ينبغى أن تستخدموها فى الاستعداد لعمل الحياة الجوهرى ، الا وجدتم أنفسكم تواجهون الموت والدينونة بدون رجاء وبدون اله . لقد قتل يوحنا فى السجن وسمر يسوع على الصليب ، واستشهد الرسل والشهداء – والسفينة تندفع نحو الصخور دون صوت منبه لأيقاظ المستهترين والغافلين ولاعبى الميسر والراقصين ، وتنبيههم الى قرب مصيرهم المحتوم .



يطــلق ســراحــه

(مر ٦ : ٢٧) (١)

اصمتى يا نفسى وكفى عن التأسف الباطل
استريحى فى ذاك الذى يستطيع أن يكمــل
ما تعجــز عنه طبيعتنــا البشــرية ويحــقق
رجــاء نا وكل مقاصـدنا فأنه فيه تتحــقق
كل الأشواق والآمــال

(رئيس الأساقفة ترنش)

يحدثنا البشير مرقس فى العدد الحادى والعشرين من هذا الاصحاح أن هيرودس «صنع فى مولده (عيد ميلاده) عشاء لعظمائه قواد الألوف ووجوه الجليل (التى كان يحكم عليها هيرودس مقيما فى معظم أوقاته فى مدينتها الجميلة طبرية التى لازالت آثارها باقية) كانت تبعد بعدا شاسعا عن قلعة ماكيرا الواقعة فى منطقة مقفرة على الساحل الشرقى للبحر الميت كما قدمنا . سار موكب عسكرى رائع من الجليل ، فى طريق الأردن . الى واحة اريحا، ثم اتجه الى القلعة القديمة التى ظلت مرسحا للصوصية وسفك الدماء سنوات طويلة .

ليس من العسير تخيل ذلك الموكب العظيم الذى كان يضم جنودا رومانيين وضباطا مجهزين بكل الأسلحة والمهمات اللازمة ، عربات تحمل الملكة هيروديا وسالومى وحاشيتهما ، عددا وفيرا من الجنود الوطنيين ، وبعض التجار العرب واليونانيين ، وبعض الكهنة واللاويين الذين عاشوا على حساب تملق الملك وحاشيته ، بعض الموظفين والخدم والعبيد .

أما هيرودس فكان يتقدم الموكب ، ممتطيا جوادا عظيما . وكان يبعث النشاط فى قلوب الموكب صـوت موسيقى حــربية والاعــلام المرفرفة . ساروا فى طريقهم وسط الصحراء ، ثم المراعى واخيرا وصلوا الى تلك القرية المتواضعة القائمة عند ســفح الجبــل الذى انتصبت فــوق قمتــه تلك القلعة ، ثم

(١) « فللوقت أرسل الملك سيافا وأمر آن يؤتى برأسه » .

صعدوا اليها . وللحال رفعت المتاريس الحديدية وفتح باب القلعة على مصراعيه » وخطا الملك الخطوة الأولى لتنفيذ المأساة الأليمة التى تنتظره . وأن المرء ليتساءل عما اذا كانت كل هذه الظروف قد دبرتها مقدما هيروديا بدهائها ومكرها . وعلى أى حال فلم تكن هنالك خطة أخرى تلائم شهوة قلبها .

لعل الأيام السابقة لعيد ميلاد هيرودس كانت حافلة باللهو والطرب والولائم والمنادمات ، حيث تجمعت جماعات من الأشراف والفرسان والسيدات ، وجلسوا فى الشرفات فرأوا البحر الميت وأورشليم ، وزرقة مياه البحر الأبيض المتوسط من بعيد . ولعل نزهات قد رتبت الى الأرجاء المجاورة . واشتركت الجماعة فى بعض الالعاب المسلية . وبجانب هذا كله كان يرقد فى ظلمات السجن أسفل القلعة ذلك الكارز المقتدر والمعترف ، والسابق ، الذى كان سوف يلقى حتفه فى الحال شـــهيدا .

لكن هذا التناقض برز بكيفية أقوى فى ليلة عيد ميلاد هيرودس عندما أضيئت غرفة الوليمة بأنوار غير عادية ، وزينت الموائد بالزهور وأطباق ذهبية وفضية ، وسادت الغرفة الفسيحة أصوات الضحك والمرح . وكان الخدم يجيئون ويروحون فى ثياب مطرزة حاملين أطايب الملك على أطباق كبيرة سوف يلطخ أحدها بدم الشهيد .

فى هذا المنظر أرجوك أن تدرس بداية جريمة شنيعة . لأنك يجب أن تذكر أنه فى صدد الخطية لا يوجد فارق كبير بين القرن العشرين والقرن الأول ، بين خطية مدينة القرن العشرين وبين خطية مدنية القرن الأول . هذا هو السبب فى أن الكتاب المقدس يجـب أن يكون دائما موضـع أهتمـام كل البشرية ، لأنه لا يحصر ذاته فى الظروف والمظاهر والمناظر التى يصفها ، بل يتحدث عن الحقائق العامة المتعلقة بالتجارب والخطايا وعمل الفداء التى تهمنا أجمعين .

ولذلك كتب هذا الفصل بمنتهى العناية ، لأننى واثق أن معالجة ذلك المنظر والعواطف والشهوات التى تمثلت هناك فى أقصى عنفها ، يمكن أن تدون بكلمات يكون فيها بركة عظيمة للنفوس التى انجرفت فى مثل ذلك التيار العنيف . لعل هذه الصحيفة تقدم أنذارا يحفظهم من الأنحراف فى التيار قبل فوات الأوان ، أو حبلا يتعلقون فيه ، أو يد أخ ممتدة ، وهم على وشك الغرق فينجوا أنفسهم . لأن نعمة الله قادرة أن تحفظ هيرودس وايزابل ، أو أى مجرم من صور الملوك أو من عامة الشعب، من الانجراف فى التيار وتفديهم وتخلصهم .

فى هذه الخطية – كما فى كل خطية – كانت هنـالك ثلاثة عوامل تعمل : (الأول) ميـل النفس السـابق ، وهو ما يسـميه الكتـاب المقـدس « شـهوة »

و «مشيئة الفكر » . قال الرسول «الذين نحن أيضا جميعا تصرفنا قبلا فى جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب» (اف٢:٣) . (الثانى) ايحاءات الشر من الخارج . (الثالث وأخيرا) عمل الإرادة الذى به قبلت تلك الايحاءات وتممت أخيرا .

من هذا الباب الأخير تدخل الخطية بصفة خاصة . قد تكون هنالك خطية فى القدرة على ارتكاب الشر أو الميل اليه . ان وجود الطبيعة الخاطئة فينا يتطلب الكفارة بالدم الكريم . وقد تكون هنالك خطية أيضا فى مداعبة التجربة وملاطفتها وفى عدم رؤية مجيئها من بعيد . لكن بالرغم من كل هذا فالعامل الرئيسى فى الخطية هو عمل الارادة التى تسمح بدخول بعض الايحاءات النجسة ، وترسل أعوانها لتنفيذها .

(١) الأصرار السابق نحو هذه الخطية .

تستخدم الآن كلمة « شـهوة » بصفة عامة لتعبر عن ناحية واحدة فقط . لكن هذا خطأ لأننا لا نتنبه لاشارات الأنذار الكثيرة التى يضعها روح الله فى طريقنا . ان كل رغبة مفرطة فى الشهوات الجسدية والملذات ، سواء اتجهت نحو غاية بريئة أو خاطئة ، تقع تحت كلمة « شهوة » . وكل رغبة أو عاطفة منحرفة تؤدى الى هلاكنا مهما كان اتجاهها ، وليس فقط تلك التى تتجه نحو النجاسة والتى تحصر فيها هذه الكلمة الأن بصفة خاصة .

فى معالجة التجربة والخطية يجب أن نتذكر دواما أنه يوجد فى القلب البشرى آثار السقوط . الأليمة ، التى تجعل البشر ينحرفون نحو الشر هذا الأنحراف وصل الينا أجمعين ، أولا من أبينا آدم ، وثانيا وفقا لقانون الوراثة الذى يجمع كل قواه الشريرة الخبيثة فى كل الأجيال . ولا يستطيع أحد أن يصد كل هذه القوى سوى الله . لكنه لن يفعل هذا ألا اذا لجأت النفس اليه .

كان هيرودس أبنا لهيرودس الكبير ، ذلك الطاغية سفاك الدماء المنغمس فى الملذات . وقد ورث طبيعة ضعيفة جدا من هذا المصدر أو ذاك . ولو كان قد وقع تحت مؤثرات صالحة قوية فربما كان قد عاش حياة طيبة . لكنه لسوء حظه وقع تحت تأثير امرأة جميلة شريرة اتلفت روحــه .

مما يلاحظ باهتمام أن المرأة الجميلة الشريرة يكون لها تأثير قوى على الرجل الضعيف . ولهذا السبب ، ولأسباب أخرى ، يصبح الضعف شرا . فالرجل الذى يسمح لنفسه بأن ينحرف بضعف أمام أقوى المؤثرات سوف يتبين ان أقوى المؤثرات فى العالم هى التى تدفعه للخطية . انها تمسه فى الصميم .وتعمل فيه بصفة مستمرة. وتجد فى طبيعته أفضل وكر لكى تفرخ فيه .

ان المؤثرات التى توحى بالخطية فى هذا العالم دائمة الالحاح ، تجدها فى كل ركن فى الشارع ، فى كل صحيفة يومية ، فى كل اجتماع اجتمع فيه أناس من طبقة الأغنياء ، أو من الأشرار . ولذا فأن كان البعض من قرائى الأعزاء لا يوجد بهم ضعف سوى انهم ضعفاء فانى ملزم بأن أحذرهم باسم الله بأنهم ان لم يتصلوا بقوة ابن الله فأنهم لابد أن يصيروا أشرارا . تذكروا أن الرجال ، بل النساء بنوع أخص ، الذين يملأون سجوننا كمجرمين ، كانوا فى أغلب الحالات ضعفاء فقط ، ولذلك انجرفوا فى تيار العالم القوى الشرير .

إن كنت تشعر بالضعف فأننى أتوسل اليك بكل ما فى من جهد أن تتمسك بصخر الدهور عندما ترى العاصفة قادمة . « تقووا فى الرب وفى شدة قوته » (اف ٦ : ١٠) .

تلكأ هيرودس فى سلوك الطريق الذى رسمته له قرينته الشريرة . لقد أظهر ظلا من المقاومة كما قدمنا ، لكنه لم يقاومها الى النهاية ، لذلك نجحت أخيرا فى مسعاها ، وانزلقت به الى مستواها الواطىء جدا . كان هذا هو سبب هلاكه ، وارجو أن لا يكون هو نفس السبب فى هلاكك . هل ارتبطت أنت أيضا بامرأة عنيدة تملكت عليها الشهوة أكثر منك ؟ قد تتخيل بأنك لن تكون ألعوبة فى يدها . هذا خطأ محض . فإن هيروديا سوف تتحكم فيك . قد تتلكأ أنت فى إطاعتها ، قد تتردد قد تقاوم ، لكنك أخيرا سوف تسقط فترتكب الخطية التى تخجل من مجرد ذكرها أمامك الآن .

إذا فاحترس لنفسك . إن كنت تتأثر بسهولة من يوحنا المعمدان فاذكر أنك قد تتأثر بسهولة من المؤثرات الشريرة أيضا . إذا فاحرص كل الحرص ، وخذ حذرك من أى شىء فى حياتك يفتح أبواب طبيعتك الحساسة للتجربة التى تعجز عن أن تقاومها . إن كنت ضعيف الجسم فإنك تحذر من التيارات الهوائية، أو من الأجهاد الجسمانى، أو من الهواء الفاسد، أو من العدوى . فكم بالأحرى ينبغى أن يكون حذرك من المناظر والرفاق الذين قد يتلفون صحة روحك ؟

إن أشد الساعات خطرا فى حياتنا هى تلك التى تقضيها فى التريض . ففيها ننطرح – مع الأغلبية الساحقة من رجال جدعون – على شاطىء النهر ، ومناطقنا محلولة ، ونشرب على مهل دون أن ندرك أن العدو قريب . لذلك ففى هذه الساعات نكون أكثر عرضة للسقوط .

فعلى الجندى المسيحى ان لا يلقى السلاح أبدا ، يجب أن لا ينعس أو يتراخى فى سهره . والحارس يجب أن يكون دائم اليقظة .

كان أخطر ما عمله هيرودس هو تلك الوليمة . فإنه إذ اضطجع على إريكته ، واستند الى وسائده فى تراخ وكسل ، وتناول طعامه الفاخر ، وشرب

الخمر السائغة ، وتبادل أحاديث المجون مع إتباعه ، كان هذا بمثابة فتح أبواب نفسه لتقبل أول خاطر شرير يحوم فى ذلك الجو الفاسد . هذا هو السبب فى أن البعض منا لا يجرأون على دخول دور التمثيل ، أو تشجيع غيرهم على دخولها. ليس هذا مجال الحديث الكامل عن هذا الموضوع، لكن يكفى القول إنه حتى إن كانت الرواية بريئة غير ضارة فإن مؤثرات المكان الشهوانية، والموسيقى، والملابس الخليعة التى يرتديها الممثلون والممثلات، وكل الجو المحيط- كل هذه التى تحرك فينا شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، تحطم بعض الحصون التى لولاها لاستطاعت أن تقاوم أول هجوم للشر. ان جو دور التمثيل أو السينما أو ميادين السباق مشبعة بميكروبات الشر ، ولذلك فمن الخطر على النفس أن تتعرض لها وهى تعلم بضعفها وميلها الى الإنحراف والأنزلاق . وهذا هو الذى يدفعنا كل يوم الى أن نصلى قائلين « ولا تدخلنا فى تجربة » .

(٢) التجربة :

فى تكوين الخطية يجب أن نحسب حسابا صحيحا لقوة المجرب ، سواء فى إيحاءاته المباشرة للنفس ، أو فى الرجال والنساء الذين يستخدمهم كالآت فى يده لإتمام مقاصده الشريرة ، كانت الوسيلة التى إتخذها الشيطان فى حالة هيرودس هى هيروديا الجميلة كالحية ، والمميتة كالحية . كانت تعلم تأثير يوحنا المعمدان على قرينها الضعيف، وتعلم أنه تعود أن يبالغ فى تقدير كلماته، وإنه كان « يفعل كثيرا » (مر٦:٢٠) . كانت تدرك أن ضميره متعب ، لذلك كان أكثر ميلا للتأثر بكلماته إذا ما تحدث عن البر والتعفف والدينونة القادمة. كانت تخشى النتيجة لو أن المعمدان وضمير هيرودس أتفقا ضدها. ماذا يحدث لو أن نفوذها على الطاغية المتقلب قد بدأ يضعف ، وبدأ تأثير المعمدان عليه يقوى لخزيها وهلاكها؟ كانت تعلم أنها فى خطر طالما كان المعمدان حيا. كان هيرودس يهابه، ولعلها هى أيضا كانت تهابه بفزع أشد، ولذلك فكرت فى التخلص منه .

إنتظرت الفرصة المناسبة ، فأتت فى المناسبة التى ذكرناها لقد وصلت الملذات الشريرة الى القمة . أن هذه الوليمة التى طالما شهد هيرودس أمثالها فى قصر طيباريوس الخليع ، والتى وصل فيها المجون الى أقصى درجاته ، قد أدت الى أسوأ النتائج . فالخمر المعتق عمل عمله . والقاعة إمتلأت من أصوات الضحك والمجون . قبيل إنتهاء إمثال هذه الوليمة جرت العادة أن يؤتى بالنساء الفاجرات اللاتى كن يقمن ببعض الحركات لألهاب الشهوة فى الحاضرين .

وبدلا من الراقصة العادية التى ربما يكون هيرودس قد أحضرها لهذه المناسبة ، دخلت سالومى نفسها ورقصت رقصا خليعا . أية فكرة يمكن أن نكونها عن أم تعرض أبنتها لمنظر كهذا ، وتطلب منها أن تشترك فى هذا المجون المتهتك ؟ إن تخلت عنا نعمة الله الحافظة دفعت بنا الغيرة الجنونية والشهوة الجامحة الى هاوية لا قرار لها . أما الفتاة فإنها مع الأسف الشديد كانت وقحة كأمها .

لقد سرت هيرودس الذى ثارت فيه الشهوتان القويتان اللتان أهلكتا ضحايا أكثر ممن سقطوا فى كل ساحات الحرب فى العالم . وفى جنون شهوته وعد الفتاة بأن يعطيها مهما طلبت ولو الى نصف مملكته ، أما هى فاسرعت الى أمها وقصت عليها كيف نجحت ، ثم سألتها : ماذا أطلب ؟ ولعل الأم سبق أن رأت هذه اللحظة فى خيالها، لذا كانت الأجابة حاضرة: أطلبى رأس المعمدان.

وللحال تركت أمها ودخلت قاعة الوليمة تتقد عيناها بنار الحقد المستمد من وحشية أمها. ساد الصمت الجميع وتفتحت كل أذن لتسمع الإجابة . « فدخلت للوقت بسرعة الى الملك وطلبت قائلة أريد أن تعطينى حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق » . (مر ٦ : ٢٥) .

لاحظ هذه الكلمة « حالا » . كانت تخشى هى وأمها أن يتغير موقف الملك . ان ما ينبغى عمله يجب أن يعمل حالا وألا فقد لا يعمل قط . كان لسان حال الفتاة يقول « حالا ، حالا ، فالدقائق تبدو كأنها ساعات . أعطنى طلبتى الأن ، فى هذه اللحظة . إننى أريد وليمتى أنا أيضا ، فلتقدم على أحد هذه الأطباق الذهبية » . لقد بين طلب الفتاة الوقح على أنها حرصت على الأشتراك فى خطة أمها .

هكذا تأتى إلينا الإيحاءات، ويجب أن نتوقع مجيئها طالما كنا فى هذا العالم. هنالك شبه كبير بين التجربة وميكروبات المرض . فالميكروبات موجودة فى الهواء بصفة مستمرة ، ولكن طالما كنا فى حالة صحية حسنه فإنها لا تؤذينا مطلقا لان طبيعتنا لا تقدم إليها أى مكان تستقر فيه . هنالك نوع من المرض لا ينفذ الى ضحاياه إلا فى الطقس الرطب ، ولذلك فأن صغار الطيور تضعفها الرطوبة عن أن تقاومه ، ومرض البطاطس يظل منتظرا حتى يتعفن نبات البطاطس بسبب الأمطار والرطوبة ، وعندئذ يفتك به ذلك المرض . ولعل ميكروبات السل والسرطان ليست بعيدة عنا قط . لكنها لا تستطيع أن تؤذينا

إلا إذا ضعف الجسم لأسباب أخرى . وهكذا ليست للتجربة أية قوة علينا إن كنا فى ملء قوة الروح . لكن عندما تضعف حيوية الإنسان الباطن فعندئذ فقط نعجز عن أن نقاوم سهام الشرير الملتهبة .

هذا يبين كيف أننا فى أشد الحاجة للأمتلاء بحياة إبن الله فإن الرب قابل قوة الخطية والموت فى طبيعتنا البشرية وأبطلها وذلك فى حياته وفى موته . لقد حمل تلك الطبيعة الى السماويات وهو يود أن يهبها بالروح القدس للذين يتحدون به بالأيمان الحى . أليس هذا ما عناه الرسول يوحنا عندما قال لأبنائه وتابعيه أنهم يستطيعون أن يغلبوا لأن الذى فيهم أعظم من الـذى فى العـالم (١يو ٤ : ٤) ؟ إن صاحب الطبيعة العظيمة القوية لابد أن يغلب صاحب الطبيعة الضعيفة . وإن كانت لك طبيعة المسيح الحى الغالبة فأنك لابد أن تكون أقوى من الطبيعة التى سحقها تحت قدميه .

(٣) مصادقة الإرادة :

« فحزن الملك جدا » . لقد أفاقته طلبة الفتاة ، فأصفر وجهه ، وبدأ يقبض على الوسادة المتكىء إليها بحركة تشنجية . فمن الناحية الواحدة ثار ضميره على الموقف ، وخشى العواقب بفزع شديد . ومن الناحية الأخرى قال لنفسه : إننى مرتبط بأقسامى . لقد أقسمت وكانت كلماتى فى حضرة الكثيرين من عظمائى ، ولا أستطيع أن أتراجع لئلا تنعدم ثقتهم فى « فللوقت أرسل سيافا وأمر أن يؤتى برأس المعمدان » .

أليس عجيبا أن رجلا لم يتورع عن أغتصاب زوجة أخيه وعن سفك الدماء يتشكك فى كسر قسم ما كان يجب أن يقسمه ؟ إنك تظن بأنك ملتزم أن تستمر فى عملك لأنك تعهدت بالقيام به بالرغم من أنك تعلم سوف يجلب عليك الشقاء المقيم ويدفعك لعصيان ناموس المسيح .

لكن قف لحظه وأخبرنى ماذا كانت حالتك العقلية عندما قطعت على نفسك ذلك العهد ؟ ألم تكن تحت تأثير العاطفة ؟ ألم ترسم خطتك فى غبش معلومات خاطئة ، أو تحت تأثير مؤثر شرير طغى على عقلك كمنوم مغناطيسى ؟ وأنت إذ تلتفت الى الوراء الأن وتنظر إليه ألا ترى أنه كان يجب أن لا تقطع على نفسك ذلك العهد ؟ ألا تشعر بأنه لو دار الزمن دورته فإنك لن تقطع على نفسك ذلك العهد ثانية ؟

إذا فاحرص على أن لا تلزم نفسك بأى إلتزام خاطىء . يجب أن تتصرف فى ضوء نور الله الكامل الذى وهبك إياه . حتى أن كنت قد دعوت إسم الله

المقدس فإن الله لا يمكن أن يقر ما تحسبه الأن خاطئا لم يكن لك الحق فى أن تتعهد باعطاء نصف مملكة طبيعتك . فهى ليست ملكا لك بل لله . وإن كنت قد قطعت العهد باعطائها ، وذلك عن طريق الخطأ ، أو سبق الإصرار ، أو العاطفة ، فثق بأنك فى حل بأن تكسر قسمك بالتوبة والإيمان . ان كسر القسم أفضل من إتمامه .

فمضى وقطع رأسه فى السجن » . هل سمع المعمدان شيئاً عن ذلك المجون الذى حدث فى القصر ؟ هل وصل رنين الموسيقى إليه فى سجنه أسفل القلعة ؟ الإرجح إن هذا ما حدث . فإن تلك القلاع القديمة مليئة بصدى الصوت . كان سجنه مظلما ظلاما تاما . لعله كان راقدا على الأرض المجردة من كل فراش ، موثوق اليدين والرجلين . أو لعله على الأكثر إفترش حصيرة من القش .

هل كان عقله يفكر فى تلك الأيام السابقة التى لم ينسها قط حينما إنفتحت السماء فوقه فرأى الحمامة نازلة ؟ هل كان يتعجب منذهلا وهو يسائل نفسه لماذا سمح له أن يترك هناك شهرا بعد شهر ، وقد كمم فمه ، وهو يعانى الآلام المبرحة ؟ آه ، إنه لم يعرف كيف كان قريبا من الحرية .

لقد سمع وقع أقدام فى الدهليز الخارجى، لقد وقفت القدمان خارج سجنه ، وظهر النور من عقب الباب . ثم فتح الباب ، وبعد لحظة رأى بريق السيف . وبدأ يخمن عما عساها تكون ارسالية الجندى . ولم يضيع الجندى أى وقت ، فقد كانت أوامر الملك معجلة ، ولعله أرسل رسالة أخرى وأخيرة الى تلاميذه . وبعد ذلك أحنى رأسه لضربة السيف . فسقط الجسم جثة هامدة هنا ، وطارت الرأس هناك ، وانطلقت الروح حرة لتتمتع بحرية مجد أولاد الله فى عالم المجد . لقد كان السابق (أو ممهد الطريق) للعريس هنا فصار السابق له هناك أيضا . وأنطلق صديق العريس الى البيت لينتظر قدوم العريس ، حيث يسمع الى الأبد ذلك الصوت الذى يحبه .

« وأتى (السياف) برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها » . لم يكن هنالك مجال للحديث الطويل لما كانت المأساة فى طريق التنفيذ . لابد ان الملك وحاشيته كانوا فى أشد حالات الفزع كما كان بيلشاصر عندما كانت اليد تكتب بازاء النبراس على مكلس الحائط كتابة غامضة . وعندما دخل الجندى حاملا على طبق تلك الرأس الكريمة رأوا منظرا لم ينسه البعض منهم

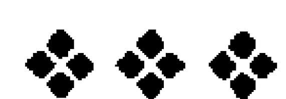
حتى الممات . كثيـرا ما كان هيرودس يراه فى أحلامه وفى نور غروب الشمس . كثيرا ما كان يراه ماثلا أمام عينيه فى الليل والنهار ، ويملأ نفسه بألم مرير لم يستطع أن يزيله سحر هيروديا .

وبعد عدة شهور ، عندما سمع الملك المعذب الضمير عن يسوع قال « هذا هو يوحنا المعمدان الذى قطعت أنا رأسه . أنه قام من الأموات » . وبعد ذلك عندما وقف يسوع نفسه أمامه ورفض أن ينطق بكلمة فلا بد أن يكون قد أحس بأن هنالك علاقة بين صمته وبين الجريمة التى أرتكبها هو .

وهكذا رأينا إن الإرادة – التى طالما داعيت للتجربة فى تلك المرأة الفاجرة – قد أتخذت الخطوة الأثيمة ، وارتكبت الجريمة التى لن تمحى . هنالك فترة تمنح دواما لكى تهيأ الفرصة للنفس المجربة للإنسحاب من شباك التجربة . والسقوط المفاجىء يكون دواما مسبوقا بمداعبة طويلة مع دليلة ، وسقوط الشجرة على الأرض يمهد له السوس الذى يأكل قلبها .

إن كنت قد إتخذت خطوة أثيمة أفسدت حياتك بخطية شنيعة فثق بأن لك مغفرة من الله . قد لا يغفر البشر ، أما الله فإنه يغفر « كبعد المشرق من المغرب يبعد عنا معاصينا » (مز ١٠١ : ١٢) . قد لا نستطيع أبدا العودة الى الخدمة الدينية العامة ، لكننا نستطيع السلوك بإتضاع مع الله ،، وبروح الصلاة ، واثقين من أنه قبلنا وغفر لنا بالرغم من أننا قد لا نغتفر لانفسنا .

لكن أن لم نكن قد وصلنا الى هذا الحد من الأثم فلنشكر الله ، ولنحرص على أن لا يطوح بنا اليه أى مؤثر شرير . وحتى إذا طوح بنا فإننا نستطيع الإفلات من حبائل التجربة ، نستطيع أن نقبل فى طبيعتنا قوة الرب يسوع المسيح الحية ، نستطيع أن نقطع اليد اليمنى والرجل اليمنى ونقلع العين اليمنى التى تعثرنا . أولى بنا أن ندخل الحياة بدون يد أو رجل أو عين من أن نطرح الى الدود الذى لا يموت ونار عذاب الضمير التى لا تطفأ كهيرودس .



- ١٥ -

قبر يوحنا وقبر أخر

(مت ١٤ : ١٢) (١)

عندما يخفت فجـأة صـوت محبـوب ويسـود
الصمت الرهيـب فأى رجاء واية قـوة تقطع
حبل هذا الصمت لا عزاء الأصدقاء ولا أية
حيلة بشـرية لكن صـوت المسـيح الغـالب
هو الذى يستطيع أن يملأ هذا الفراغ

(ا .ب. براوننج)

سبق أن رأينا الجريمة الشنيعة التى أختتمت بها وليمة هيرودس ، رأينا كيف حمـلت سالومى الى أمها على طبق ذهبى رأس المعمدان التى فصلت توا ، لكى يتفرس فيها المجرمان معا . يقول يوسيفوس ان الجسد طرح من سور القلعة وظل ملقى بعض الوقت دون أن يدفن . ونحن لا نستطيع أن نجزم برأى نحو صحة هذا القول . لكن تلاميذ يوحنا سمعوا بطريقة ما عن المأساة التى ختمت بها حياة معلمهم ، فأتوا بالقرب من القلعة لرفع الجسد الملقى على الأرض بكيفية غير كريمة ، أو لعلهم واجهوا الموت فدخلوا القلعة ليلتمسوا أن يعطوا الجسد ، وفى كلتا الحالتين كان عملهم ينم عن شجاعة عظيمة ، كان عملا من أعمال البطولة ، مماثلا لما فعله أهل يا بيش جلعاد الذين ساروا الليل كله الى المكان الذى كان مكتظا بالفلسطينيين ، وذلك لإنقاذ جسد شاول وأجساد بنيه من هيكل بيت شان .

حمل الجسد (بدون الرأس طبعا) الى قبر أما فى جبال موأب العابسة ، أو تلك القرية الواقعة على منحدرات جبال اليهودية الجنوبية التى حفلت بفرح الزوجين المتقـدمين فى السـن (زكريا واليصـابات) من أجل إبنهما الصبى

---

(١) فتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه . ثم أتوا وأخبروا يسوع .

الصغير الذى رزقا به ، وكان ينمو فى رحابهما . وعلى أى حال فأن الله يعرف مكان القبر ، وسوف يقدم هذا القبر يوما ما الى المجد والكرامة ذلك الجسد الذى زرع فى هوان وفى فساد .

وإذ تمم التلاميذ آخر الطقوس الأليمة «أتوا وأخبروا يسوع». فعلى كل حزين أن يسلك نفس الطريق الذى سلكوه ، ويذهب الى نفس المعزى الرقيق القلب العطوف. وان كان أحد ممن يقرأون هذه السطور قد أودع القبر عزيزا له فليسلك الطريق الذى سلكه تلاميذ يوحنا، ليذهب الى القلب الذى لن يوجد له نظير فى المسكونة ، القادر أن يرثى ويعين، لأنه هو أيضا بكى بالدموع على قبر حبيبه (لعازر) بالرغم من أنه كان يخفق بملء القوة الإلهية. أذهب وأخبر يسوع.

عندما تخبره تجد راحة ، بالرغم من أن رئيس كهنتنا الأعظم يعرف كل الأمر لكنه يحب أن يسمعنا ونحن نخبره ، لأن النفس المثقلة بالحزن تجد راحة عندما تقص روايتها عليه ، سوف يقول لك أن أخاك سيقوم ثانية ، ان طفلك محفوظ وسط زهور الفردوس ، ان الذين أحببتهم وخسرتهم منشغلون فى الخدمة العلوية وسط خدمات الأبدية ، ان كل طرفة عين تزيدنا إقترابا من تلك اللحظة التى نتحد فيها بهم بغير إنفصال .

وعلى أى حال فأن حديثنا الآن لايدور حول هذه التفاصيل . لكننا نود أن نستخدم المنظر الماثل أمامنا الأن لنتأمل فى بعض نواحى الموت والقبر ، والأثر الذى يتركه يسوع الناصرى .

(١) أوجه الخلاف بين موت يوحنا وموت يسوع .

كانت هنالك أوجه شبه كثيرة بين حياة كل منهما . فالنهران نبعا من نبع واحد فى واد هادىء بين جبال اليهودية . رقدا فى بحيرات عميقة فى أيامهما الأولى ، فارا بقوة فى تيار شديد عندما حان زمانهما ، ورويا نفس المكان فى الأميال القليلة الأولى .

من الممكن أن نذكر عددا وفيرا من الحقائق البارزة التى إشترك فيها هذان اللذان كانا من عشيرة واحدة ،، فقد أعلن عن ميلادهما وتنبىء عن خدمتهما فى ظروف خاصة . كانت مريم عذراء ، وكانت اليصابات قد تجاوزت السن ، وجاء الى كل منهما ملاك الرب . كان يبدو للعين المجردة أن يوحنا هو الأقوى والأقدر ، لكن يسوع تبعه عن قرب واتخذ رسالة مماثلة عندما أمر الشعب أن

يتوبوا ويؤمنوا بالأنجيل . كانا متماثلين فى أنهما لم يدخلا مدارس الأنبياء ، ولم يندمجا فى أى حزب من أحزاب اليهود الكبيرة . لم يتتلمذ أى واحد منهما على هليل أو شماى ، لم يتخذا أية وظائف كنسية ، ووقفا بعيدين عن الفريسيين والصدوقيين والهيروديسنيين والاسينيين . لقد لفتا الأنظار بجاذبية مماثلة ، والتف حولهما الجموع بكيفية مماثلة ، ووبخـا الشعب على نفس الخطايا . وإذ رفعا نفس العلم دعا كل منهما الناس لترك الشكليات والرياء وإتبـاع البر والحقيقة ، وقوبل كل منهما بحقد القادة الروحيين فى أمتهما ، وختمـت حياتهما بموت شنيع ، الواحد بطش به السيف فى سجن قلعة هيرودس ، والأخر رفع على الصليب على يدى بيلاطس وأيدى جند الرومان . وختمت حياة كل منهما بموت شنيع على أيدى أولئك الذين عاشا لأغاثتهما ، ومات كل منهما عندما كانا لا يزالان فى عنفوان الشباب وعندما كانت لحياتهما رائحة عطرية ، والتف حول جثتيهما حفنة من أتباعهما الأمنا .

لكن الى هنا تنتهى أوجه الشبه وتبدأ أوجه الخلاف ، فإن موت يوحنا كان نهـاية حياة نافعة عظيمة . عندما مات قال الناس : أسفا ، لقد خمد صوت نبى . أسفا ، لقد بطش به الظالم فى لحظة من لحظات نشوته . ليرقد فى التراب . سوف تكون الراحة حلوة لذلك الذى أنهك قوى شبابه بمنتهى الإسراف . ان أمثال هذا الرجل نادرون . يندر أن يجود الزمان بمثله .

لكن عندما نلتفت الى موت يسوع يتملكنا شعور آخر غير شعور التأسف والإشفاق . فإننا لا نعجب ولا نحزن إذ لا نرى فيه قط نهاية لعمله ، بل بالعكس نرى بداية له . لقد وقعت حبة الحنطة فى الأرض لتموت ، لكى لا تبقى وحدها بل تأتى بثمر كثير . هنا نرى فى الصليب ملتقى مياه كثيرة تنبع من أعماق لا يمكن أن يسبر غورها ، وهى لشفاء الأمم . هنا نرى الذبيحة تقدم وهى التى تكفر عن خطية الإنسان وتمنح السلام لربوات التائبين . هنا نرى أدم الأخير على شجرة يبطل العمل المميت الذى أتمه أدم الأول عند شجرة أخرى ليس هذا موت شهيد ، بل ذبيحة سبق أن دبرت وأعدت . وقد ظهرت نتائجها فعلا فى مغفرة الخطايا التى سبق أن أرتكبت . هذه حادثة قد مهدت لها عشرات الأجيال السابقة ، وتنتظر إليها عشرات الأجيال اللاحقة . لم يحدد موت يوحنا ألا مصيره ، أما موت يسوع فقد حدد مصير جنسنا ، فهو حمل الله الذى يرفع خطية العالم كما قال سابقه . ولقد وضع عليه أثم جميعنا .

لكن هنالك وجه آخر للخلاف . ففى حالة يوحنا لم يكن له أن يتحكم فى مصيره ، لم يكن ممكنا له أن يوقف سير الحوادث. لم يكن له إلا أن يخضع . لما بدأ خدمته لم تكن لديه أقل فكرة إنه سيلقى هذا المصير ، وعندما وقف بشجاعة فوق منبره المنحوت فى الصخر ، وكرز للجموع الملتهفة لسماعه ، هل تظن أنه جال بخاطره أقل فكرة أن طريقة المفروش بالزهور والمزدان بالمديح يمكن أن ينتهى بوحشة السجن المقام فى برية قاحلة لا يسكن فيها إنسان ولا يجيء إليها أحد ؟ أما يسوع فقد قصد من البدء أن يموت .

لو أنك كنت قد رأيت التصميم الإبتدائى الذى رسم لكاتدرائية كولونيا منذ ثمانية أجيال ، والتى لم يتم بناؤها الفخم ألا منذ بضع عشرات السنين ، لاقتنعت أن ذلك البناء الشامخ عندما يتم سيضم صليبا . هكذا كانت تنبيء حياة يسوع منذ البداية أن الجلجثة تنتظرها . لقد قبل سلطانا ووصية من الأب لكى يضع حياته . لأجل هذا ولد ، ولأجل هذا جاء الى العالم . يموت الناس لأنهم ولدوا ، أما يسوع فقد ولد لكى يموت .

رسم Millais ميليز صورة عظيمة لحانوت يوسف النجار ، وبين فيها بألوان زاهية ظلال الصليب على حائط خلف الصبى يسوع . ورسم فيها مريم تتطلع الى هذه الظلال، والفزع باد على وجهها . هذه فكرة حقيقية ، فإن ظلال الصليب كانت ماثلة أمام إبن الإنسان منذ البداية أنه لم يخدع قط بصدد موت الصليب . لقد أخبر نيقوديموس أنه ينبغى أن يبذل نفسه من أجل الخراف . وأكد لتلاميذه أنه سوف يسلم لرؤساء الكهنه والكتبة الذين سوف يحكمون عليه بالموت ويصلبونه ويقتلونه . ان حاجه الأنسان الأولى ليست الى المعلم ، أو المثال الذى يحتذى ، أو صانع المعجزات ، بل الى المخلص الذى يستطيع أت ينوب عنه ، ويبطل خطيته بذبيحة نفسه . عندما تثقل النفس بثقل خطاياها . ويتعب الضمير ، فالى أين نلتفت ألا الى الصليب الذى مات عليه رئيس المجد .

أى جواب يمكن إعطاؤه لتفسير التأثير العجيب الذى يحدثه صليب المسيح فى قلوب البشر ؟ إنه لا يمكن أن يعزى لتأثير البيئة الأولى ، إو الى تأثير الوراثة ، أو الى إننا قد تحدرنا من أجيال تقية ؟ لأنك إذا كرزت بالصليب فى القبائل الوثنية المتوحشة ، حيث لم يعرف شيء عن المسيحية فى القرون السابقة ، فإن تنهدات النفس تهدأ ، وفزعها يتلاشى حالما تبدأ بالتحدث عن

أهمية الصليب . وتتحول دموع الألم والحزن الى دموع التوبة ، ويبدأ الرجاء الجديد بأن ينسج أثواب طهارة جديدة لن يستطيع موت أى شخص أخر أن يحـدث مثل هذا التحول السريع . ألا يمكن القول ان هذا يعتبر دليلا على أن موت يسوع فريد ، وأنه أسمى مظاهر المحبة ، وإنه هو هبة قلب الآب الذى يعرف حاجة العالم والطريق الوحيد لسد هذه الحاجة ؟

(٢) إوجه الخلاف بين قبر يوحنا وقبر يسوع :

يزعم بعض البشر أن الرب لم يقـم حقا من المـوت ، وأن رواية القيامة إن لم تكن من صنع الخيال فهى ترديد لأسطورة قديمة . لكن كلا من هذين الزعمين وأه جدا .

فمن الناحية الواحدة أنه من السخافة الزعم بأن هيكل الحق يشيد من صنع الخيال ، من المستحيل الإعتقاد بأن النظام الوحيد فى عالم الذهن الذى جذب المخلصين الأمناء الى أتباعة ، وبعث فى الناس فى كل الأجيال رغبة البحث عن الحق ، وقد خلقته الأوهام والأباطيل .

ومن الناحية الأخرى أنه من المستحيل أن تجد الأسطورة وقتا لتنمو فتظهر الى عالم الظهور فى الحقبة القصيرة التى إنقضت بين موت المسيح وبدء الكنيسة.

وبهذه المناسبة يجدر بنا التأمل فى عبارة واحدة رواها الكتاب . فإنه يخبرنا أن هيرودس لما سمع عن أعمال المسيح قال فى الحال « هذا هو يوحنا المعمدان . أنه قام من الأموات » لم يصدق هيرودس أن تلك الشخصية العظيمـة أنطفأت ، حتى فى هذه الحياة ، بضربة واحدة بالسيف . يقينا أنه قام . لقد كان يفزع جدا لئلا يقف أمامه ثانية يوحنا الذى لم يغب عنه وجهه قط فى أحلامه . أما حاشيته فقد كانوا يشاركونه فى وساوسه . كانوا يحدثون بعضهم بعضاً قائلين « لقد قام يوحنا المعمدان من الأموات » .

إذا لماذا لم تنتشر هذه الخرافة حالا ؟ لم تكن هنالك فرصة لعمل كهذا لهذا السبب البسيط وهو أن قبر يوحنا المعمدان كان قائما ليدحضها . لو كان هيرودس قد صدقها بصفة جدية، أولو أن تلاميذ يوحنا حاولوا نشرها، لكان أيسر شيء يعمل هو إخراج الجثة من القبر وتقديم الدليل المادى على عدم صدق أوهام الملك.

عندما بدأت الحقيقة تنتشر ، وتصدق بأن المسيح قام من الأموات ، عندما وقف بطرس ويوحنا وأكدا أنه حى عن يمين الله ، فلو كان هذا مجرد أوهام ،

وانخداع القلوب المخلصة الأمينة ، وهلوسة أمرأتين أو ثلاث أصبن بالهستريا ، ألم يكن من الميسور لأعداء المسيحية الذهاب فى الحال الى القبر فى بستان يوسف وإخراج جسد المصلوب يحمل أثار المسامير فى اليدين والقدمين ؟ لماذا لم يفعلوا هذا ؟ .

وان قيل أنه لم يكن ممكنا إخراج الجسد لأنه قد سرق ، قدمنا هذا السؤال الأخر : من ذا الذى سرقه ؟ لا يمكن أن يكون أصدقاؤه والا لكانوا قد أخذوا الأكفان التى لف بها يوسف ونيقوديموس الجسد . ولا يمكن أن يكون أعداؤه ، وألا لكانوا قد أسرعوا فى إظهاره . أى سرور كان يظهر على وجه قيافا وحنان لو أنه فى إجتماع السنهدريم الذى دعى لمعالجة هذه الهرطقة الجديدة (فى نظرهم) قد أعطى برهان قوى على أن جسد يسوع لا يزال مدفونا ، ان لم يكن فى قبر يوسف ففى مكان أخر قد نقله إليه أعوانهم .

أنه من العسير أظهار كل نواحى أهمية أوجه الخلاف هذه . ولا يمكن للنفس التقية الا أن تجد تعزية فى المقارنة بين زعم الملك المستسلم لأوهامه الذى كان يمكن بسهولة أقامة الدليل ضده بإظهار جسد المعمدان ، وبين مناداة التلاميذ التى تأيدت بحالة القبر الذى أصبح فارغا فى صباح اليوم الثالث بالرغم من حراسة الجند الرومانيين . توقع هيرودس أن يقوم يوحنا ، وأيد أشاعة قيامته بسلطته الملكية ، لكنها سقطت على الأرض ميتة لساعتها . أما التلاميذ فلم يتوقعوا قيامة يسوع ولقد إعتقدوا أن النسوة كن خاطئات عندما أتين مؤكدات القيامة . لكن لم تمض ساعات حتى ذاعت أنباء القبر الفارغ ، وأيدتها رؤية الرب المقام ، واقتنعوا أن من صلب فى ضعف حى بقوة الله . وللحال لم يكن هنالك أقل تردد فى رسالتهم الى العالم « اله أبائنا مجد فتاه يسوع الذى اسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم باطلاقه ، ولكن أنتم انكرتم القدوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل . ورئيس الحياة قتلتموه الذى أقامه الله من الأموات » (اع ٣ : ١٣ – ١٥) .

فشكرا له لأننا لا نتبع خرافات مصنعة مختلفة . « ولكن الأن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين . فإنه إذ الموت بانسان بانسان أيضا قيامة الأموات » (اكو ١٥ : ٢٠ و ٢١) .

(٣) أوجه الخلاف بين تأثير موت الأثنين على إتباع يوحنا المعمدان وعلى إتباع يسوع .

أية صورة يمكن أن يرسمها الفنان البارع عن الشعائر التى أقيمت لجثة المعمدان العظيم؟ الأرجح أنه لم يكن بين تلاميذه أمثال يوسف أو نيقوديموس. والمؤكد أن المجدلية وأمه لم تكونا موجودتين ، فقد حمله رجال أتقياء وعملوا عليه مناحة عظيمة . لقد علمهم أن يصلوا ، ويعرفوا الله ، وان يستعدوا لمجيء ملكوت الله . وكثيرا ما صاموا إطاعة لتعاليمه . لكنهم كان لا بد أن يختبروا معنى الصوم بكيفية جيدة الأن . وقد أخذ عنهم قائدها .

عند قبره تفرقت تلك الجماعة القليلة . لقد قالوا : الوداع له . الوداع لخدمتهم ورسالتهم . الوداع كل للأخر .

قال أحدهم : إننى أعود الى سفنى وشباكى . وقال الأخر : إننى أعود الى مزرعتى . وقال الباقون : إننا نذهب وننضم الى يسوع الناصرى . الوداع ، الوداع . وهكذا تفرقوا على أن لا يجتمعوا مرة أخرى كجماعة .

عندما أودع يسوع القبر بدأت فى الحال عملية التفكك هذه أيضا بين أتباعه . فالنسوة ذهبن الى القبر حاملات الحنوط ، أما الرجال فانصرفوا . وانفصل بطرس عن يوحنا ، لكنهما على الأقل ركضا معا الى القبر . ولكن أين البقية ؟ ذهب إثنان الى عمواس وحدهما . وتوما لم يكن معهم عندما جاء يسوع إليهم مساء يوم القيامة . حالما تفارق النفس الجسم تبدأ عملية التفكك والتحلل ، وعندما مات يسوع - حسب زعمهم - بدأت عملية التفكك تظهر فيهم . فبطرس ود أن يذهب فى الحال الى جنيسارت ، ونثنائيل الى شجرة التين ، ولوقا الى عيادته ، ومتى الى مكان الجباية .

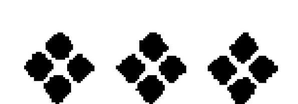
ولكن ماذا أوقف هذه العملية وجعلها مستحيلة ؟ لماذا رأينا اليوم الذى بدأ بقدر كبير من التفكك ينتهى بتماسك قوى جدا حتى أنهم فى معظم الأوقات كانوا يجتمعون معا فى العلية، وبعد أربعين يوما كان الجميع بنفس واحدة فى مكان واحد؟ لماذا رأينا أولئك الذين كانوا قبل موته فى منتهى درجات الجبن كالغزال قد أصبحوا كأسود أمام عاصفة حقد الفريسيين ، وإزدادوا قوة على مر الأيام ؟

لا توجد سوى إجابة واحدة لهذه الأسئلة . لقد اقتنع أتباع يسوع بادلة لا تنقص بأن معلمهم حى عن يمين القوة ، بل أنه معهم كل الأيام وأقرب

إليهم مما كان من قبل ، وبأنه هو رأسهم وقائدهم كما كان الحال من قبل . إذا ضرب الراعى تشتت الرعية ، أما هذه الرعيـة فلم تتشتت لأن الراعى شفى من جرحه المميت وهو حى الى الأبد .

ويقينا ، أن الدليل الذى كان كافيا لهم كاف لنا نحن أيضا ، فى مرار كثيرة ، عندما كنت أتوق فى أحلك الساعات الى براهين حسية تضاف الى براهين الأيمان ، كنت أجد تعزية كبيرة جدا بأن براهين كافية قد أعطيت لتلاميذ الرب لاقناعهم ، على غير ماكانوا ينتظرون ، وهم فى وسط شكوكهم ، ولجمع شملهم بالرغم من العوامل الكثيرة التى كانت تعمل على تشتتهم ، ولتحويل جماعة من الأفراد الى كنيسة لم تقو عليها قوات الجحيم . ان كانوا قد اقتنعوا فنحن كذلك يمكن أن نقتنع . ان كانت أعينهم قد رأت جسد الرب المقام ولمسته أيديهم فإن هذا يشجعنا ويعزينا . وقد برهنت تصرفاتهم على أنهم أقتنعوا إقتناعا كليا . فقد تصرفوا كما يتصرف الذين ثبتت أقدامهم على صخر . لقد عرفوا من آمنوا به ، ولم يكن لديهم أقل شك فى أنه سوف يكمل العمل الذى بدأه ، وأنه سوف يكمل بالروح ما بدأه بالجسد .

قال عنه بطرس فى الأيام التالية بأنه رئيس الحياة . وهذه توحى إلينا الفكرة بأنه سائر أمامنا فى كل الأجيال ، ومجتازا إبواب الموت والقبر ، فاتحا أياها لنا ، وفاتحا الطريق الى الحياة الأكثر كمالا وفيضانا فلنتبعه . لا يليق بنا أن نطيل الإنتظار حول القبر ، فإنه حتى تلاميذ يوحنا أبوا أن يفعلوا هكذا . بل لنتحد بالأيمان برئيس الحياة ، بقائدنا ، لأنه ينتظر لكى يغنينا من المجد الأسنى ، واثقين بأننا سنكون حيث يكون هو ، وواثقين فى نفس الوقت أنه ليس فى القبر ، لكنه قام وصعد وتمجد ، وإنه هو عمانوئيلنا وعريسنا ومحبتنا وحياتنا . «الرب راعى فلا يعوزنى شىء . فى مراع خضر يربضنى . يهدينى . يرد نفسى إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معى » .



وان مات يتكلم بعد

(يو ١٠ : ٤٠ - ٤٢) (١)

اضيء علينا يارب يا نور البشر الحقيقى
وأعلن لنا ذاتك فى كتابك المقدس حتى
يتعلم صغارك عجائب من نعمتك إذا ما
تفرست قلوبهم الملتهبة فى وجهك المنير

(ج . الرنون)

« الى عبر الأردن » ، كان هذا بمثابة أبعاد للمسيح فى نظر اليهود الساكنين في أورشليم ، لأن البقعة التى فى « عبر الأردن » (وتسمى بيرية) كان يندر وجود السكان فيها .

كانت توجد بها بضع قرى خصبة الأراضى مبعثرة فيها ، لكن لم يقطن بها شخص له حيثية ، ولم يتوفر فيها شيء من وسائل الراحة التى توجد فى المدن الكبيرة ، ولا أية إمتيازات دينية ولا شيء من الحياة الإجتماعية . هناك قضى الرب الشهور الأخيرة القليلة من حياته المنوعة الحوادث .

لكن لماذا ؟ لماذا بعد ابن الأنسان نفسه عن المدينة التى أحبها جدا ؟ يقينا أن بيت لعازر واختيه فى بيت عنيا كان يرحب به . وان كان قد جد طارىء على لعازر واختيه فوق مقدروهم لكان ممكنا أن يجد له مأوى مؤقتًا فى الناصرة حيث تربى . أو كان ممكنا ان كفر ناحوم - التى عمل فيها الكثير من معجزاته - تقدم اليه أحد قصورها الفخمة . لكن كلا ، فابن الانسان لم يكن

(١) « ومضى أيضا الى عبر الأردن الى مكان الذى كان يوحنا يعمد فيه أولا ومكث هناك . فاتى اليه كثيرون وقالوا أن يوحنا لم يفعل آية واحدة . ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا كان حقا فآمن كثيرون به هناك » .

له أين يسند رأسه . لقد رفضته الأمة التى كان هو زهرتها البيضاء . ولم يعرفه العالم الذى جاء ليسفك دمه من أجله . وكان قادة الدين فى عصره يتعقبونه بحقد بغيض ، يريدون قتله قبل ان تحين الساعة المعينة ، لولا أنه هرب من أيديهم ومضى بعيدا « الى عبر الاردن الى المكان الذى كان يوحنا يعمد فيه أولا . ومكث هناك . فأتى اليه كثيرون » .

فى هذا المكان الموحش وجد الرب يسوع جاذبية خاصة لأنه ذكره بالمعمدان . لقد طالما اكتظ بالجماهير . وتلك الجبال طالما غطت سفوحها الخيام والمظال التى أقام فيها جموع كثيرة ينتظرون سماع عظاته . وذلك الشاطىء شهد معمودية ألوف الشعب الذين كانت ترمز معموديتهم الى توبتهم عن خطاياهم . واولئك القرويون الذين كانوا يعيشون حول ذلك المكان كانوا يروون قصصا عجيبة عن تلك الخدمة الجليلة القصيرة الأمد . كانوا يتحدثون ساعات طويلة عن عادات ذلك الواعظ المتقشف وعن قوة بلاغته .

عندما كان يتجول يسوع وتلاميذه من مكان الى مكان كان اندراوس يشير الى المكان الذى تعمد فيه ، وكان هو ويوحنا يتذكران المكان الذى كانا واقفين فيه عندما أشار معلمهم العظيم الى يسوع وهو سائر وقال « هوذا حمل الله» . وكان برثولماوس يجد المكان الذى قال فيه يسوع عنه أنه إسرائيلى لا غش فيه ، وهذه تحية اعدته لها كرازة المعمدان ، وكان أثنان أو ثلاثة يحددان المكان الذى فيه ابتدر وفد السنهدريم المعمدان بهذا السؤال « من أنت ؟ » .

هنا أتى المسيح وتلاميذه ليشهدوا مرة أخرى تلك المناظر السابقة التى رأى فيها الكثيرون منهم أبواب السماء تفتح لأول مرة .

والأرجح أن الرب استأنف هنا كرازته . فانه لم يكن ممكنا ان يوجد فى أي مكان تستدعى فيه خطايا البشر وآلامهم كرازته دون ان يكرز . والأرجح أيضا أن الناس هناك احضروا اليه العرج والعمي والمفلوجين فشفاهم أجمعين .

لقد اتى اليه الكثيرون وعادوا وقد نالوا البركة والمعونة . الأمر الذى اضطر الناس الى المقارنة بين الخدمتين . وكانت فى كلماتهم رائحة التحقير لخدمة المعمدان . فأتى اليه كثيرون وقالوا ان يوحنا لم يفعل آية واحدة . لم يشف أعرجا ، ولم يفتح فم اخرس ، ولم تتقبله ارملة أبنها وقد قام من الأموات على يديه ، ولم يطهر ابرصا . كان حقا « ان يوحنا لم يفعل آية واحدة » .

لكن مع رائحة التحقير هذه امتزج مدح كريم له واعترف بجميله « ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا كان حقا» . لقد قال أنه حمل الله، أى انه طاهر ، ورقيق وقدوس ومسالم وبلا دنس وكان هذا حقا . لقد قال أنه سيمسك رفشه بيده وينقى الحنطة من التبن ، وكان هذا حقا. لقد قال أنه سيعمد بنار، وكان هذا

حقا. لقد قال أنه هو عريس اسرائيل، وكان هذا حقا. صحيح أنه لم يفعل آية واحدة ، لكنه تكلم كلمات قوية حقيقية عن يسوع ولقد تبينت صحتها بشدة .

أما أهل بيرية هؤلاء ، البسطاء القلب ، فلقد فعلوا مالم يفعله الفريسيون والكتبة بالرغم من ادعائهم الحكمة. فانهم قارنوا كلمات المعمدان بحياة يسوع، واستنتجوا انه طالما كانت هذه توافق تلك كموافقة المفتاح للقفل ، فلا بد أن يكون يسوع هو ابن الله حقا وملك اسرائيل ، « فآمن كثيرون به هناك » .

(١) الحياة بدون معجزات :

لقد مال الناس الى التحقير من شأن حياة يوحنا لأنها كانت خالية من المعجزات. لكن يقينا أن حياته كلها كانت معجزة ، فانها من البداية الى النهاية كانت تتسم بالقوة الألهية ، وهل صحيح أنه لم يفعل آية واحدة ؟ ان كان لم يفتح أعين العميان ألم تتفتح – بفعل كلماته – بصائر الكثيرين ليروا أنفسهم أنهم خطاة ، والعالم كظل زائل ، والأبدية أنها هى الوحيدة الدائمة والمشتهاة؟ ان كان لم يضع يده الكهنوتية على لحم الأبرص كما فعل يسوع ألم يرجع برص كثيرون عن برص الخطية من مياه معموديته بعزم جديد ومقاصد نبيلة معتزمين على أن لا يخطئوا مرة أخرى؟ ان كان لم يقم أجسادا مائتة ألم يسمع صوته الكثيرون ممن كانوا مدفونين فى قبور الكبرياء والشهوة ومحبة العالم ، وخرجوا الى الحياة التى هى حياة حقيقية ؟ وبعد ذلك يقال انه لم يفعل آية واحدة ! يقينا أن حياته كانت سلسلة معجزات، منذ ولادته من الشيخين المتقدمين فى أيامهما الى آخر لحظة فى احتجاجه ضد جرائم هيرودس .

لا زالت هذه هى غلطة البشر ، فانهم يدعون أن عصر المعجـزات قد مضى . ان اعترفوا بأن أمثال تلك المعجزات ربما تكون قد حدثت مرة اكدوا أن العالم قد تقدم وفات مضمارها ، وان الجنس البشرى قد نضج فنبذها كأمور صبيانية . أنهم يتوهمون انه أما أن يكون الله غائبا عن الكون ، أو أن النواميس التى أسسها تقيده كما قيدت الأكفان لعازر .

كيف يقولون انه لا معجزات ؟ ألا يعلمون أن البذار التى تبذر ينميها هو حتى تكفى كل الكرة الأرضية بنفس السهولة التى بها أشبع أكثر من عشرة آلاف من خمسة أرغفة الشعير ؟

كيف يقولون لا معجزات ، وهو الذى يحول ندى الليل وأمطار الصباح الى خمر يفرح قلب الانسان فى الكروم كما حول الماء خمرا فى عرس قانا الجليل؟

ان قالوا لا معجزات فليفسروا كيف لا يغوص الثلج الى قاع الأنهار والبحيرات وهو أكثر كثافة من الماء ، لكنه يطفو على وجهه فيقدم طريقا لعبور الأنهار من شاطىء لآخر كما مشى يسوع مرة على الماء فى شواطىء بحيرة الجليل .

كيف يقولون لا معجزات وهو الذى طهر بالأمس ابرصاً ، وشفى مريضا بالخطية ، وأقام من النعش شابا ميتا بالذنوب والخطايا ، وأمسك بيد صبية وقال لها : طابيثا قومى .

بينما كنت أمر رأيته يضرب الصخرة فتفجرت منها ينابيع دموع رأيت خشبة تحمل فوقها القدوس البار ، فكف سم الحية عن ان يؤذى البشر ، رأيت الحديد يطفو على سطح المياه مخالفا نواميسه الطبيعية ، والأسد جاثما كأنه قد رأى ملاك الله بسيفه المتقد ، والبحار شقت طريقا لشعب الله ، والمياه ارتدت الى الوراء عند لمسه أقدام الكهنة لكى تفتح طريقا فى أعماقها . كلا ، فان هذا لا يزال عصر المعجزات .

ينبغى أن لا نحقر من شأن العصر الذى نعيش فيه . من الخطأ بل من الجهل ان تنظر بتأسف الى يوم الخمسين كأنه كان هنالك قدر من الروح القدس يومئذ أكثر مما هو اليوم ، أو كأن العلية وقتئذ كان فيها من حضرة الله أكثر من الغرفة التى تجلس فيها أنت الآن . قد لا نسمع صوتا كما من هبوب ريح ، وقد لا نشهد ألسنة من نار ، ولا نرى آية تذهل وتلفت الأنظار ، لكن الروح القدس لا يزال مع الكنيسة فى كمال ملئه كما كان فى القديم ، والنهر يجرف فى تمام فيضانه ، والجو لا يزال مليئا بحضرة وقوة الروح القدس المعزى ، وان كانت ومضات البرق لا ترى .

لقد قال الرب عن المعمدان أنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم منه بالرغم من أنه لم يفعل أية واحدة ، ولعله يقول أن هذا الجيل أعظم من كل الأجيال السابقة بالنظر الى امكانياته . قد يكون فى نظره أن أعمالا جليلة يمكن أن تفكر فيها وتتممها كنيسة اليوم أعظم من ذلك العصر الذى فيه قضت على كل قوات العبادة الوثنية .

وان كان هنالك أى فشل فالسبب راجع الينا . اننا لا نؤمن بقوة الله وحضوره الدائم معنا لأننا لا نرى العلامات المنظورة لعمله . لقد توهمنا أنه ليس هنا لأنه لم يكن فى النار ولا فى الزلزلة ولا فى الرياح الشديدة التى تشق الجبال . لقد تعودنا أن نقرن الله بالأمور المفزعة والمنظورة ، ولذلك نعجز عن أن نراه عندما نرى السماء مرصعة بالنجوم والأرض مزينة بالزهور ، كأن البرق أفعل فينا من نور النجوم والقوات الهدامة المخربة أفعل من القوات الهادئة الرزينة البانية التى تفعل بصفة مستمرة فى بناء الكون واصلاحه .

لا تنظر الى الوراء للتجسد ، ولا تنظر الى قدام للمجىء الثانى ، كأن قوة الله فيهما أكثر مما هو فى مقدورنا . ان الله كائن ، كائن هنا ، غير قابل

للتجزئة . والله بكل ملئه موجود فى أى وقت وفى أى مكان . قد يختار أن يعلن نفسه فى علامات منظورة تؤثر على العقل فى وقت أكثر من أى وقت آخر . وأيمان الكنيسة قد يكون أسرع فى الأدراك والفهم والقبول فى عصر عما هو فى عصر آخر . لكن كل الأوقات عظيمة ، وكل عصر هو صنعة يديه ، مملوء بقوته المعجزية مثل الآخر . ومما يؤسف له أن عيوننا أمسكت عن أن ترى .

ينبغى أن لا نحقر من شأن أى شىء عادى : لقد تعلمنا كلنا أن نجرى وراء كل ما هو غير عادى – وراء السياسى المبتكر، وراء النقاش المبدع ، ووراء الواعظ الذى يخلب العقول بفصاحته وبلاغته ، ووراء الموسيقى الذى يتقن فنه اتقانا غير عادى . فنحن نحب المعجزات . كل ما يشبع فينا محبة الأشياء غير المنتظرة المثيرة ينتزع منا تقديرنا للأشياء البسيطة العادية . فى وقت كسوف الشمس نتطلع كلنا الى السماء ، لكن يندر فينا من يتطلع الى السماء لما تكون الشمس مشرقة اذا أقيمت زينة بالأنوار خرجت كل المدينة لرؤيتها ، بينما يندر أن يلتفت أحد الى أنوار النجوم .اذا أقيم معرض عرضت فيه الزهور الشاذة ، تحركت الجماعة كلها ، ولكن من ذا الذى يرتحل مسافة تساوى مسافة المعرض لكى يرى زنابق الحقل الجميلة ؟ هكذا نرى أن أذواقنا مختلة وعمياء .

جميل أن تكون لنا أذواق بسيطة . فالقلب الطاهر البسيط يجد لذة فائقة فى كل ما خلقه الله ، ولو كان مألوفا ، كمرعى يتلألأ بندى السماء ، أو حقل برسيم ، أو مجرى مياه تتكسر مياهه فوق حصى الصخور ، أو حفيف الريح . ان كنا نطلب دواما شيئا جديدا ، شيئا مثيرا ، آية تلفت الأنظار ، كان هذا علامة على طبيعة ضعيفة غير مستقرة . يطلب الكتبة والفريسيون بالحاح قائلين « أعطنا آية من السماء » . واذا ما انفتحت الشهية لما أمكن أشباعها قط ، لكنها فى كل مرة تتطلب أشياء أكثر أثارة ، وأشد غرابة عن سابقاتها . فاقنع بالخدمة المقدسة التى لا تبهر العيون باعمالها النارية ، لكنها تكتفى بأن تعكس النور الهادى الخفيف . لا تكن مغاليا أو متطرفا فى أى شىء . ليلفت نظرك واهتمامك لعب الأولاد ، الأعمال اليومية العادية للخدم ، متاعب ودموع البنات العاملات ، الخادمات اللاتى يقمن بالاعمال الدنيئة ، والصبية الذين ينظفون حذاءك . لا تتطلع من النافذة دواما انتظار لمرور الجوقة الموسيقية فى الشارع ، بل قف أمام باب بيتك انتظارا لمرور الأشخاص العاديين المتعبين والثقيلى الأحمال ، لتسدى اليهم معروفا ، أو تطيب خاطرهم بكلمة رقيقة .

ومما يلاحظ أنه فى كل هذه الحالات توجد مآس كثيرة ، توجد مادة لكتابة روايات وكتب طويلة . كل الحياة ملفتة الأنظار . لكننا فى حاجة الى العيون

التى ترى ، والقلوب التى تفهم . لم يوجد عصر أعظم من هذا ، ولا يوجد جزء من العالم ممتلىء من الله أكثر مما تعيش فيه.لا يوجد هنالك سبب - يدعوك أن لا تعتقد بأنه قادر أن يخلق من أشر شرير أقدس قديس ، وأن يحضر على مائدتك كما حضر على مائدة العشاء الربانى مع تلاميذه ، وان يقدس عائلتك فيجعلها عائلة مقدسه . وذلك فقط ان كانت لك العين المقدسة . ان كان العالم يبدو عاديا أو نجسا فى نظرك فان العيب فى عينيك اللتين جعلته هكذا .

وينبغى أن لا نحقر من شأن أنفسنا . اننا نعرف محدوديتنا ، ونعرف أننا غير قادرين على عمل المعجزات . وأصدق أصدقائنا يعرفون هذا جيدا لأنه لا توجد عين أحدٍ من عين المحبة . اننا عصافير لا طيور جارحه ، طين لا رخام ، خشب أبيض لا خشب ماهوجونا . لكن ان كنا لا نقدر أن نفعل المعجزات فأننا نستطيع أن نتكلم كلمات صادقة قوية عن يسوع المسيح ، نستطيع أن نشهد عنه بأنه هو حمل الله ، نستطيع أن نحث الناس على ان يتوبوا ويؤمنوا بالأنجيل . لو أن العالم أعتمد كلية على صانعى المعجزات والافذاذ لأصبح فى أسوأ حال . ولعله ليس مدينا لهم أكثر مما هو مدين لربوات الأشخاص المنسيين من البسطاء المتواضعين المجهولين العاديين ، الذين لن تدون أسماؤهم فى سجلات التاريخ ، لكن حياتهم قد وضعت الأساس الذى بنى عليه البناء الشامخ للنظام الحسن والحكومة الصالحة ورخاء العالم .

اذكر ان الله هو الذى جعلك ماأنت عليه ، ووضعك فى الوضع الذى أنت فيه . يكفيك أن تكون تابعا للمسيح بسيطا متواضعا مخلصا . لا تحاول أن تقلد هذا الخطيب الفصيح أو ذاك ، أو هذا الزعيم أو ذاك . يكفيك أن تعرف الغاية التى لأجلها خلقك الله ، وان تحقق هذه الغاية على أحسن وجه ، وفوق كل شيء ناد بالحق كما أعلنه لك الله دون أى تحريف أو مبالغة أو نقصان . وبعد أن تنتقل من هذا العـالم سيجتمع حول قبرك أولئك الذين يذكرونك ويقولون : أنه لم يصنع آية واحدة ، لم يكن فى حياته أى شيء مثير أو غير عادى ، لكنه نطق بحقائق صادقة عن يسوع المسيح اختبرناها لأنفسنا وهى حقـائق لا تدحر ، دفعتنا الى أن نؤمن به .

(٢) الطرق التى بها يمكننا أن نشهد للرب يسوع

حياتك خالية من المعجزات أيها القارىء العزيز. قد لا تكون من الأفذاذ المفكرين الخارقى العادة، أو من الخطباء الفصيحين . أو الأثرياء، بل تحصل على قوتك الضرورى دون أن توفر شيئا. قد لا تكون من أسرة تفخر بقديسيها أو أبطالها ، واذ تتطلع الى أعمالك اليومية تجدها عادية جدا تستطيع أن تعمله كما رأينا فيما سبق، ذلك هو أنك تستطيع أن تشهد ليسوع كما فعل المعمدان.

تكلم مع الآخرين على انفراد . لما لم يكن الا تلميذان واقفان بجوار يوحنا ، القى نفس العظة التى القاها الى الجماهير فى اليوم السابق ، واذ سمعه التلميذان يتكلم تبعا يسوع . لا يوجد شيء يكشف طبيعة الانسان بقدر عادة العمل الفردى ، التحدث للافراد عن محبة الله . ونحن لا نستطيع أن نفعل هذا الا أن كنا نعيش فى صلة كاملة معه . لا يوجد شيء يختبر النفس كهذا . من اليسير القاء عظة عندما تكون الحياة الداخلية عديمة الصلة بالله ، لأنك تستطيع أن تعظ عن مثلك العليا أو تهاجم فى الآخـرين خطـاياهم التى تكون أنت شخصيا واقعا فيها . أما التحدث مع آخر عن المسيح فهذا ينم على أن الجو صاف جدا بين المتحدث وبين الرب الذى يتحدث عنه .

وكما أن هذا الأختبار هو أشق الأختبارات فأنه أكثرها بركة فى تأثيره . لأنك عندما تأتى بشخص آخر الى المسيح فأن هذا معناه أنك ازددت اقترابا منه (من المسيح) . ولما تدلك أطراف شخص كاد يتجمد من البرودة فانك تدفيء نفسك أنت أيضا . ولما تفتش عن خروف واحد ضال فانك تشارك الراعى أفراحه .

فعلى كل واحد منا أن يمرن ذاته على أن لا يدع يوما واحدا يمر دون أن ينتهز الفرصة التى يهيئها له الله للاتصال بالآخرين ، سواء كان ذلك بخطابات يرسلها الى الأهل والأصدقاء ، أو بالاتصال الشخصى المباشر .

ويبدو أن الرسول اندراوس كرس حياته لهذا النوع من الخدمة بصفة خاصة . ففي كل المناسبات التى فيها ورد ذكره فى الأناجيل نجده يتصل بالأفراد . لقد أتى بأخيه الى المسيح ، وكان أول من بحث عن ولد ليأتى به الى حضرة المخلص . وقبيل انتهاء خدمة الرب تراه يقرب اليه اليونانيين الذى طلبوا أن يروه . ألم يتعلم هذا الفن المبارك من معلمه المعمدان ؟

أنه لأمر جوهرى جدا أن يعتزم المرء اتباع هذه العادة المباركة ، رفع صلاة محددة لطلب الأرشاد عما يجب أن يعمل بمجرد الأنتهاء من ساعة الصلاة الصباحية ، الاتصال بابن الله لكى يعطى الكلمة المناسبة فى الوقت المناسب ، طلب الأرشاد لكى يفتح الحديث باظهار بعض الصفات عن التواضع والمحبة التى يخلقها الروح القدس الجميلة فى نظر الأشخاص العاديين ، والتى تلفت أنظارهـم .

تكـلم عن اختبـار . « قـد رأيت وشـهدت أن هـذا هـو ابن الله » (يو ١ : ٣٤) . لقد تحـدث يوحنـا عما رآه وتذوقه ولمسه . يكفيك أن تقـول : « كنت ضالا فوجدنى يسوع ، أعمى فمنحنى البصر ، نجسا فطهر قلبى » .

لا شيء يعمل على أقناع الآخرين بقدر سماع نبرات الاقتناع على شفاه الشخص المفتوح العينين الذى يرى الحق الذى يشير اليه ، والمفتوح الأذنين الذى يسمع التسابيح الأبدية التى يصفها .

تكلم من قلب ممتلىء . ان المحب لا يمكن الا أن يتحدث عن محبته ، والفنان لا يفعل شيئا سوى أن ينقل الى لوحته الفكرة التى اختمـــرت فى عقله ، والموسيقى مضطر أن يظهر بآلته الموسيقيه النغمات التى تتردد فى ذهنه . « لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا » (اع ٤ : ٢٠) .

هل يبدو عسيرا أن يكون لك القلب الممتلىء دواما ؟ يقينا أن هذا عسير ، بل مستحيل ، الا اذا تعلمنا سر الثبات دواما فى محبة الله ، وفتح كل الكيان للروح القدس ، وتغذية القوة الداخلية بالتأمل فى الحق كل يوم . يجب أن نغلق حواسنا عن الأصوات والمناظر المحيطة بنا لكى تنفتح نفوسنا لغير المنظور الأبدى . يجب أن تكون لنا صلة شخصية عميقة بالآب والابن وذلك بواسطة الروح القدس . يجب أن نحيا حياة الأيمان . وعندئذ تتبين ثمارها في سلوكنا وشهادتنا ، كما ترتفع عصارة الكرمة الى الأغصان ، ونتحدث بحقائق يقينية عن يسوع المسيح ، ويصبح حديثنا الوحيد هو المسيح ، المسيح فقط .

واذا ما حان يوم الوفاة وتحدث الناس عن سيرتك فى الماضى قالوا : « لقد حلت بنا خسارة جسيمة . لم يكن من الأفذاذ ، لم يكن فصيحا ولا بليغا ، لكنه كان يتحدث عن يسوع بكيفية جعلتنى أعرفه . اننى مدين له بكل شيء . لم يفعل آية واحدة ، لكن كل ما قاله عن يسوع كان حقا » .

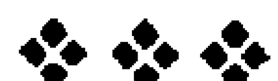
(٣) قوة التأثير الباقى بعد الوفاة .

كانت قد مضت عدة شهور على وفاة يوحنا ، لكن النهر الذى شقه استمر فى فيضانه ، والنبات الذى زرعه أتى بمحصول وفير ، والتموجات التى بدأها فى الماء استمرت فى الاتساع .

كم من أصوات لا زالت تتكلم فى حياتنا ، أصوات من القبر ، أصوات من أسرة الموت ، أصوات من الكتب والعظات ، أصوات من السماء . « وان مات يتكلم بعد » .

فلنعش بحيث اذا ما انطلقنا بقى تأثيرنا ، وبقيت نبرات صوتنا . ليس أحد يعيش لذاته ولا أحد يموت لذاته (رو ١٤ : ٧) . وكل ذرة رمل على شاطىء المحيط تؤثر فى موضع غيرها على . وكل نجم لازم لحفظ التوازن الكامل فى الكون . وكل واحد منا يؤثر على حياة جميع الموجودين معنا الآن فى العالم أو الذين سيوجدون فيما بعد . كل ما فعلناه وقلناه سوف يؤثر على كل الكائنات الأخرى تأثيرا حسنا أو سيئا فى كل الأجيال قد يصفح عنا لأننا أضعنا الفرص التى كانت بين أيدينا ، أو لأننا فجرنا مجارى سم بدلا من مجارى الحياة ، لكن التأثير السىء لن يمحى أبدا .

أيها الآباء والأمهات ، ضعوا أيديكم على رؤوس صغاركم وقولوا عن المسيح كلمات طاهرة حلوة تستعيدها ذاكرتهم بعد ارتحالكم . ياخدام الله ويا مدرسى مدارس الأحد ، اذكروا مسئوليتكم الخطيرة بأن تقولوا كلمات لا تموت ، أيها الصديق كن صادقا وأمينا نحو صديقك ، قد يزدرى صديقك بكلامك أو يهمله ، لكن أذكر أنه لن تموت كلمة طيبة قلتها عن المسيح . بل أنها ستحيا فى كل السنين الطويلة القادمة ، وتأتى بثمار ، كما تثمر الآن فى أرض انكليزية تلك البذار التى ظلت طويلا مخبأة فى توابيت قدماء المصريين .



- ١٧ -

روح إيليــاوقــوته

(لو ١ : ١٧) (١)

ليتنى أضـم الى جـوقة المرنمين غير المنظورين الى الأمـوات الخـالدين يعيشـون ثانيــة فى العقــول التى تهذبت بتأثيرهم فى العـواطف التى سـمت فى أفعـال البطـولة الجـريئة فى احتقـار المقاصـد الدنيئة المتسـمة بمحبة الذات فى الأفكار السامية النبـيلة وباصـرار يحثون البشر للسعى وراء كل ما هو طاهر وجليل

ان الرجال العظماء هم أعظم هبات الله للجنس البشرى . ولا تستطيع البشرية أن تسمو الى مستوى أرفع وأفضل الا بتدخلهم .

يفترض البعض أن نظرية التطور تفسر تاريخ الكون ، ويريدوننا أن نعتقد أن قوات معيـنة تحركت فحسنت هذا الكون العظيم الذى نكون نحن جزءا منه . ويذهب أصحاب نظرية التطور الى مدى أبعد ويقولون ان الانسان نفسه قد تطور من « بروتو بلازما » (المادة التى تتكون منهـا خلبه الأجسام الحية) ، وان عقول الأفذاذ أمثال سقراط وملتون وغيرهما الذين انطبعت آثارهم فى صفحة العالم قد انبعث من مجموعة البشر التى وصلت الى الذروة فيهم .

أما نحن فإننا على العكس نؤمن أنه فى حقبات معينة من تاريخ الكون كان هنـالك تدخل مباشر من ارادة الله ويده . ومما يلاحـظ أن الكلمـة الرائعــة « خلق » كررت ثلاث مرات فى الأصحاح الأول من سفر التكوين ، كأن خلقة المادة وخلقة عالم الحيوان ، وخلقة الأنسان كانت ثلاثة أدوار مختلفة ظهر فيها بصفة خاصة تدخل ارادة الله الأزلى وصنعته .

---

(١) « ويتقدم أمامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الآباء الى الأبناء والعصاة الى فكر الأبرار . لكى يهيء للرب شعبا مستعدا » .

ونعتقد كذلك أنه كانت هنالك عصور عظيمة فى تاريخ الجنس البشرى ، لا يمكن أن تعزى الى تطور الفكر الأدبى والدينى ، لكنها تعزى حتما الى أن الله نفسه تدخل فرفع الجنس البشرى الى مستوى جديد من التفكير والعمل ، وذلك باقامة شخص صار رسول ذلك العصر الجديد ، على ضوء هذه الحقائق لنتطلع الى هذين الشخصين البارزين اللذين كان كل منهما – فى حدود طاقته – رسول عصر جديد فى تاريخ البشرية ، وهما إيليا فى العهد القديم ، ويوحنا المعمدان فى العهد الجديد .

مما يلاحظ أن ملاخى النبى يخبرنا بأن مجىء المسيا كان يجب أن يسبقه مجىء إيليا النبى ليمهد له . ويلاحظ أيضا أن جبرائيل قال بعد أربعمائة سنة أن يوحنا المعمدان ، الذى أعلن عن ميلاده ، سوف يأتى بروح إيليا وقوته . وقد أشار الرب الى هذه النبوة المزدوجة عندما لمح فى حديثه مع رسله وقت نزوله من جبل التجلى الى أن يوحنا المعمدان هو إيليا الذى كان ينبغى أن يأتى . والواقع أنه كان هنالك تشابه عجيب بين هذين الشخصين ، بالرغم من أن كلا منهما اذا ما قورنت حياته بشخصية إبن الإنسان الفريدة المتناهية المجد لوجدت تافهة .

(١) مقارنه بين إيليا التشبى ويوحنا المعمدان .

كان هنالك وجه شبه بينهما فى الملبس ، يخبرنا الكتاب المقدس أن إيليا كان رجلا أشعر (٢مل ١ : ٨) وهذا تعبير يشير على الأرجح الى الثوب الخشن الذى كان يلبسه ، والى خصل الشعر التى تدلت كتفيه . ويوحنا المعمدان كان يلبس ثوبا خشنا من شعر الأبل .

وعاش كل منهما فى جلعاد . ففى العبارة الخالدة التى تقدم إيليا الى دارسى الكتاب المقدس ، والى العالم لأول مرة ، نجد أنه كان من مستوطنى جلعاد (١ مل ١٧ : ١) . وجلعاد هذه هى بقعة عظيمة من الأرض ، ليس بها عدد وفير من السكان ، لكن تكثر بها المواشى والرعاة ، وتقع على الشاطىء الشرقى من نهر الأردن . ونعلم أن يوحنا المعمدان أيضا لبث هنالك وسط الغابات الكثيفة والجبال التى تتدفق منها مجارى المياه ، وتمم خدمته وكرز للجماهير التى إزدحمت حوله وعمدهم .

وقد تعلم كل منهما أن يجعل الجسد مطية للروح . فإيليا أستطاع أن يعيش على الطعام البسيط الذى كانت الغربان تأتى به إليه ، أو الذى كانت تقدمه إليه أرملة صرفة وأستطاع أن يسبق خيل أخاب فى سرعتها الجنونية وسط وادى

يزرعيل ، وبعد فتره إستراحة قصيرة تناول فيها وجبه من الطعام ، وسار بقوة تلك الأكله أربعين نهاراً وأربعين ليله فى قلب الصحراء حتى جاء الى جبل الله حوريب . كان جسده آله للروح النارية التى أستقرت فيه . لم يفكر قط فى إشباع رغباته أو إرضائه ، لكنه كان يعتبره دائما سلاحا فى يد روحه .

وما يقال عنه ينطبق تماما على يوحنا المعمدان الذى كان طعامه جرادا وعسلا بريا ، ويذكرنا الأثنان بالقديس برنارد الذى يخبرنا أنه لم يأكل قط لأشباع شهوة الأكل بل لكى يزداد فى خدمة الله والإنسان .

ونذكر أيضا أن كلا من هذين البطلين واجه عداوة ملك غشوم . فإيليا واجه آخاب وإيزابل مع كهنه البعل وعشتاروث الذين كانوا يتعقبون كل خطواته . ويوحنا المعمدان واجه هيرودس وهيروديا وكل رجال الدين الذين طالما أرسلوا اليه رسلهم ليسألوه هذا السؤال « من أنت »؟ والذين تعقبوا خطواته وأخيرا قتلوه .

ومما يلاحظ بإهتمام أيضا أن كلا منهما كان واثقا بأنه فى حضرة الله . من أروع الكلمات التى نطق بها البشر تلك التى أكد بها إيليا فى حضرة الملك آخاب أنه كان واثقا من أنه فى حضرة الله « وقال إيليا التشبى من مستوطنى جلعاد لآخاب . حى هو الرب اله إسرائيل وقفت أمامه » . وهذه عبارة إستخدمها جبرائيل نفسه فيما بعد عندما قال أنه أحد الملائكة الواقفين فى حضرة « وقال له أنا جبرائيل الواقف قدام الله » (لو ١ : ١٩) .

وهذا الشعور بأنه فى حضرة الله قد تبين فى إتضاعه العظيم عندما إنطرح على الأرض واضعا وجهه بين ركبتيه ، وفى الشجاعة العظيمة التى مكنته من الوقوف كالصخر على جبل الكرمل وكان الملك والكهنه والشعب ملتفين حوله بوفرة عظيمة، وكان فيهم الكفاية لإدخال الرعب فى أية نفس لا ترى القوة السرمدية .

وهذا الشعور قد تبين بصفة خاصة فى حياة المعمدان الذى طالما أشار الى قرب ملكوت الله « قد أقترب ملكوت السموات » . وعندما أتى يسوع ولم تعرفه الجماهير انطرح المعمدان على الأرض ، وفى إتضاع عجيب صرخ قائلا « فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » (يو ١ : ٢٦ و ٢٧) .

وفى كل من الحالتين إقترن هذا الشعور بالوجود فى حضرة الله بشعور آخر عجيب هو عدم الخوف من البشر . عندما التقى عوبديا بإيليا وذهل إذ سمع منه إنه مزمع أن يظهر إمام آخاب لم يشأ إيليا إن يذعن لعوبديا الذى حاول أن يمنعه ، بل قال له : يقينا أننى سوف أظهر أمام سيدك ، أذهب وقل له أن إيليا هنا .

وعندما نزلت النار من السماء فيما بعد ، وكان كهنه البعل واقفين جامدين بجانب مذبحهم ، لم يحجم عن القبض عليهم أجمعين ، والنزول بهم الى وادى نهر قيشون وقتلهم ، حتى جرت المياة حمراء الى البحر .

ظهر أيضا هذا الشعور بعدم الخوف من البشر فى حياة المعمدان الذى تجاسر على إقتحام قصر الملك ، وأكد له إنه سوف يدان بنفس الدينونة التى يدان بها أحقر رعاياه ، وأنه لا يحل له أن تكون له أمرأة أخيه .

وقد مرت فى حياة كل منهما لحظات كآبه وانقباض نفس . ففى حالة إيليا نرى أن مجد إنتصاره العظيم على قمة جبل الكرمل قد أعقبه كآبه مره ثقيلة ، ألم يرتم بعد أربع وعشرين ساعة تحت الرتمة فى الصحراء ، وإذ ذاك صلى طالبا الموت لنفسه لأنه ليس أفضل من آبائه ؟ وهذه حالة قاومها الله الذى يشفق على أولاده ويذكر أنهم تراب على أنه لم يقاومها بعنف أو بتعنيف بل بارسال طعام إليه عالما أنها إنما كانت بسبب أجهاد جسمانى وتوتر فى أعصابه .

أما يوحنا المعمدان فقد أرسل من سجنه أثنين من تلاميذه لسؤال يسوع لئلا يكون قد تفاعل أكثرمن اللازم إذ خشى أن لا يكون هو المسيا الذى تنتظره الشعوب؟

وكان كل من إيليا ويوحنا المعمدان يعتقدان فى معمودية النار . أننا لن ننسى منظر جبل الكرمل عندما أقترح إيليا أن الآله الذى يستجيب بنار يكون هو الله . ولن ننسى كيف بنى المذبح ، ووضع الحطب ووضع الثور فوقه ، وبلل المذبح بالماء ، وكيف سقطت النار أخيرا إستجابة لإيمانه . أما يوحنا المعمدان فلم يجز إختبارا كهذا ، لكن كان إعتقاده الراسخ أن المسيح يجب أن يعمد بالروح القدس ونار .

وكل منهما حول قلوب الشعب الى الله . كان يبدو كأن الأمه كانت مندفعة الى حافة هاوية لا قرار لها كقطيع من الخيول المذعورة فأعادها هذان الرجلان الأعزلان . يستحيل على رجل واحد أن يحول جيشا كاملا هاربا فى ذعر وجنون ، لأنه بطبيعة الحال يكتسح أثناء إندفاعهم ، لكن هذا ما ينطبق تماما على ما نسب لمجهودات كل من إيليا ويوحنا . فالاول حول إسرائيل ليصرخوا قائلين الرب هو الله ، والثانى حول كل الأرض الى التوبة والبر ، حتى أن العشارين والجند والصدوقيين والفريسيين بدأوا يعترفون بخطاياهم ، ويتركون طرقهم الشريرة ، ويرجعون الى اله آبائهم .

وقد أعقبت كلا منهما خدمة أكثر رقة ولطفا فإيليا أرسل من حوريب ليمسح أليشع الذى كانت خدمته كأشعة الشمس المشرقة اللطيفة ، والذى حمل بركة دائمة للرجال والنساء والأطفال . أما يوحنا المعمدان ففتح الباب للراعى المسيح الذى كان يجول يصنع خيرا ، والذى وقعت خدمته اللطيفة المقدسة على جيله بردا وسلاما .

لقد أرسل الأب من السماء مركبة نارية وخيلا نارية لعبده الأمين إيليا لتنقله الى الوطن السماوى من البرية خلف الأردن إذ كان يسير مع اليشع بينما وقف أصدقاؤه وتلاميذه باسطين أياديهم وصارخين قائلين : ان مركبه وخيل إسرائيل تغادرنا حاملة أعز حبيب لدينا ، وفى نفس تلك البرية ، أو على مقربة منها ، صعدت روح يوحنا المعمدان فى مركبة مماثلة . فى الوقت الذى تقدم السياف ووضع حدا لحياته فى الجسد لابد أنه كانت هنالك خيل ومركبات نارية منتظــرة لتحمل تلك الروح النبيلة الشهيدة الى إلهها ، وان لم ترها عين بشرية ، أو يحدثنا عنها مؤرخ .

ان أوجه الشبه رائعة . وهى تبين كيف أن الله يكرر كل ما حدث . وإننا لنستطيع القول أنه كرر نفس الأمر مع قديسى الكنيسة الذين إعتمدوا بنفس الروح ، وأرسلوا لإتمام نفس الخدمة . ان ذلك الروح لا يزال منتظرا ليحل بملئه فينا ، منتظرا ليفعل فينا وبنا نفس العمل من أجل الجيل الذى نعيش فيه .

وان ما فعله هذان الرجلان فى تلك الأجيال قد يتممه الله على أيدى غيرهما قبل نهاية العالم . قد يقوم ثانية رجل أو رجال تسمو حياتهم على أقرانهم . فيتكلمون ويعملون بروح إيليا وقوته . قد يستخدم الله هذه الكلمات فيبعث روح الحياة فى بعض الشبان ليسلموا حياتهم لله فيرسلهم ليحولوا قلوب وحياة الجماهير عن طرقهم الشريرة ، ويردوا قلوب الأباء الى أبنائهم . وقلوب الأبناء إلى آبائهم ويهيئوا للرب شعبا مستعدا .

(٢) لاحظ كيف كانت حياة كل من هذين الرجلين العظيمين أدنى جدا من حياة الرب .

لم يجرؤ اليشع تلميذ إيليا ، ولا أبللوس الفصيح تلميذ يوحنا المعمدان ، على التحدث عن معلميهما بمثل ما تحدث به فيلبس واندراوس ، بطرس وتوما ، عن المسيح . صحيح أنهم كانوا يوقرون معلميهم ويحبونهما كثيرا ، لكنهم عرفوا أنهما كانا بشرا مثلهم وأن طبيعتهما قد صيغت فى نفس القالب ، حتى وان كانت من طينة أرق ، وأنه كانت هنالك حدود لم يستطيعا تخطيها ، وأنهما لم يصلا الى درجة الكمال المطلق ، لم يجرؤ أى واحد منهم على القول « ربى والهى » . لم يخطــر ببالهم قط السجود عند قدميهما وعبادتهما .

لم يصرح إيليا أو يوحنا بمثل ما صرح به يسوع من جهة وحدته الفريدة مــع الله ، ولم يجرؤ أحدهما على أعلان ما أعلنه يسوع من أنه إبن الله بالمعنى الذى جعل إستعمال التسمية لغيره تجديفا . ولم يفكر أحدهما فى أن يرى مقدما لحظه واحده يرى فيها جالسا عن يمين نفسه وأتيا فى سحاب . ولم يجرؤ أحدهما على أن يقرن نفسه باللاهوت فى ضمير الجمع « اليه نأتى وعنده نصنع منزلا » . ولم يحلم أحدهما بقبول الولاء الذى قبله يسوع بطبيعة

الحال عندما سجد له الرجال وغسلت قدميه النساء وقبلتهما . ويحق لى أن أتساءل كيف كان ممكنا ليسوع الوديع المتواضع أن يتكلم ويتصرف بطريقة أخرى إلا إذا كانت طبيعته تختلف كل الإختلاف عن طبيعة سائر البشر مهما بلغت بهم درجة القداسة والتقوى ؟

لأجل هذا رسم هذان الرجلان - المعترف بهما بأنهما من أسمى القديسين بين البشر- خطأ وقالا: لن نستطيع أن نتجاوز هذا الخط ، أننا نشعر بالدنس والضعف ، إننا نتطلب المغفرة والنعمة على قدم المساواة مع من نخدع بينهم .

وهذا يضطرنا الى الأعتراف بأن يسوع المسيح هو كل ما صرح به ، وإنه مستحق أن يأخذ المجد والكرامة والغنى والقوة والبركة ، لأنه هو أدم الثانى ، الرب من السماء .

لم يجرؤ أحدهما أن يقدم نفسه كمعزى البشر ومخلصهم كل ما أستطاعه إيليا هو أن يوبخ الخطية ، الأمر الذى فعله بكل قوة . لكنه لم يكن يملك دواء خطية شعبه وألامهم . كان يستطيع أن يأمرهم بالرجوع الى الله ، وهذا ما فعله . لكنه لم يستطيع التحدث عن أية فضيلة أو قوة تخرج منه لتخلص وتغيث ، لم يخطر بباله لحظة أنه يستطيع أن يعمل كوسيط بين الله والناس ولو أنه كان شفيعا . أما يوحنا المعمدان فإنه بالرغم من أنه قد حرك عواطف شعبه الدينية بقوة فلم يستطع الا أن يشير الى ذاك الذى أتى بعده ويقول « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » . لكن بعد ستة أشهر من بدء خدمته قال يسوع « يا إبنى مغفورة لك خطاياك » ، « إبن الإنسان له سلطان على الأرض أن يغفر الخطايا » ، « يا أبنة مغفور لك خطاياك الكثيرة . أذهبى بسلام » . وبعد ذلك مباشرة قال « هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » وقال أيضا « إبن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » .

هل يمكنك أن تخبرنى عن كلمات فى تاريخ حياة إيليا أو يوحنا المعمدان يمكن مقارنتها بهذه الكلمات التى نطق بها أعظم من وطىء على هذه الأرض تواضعا ودعة ؟ ألا يدل هذا على أنه كان متصلا بالله والبشر ، الأمر الذى لم يتحقق فى سواه ؟

وفضلا عن ذلك فإنهما لم يدخلا الى العالم طابعا جديدا من الحياة . فقد كان يبدو أن طريقة حياتهما تشير الى أن بالجسد خطية أو ان بالمادة خطية ، وأن الطريقة الوحيدة للقداسة هى فى العزلة فى الصحراء والإبتعاد عن البشر. وهذا الطريق للقداسة سلكه كل قائد دينى عظيم ، فنحن نذكر أن بوذا أعتاد أن يقول : ان الحاضر حلم وخيال ، أما الحقائق فإنها تنتظرنا من بعيد .

أما يسوع فقد نادى بأن الفادى هو أيضا الخالق ، وأنه لا شىء نجس أو دنس فى تكوين الإنسان الأصلي، وان الخطية لا تتضمن فى أعمال معينه، أو وظائف معينه ، أو واجبات معينه ، بل فى قلب الإنسان وارادته واختباره ، وأن هذه أن كانت مستقيمة إستنارت طبيعته وظروفه، وذلك بالروح الساكن فيه.

يجب أن لا ينسى أبدا أن المسيح علم بأن الله لا يلاشى الطبيعة التى منحها هو بنفسه بكل مخارجها البشرية البريئة ، لكنه فقـط يقصى محبة الذات التى لعنت هذه الطبيعة ، كما نتمنى أن نقصى المرض من جسم الطفل الصغير

أيها المسيح ، أنك فريد فى مجدك الذى لا يبارى . لينسحب إيليا ويوحنا المعمدان ولتبق أنت . الى من نذهب ؟ كلام الحياة الأبدية عندك . كل الأنبياء وكل الملوك ليست فيهم أيه كفاية بدونك . أما أن كنت أنت لنا كل قوة وكل حكمة وكل صلاح .

(٣) كيف يمكن أن يكون لنا نفس الروح :

جاء يوحنا المعمدان بروح إيليا وقوته . وذلك الروح وتلك القوة هما لنا نحن أيضا . وكما يسطع نور الفجر أولا على أعلى قمم الجبال ، وبعد ذلك إذ تزحف ساعات الصباح تزحف أشعة النور الى أسفل الوادى ، هكذا لا يزال نفس الروح الذى سطع على قمة جبل إيليا الأسمى ثم على المعمدان منتظرا لينزل إلينا ويقوينا .

كلنا مؤمنون بيسوع ، لكنه هل قبلنا ملء الروح القدس ؟ (١ع ١٩ : ٢) . لما التقى رسول الأمم العظيم بتلك الحفنة من تلاميذ يوحنا التى كانت مجتمعة فى مدينة أفسس الوثنية العظيمة كانت أول كلمة وجهها اليهم هى هذا السؤال الجوهرى « هل قبلتم الروح القدس لما أمنتم » ؟ فأجابوا « ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس » . وبتعبير أخر : لقد سمعنا من معلمنا يوحنا أن يسوع الذى تحدث عنه يعمد بالروح القدس ونار ، لكننا لم نسمع قط عن أتمام نبوته هذه ، إننا نعرف عنه فقط أنه هو المعلم العظيم ، وصانع المعجزات ، والذبيحة عن خطايا الشعب ، لكننا ننتظر أن نسمع منك ما يجب أن نعرفه عنه أكثر .

بعد ذلك بدأ بولس يشرح لهم أن معمودية يوحنا كانت فقط للإعتراف بالخطية والتوبة عنها . « ان يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلا للشعب أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده أى بالمسيح يسوع » . الذين نزلوا الى مياه الأردن ليغطسوا فيها أعلنوا عن سخطهم على الماضى ، ورغبتهم فى التحرر منه ، وأيمانهم بأن يسوع الناصرى هو المسيح الذى سوف يأتى بعهد جديد أفضل .

لكن الرسول أسرع ليبين بأن يسوع هذا الذى أسلمه اليهود وقتلوه بأيد أثيمة هو هو رئيس الحياة ، وأن الله أقامه من الأموات ، وأنه إذ أرتفع الى يمين الله وأخذ من الأب موعد الروح القـدس سكبه بقوة على الكنيسـة المنتظرة ، ومسحها لخدمـة البشر . وكأنه قد قال : ان الرب عند صعوده عمـد المؤمنين بالروح الذى تحـدث عنه يوئيل . كانت مياه معمودية يوحنـا سلبية ، أمـا هذه المعمـودية فأنها إيجابية . أنها النار المنقية المطهـرة ، كانت معرفة يسوع فى الجسد نافعة ، لكن معرفته فى الروح أفضـل . وهذه الموهبة هى لنا ولاولادنا ولكل الذين على بعد كل من يدعـوه الرب الهنا .

ولما سمعوا هذا أعتمدوا باسم الرب يسوع . ورفعوه فوق عرش قلوبهم كأبن الله المجد المبارك الى الأبد . وشخصوا بعيونهم نحوه فى مجد قيامته ،

راجين أن يصنع معهم كما صنع بالكثيرين من قبل . واستجابة لأيمانهم القوى حلت عليهم بركة إبراهيم ، وقبلوا موعد الروح القدس بالإيمان . وإذ حل عليهم الروح القدس تأهبوا لحمل الشهادة فى أفسس بنفس القوة التى سبق أن حلت على إيليا، وأيضا على معلمهم وزعيمهم السابق. ونتيجة لهذا حدثت نهضة قوية فى تلك المدينة المتسعة، حتى أن كتب السحر أحرقت وتأثرت جدا مهنة الصياغ.

إن قوة الروح القدس هذه هى لنا أجمعين. وطبيعى أنه لم يكن ممكنا لنا أن نؤمن بيسوع لغفران الخطية أو لأنعاش حياتنا الروحية بدون عمل الروح القدس.

لكن هنالك ما هو أكثر من ذلك ، هنالك القوة التى تؤهلنا للخدمة ، التى هى أمتياز كل مؤمن . ان الروح القدس مستعد ليس فقط أن يكون فينا للتجديد والتقديس بل للإعداد للخدمة . هو ينتظر لكى يهبنا القوة للشهادة ليسوع ، ولإحتمال الآلام والأضطهادات التى تقترن عادة بخدمة الله ، وللمجىء بالأخرين الى الله . فمن الخير أن نصلى طالبين هذه القوة . خير لنا أن ننتظر قطار الأكسبريس بضع ساعات من أن نسير المسافة على أقدامنا ، فساعات الإنتظار تعوض أضعافها سرعة القطار .

استرح قليلا من عملك ، وانتظر يسوع ، يملأك بالروح القدس . أطلب منه بالحاح ان يملأك . لا تهدأ حتى تتأكد من أن الروح يسكن فيك بملئه ويعمل فيك بقوته . ان طلبناه من يسوع لن يردنا خائبين . أمن بهذا . أمن بأنه ان كان قلبك نقيا ، وعواطفك مقدسة ، ورغبتك حارة ، فأنه حسب أيمانك يكون لك ، وتستطيع أن تخرج متمتعا بنفس القوة التى حلت على المعمدان . ولو لم تحس بهذا بإحساس غير عادى ، ولم لم تنزل ألسنة من نار ، أو يحدث هبوب ريح عاصفة .

لا يزال الرب قادرا أن يمنحنا قدرا من ملء روحه القدوس مساويا للقدر الذى أعطاه للتلاميذ يوم الخمسين ، لسنا متضيقين فيه بل فى أنفسنا . ان قوة نعمته لم تذهب مع الأجيال الأولى كما يزعم عديمو الإيمان . لكن ملكوته الأن قريب ، والمسيح ينتظر لكى يقود كنيسته الى إنتصارات أعظم مما عرفته من قبل . أه ، ليته يخرج من غرفته الملكية . ليته يتخذ عرشه كملك ملوك الأرض ، ليته يرتدى ثوب عظمته ويمسك بصولجان سلطانه غير المحدود . الخليقة تئن . والروح والعروس يقولان تعال . لقد جرب ذهن الإنسان كل مظاهر العظمة عبثا .

أيها الرب يسوع المسيح ، يامن فى مجيئك الأول أرسلت ملاكك ليهيىء الطريق قدامك ، أمنح خدامك ووكلاء سرائرك أن يهيئوا طريقك أيضا بتحويل قلوب العصاة الى حكمة الأبرار ، حتى حينما تأتى ثانية لدينونه العالم نكون نحن شعبا مقبولا فى نظرك ، يا من تحيا وتملك مع الأب والروح القدس الها واحدا الى الأبد أمين

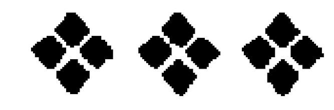
❖❖❖

فهـــرس

للمعرب أيضا

حياة يوسف
حياة إبراهيم
حياة إيليا
حياة أرميا
حياة موسى
حياة يسوع
حياة بطرس
حياة بولس
حياة نبى الرجاء (زكريا)
حياة داود
حياة يعقوب
حياة صموئيل
المسيح فى اشعياء
تفسير أنجيل متى (٤ أجزاء)
تفسير أنجيل مرقس (جزاءان)
تفسير أنجيل لوقا (٣ أجزاء)
تفسير أنجيل يوحنا (٤ أجزاء)
تفسير رسالة رومية (جزئين)
تفسير سفر نشيد الأنشاد
تفسير سفر الجامعة
تفسير سفر نحميا
تفسير سفر أستير
تفسير نبوة يوئيل
تفسير نبوة عاموس
تفسير نبوة عوبديا
تفسير نبوة يونان
تفسير نبوة هوشع
تفسير رسالة فيلبى
تفسير العبرانيين (تحت الطبع)
الطريق الى الله
الزرع والحصاد
الصلاة المقتدرة
وزنت بالموازين
حياة انطونيوس للقديس اثناسيوس
تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس
رسالة ضد الوثنيين للقديس اثناسيوس

رسالة عن الروح القدس	للقديس اثناسيوس
رسائل متفرقة للقديس اثناسيوس	(تحت الطبع)
كيف تدرس الكتاب المقدس	
أسرار الكنيسة السبعة	(باللغة الأنكليزية)
حياة الخادم	
الأستعداد للتناول من الأسرار المقدسة	
الدسقولية	
المسيح فى حياة الطالب	
سر الحياة الداخلية	(تحت الطبع)
أمثلة المسيح	
تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصرى	
حياة قسطنطين ليوسابيوس القيصرى	(تحت الطبع)
الرب قريب	
حياة الذات	
خمسة التزامات	
سر الإرشاد	
المحبة الفائقة المعرفة	
اثناسيوس الرسولى لغريغوريوس النازيزى	
حياة المسيح حسبما صورها مرقس الأنجيلى	
قداسات الكنيسة الأثيوبية	إنكليزى وعربى
خيمة الإجتماع	(تحت الطبع)
الكهنوت	(تحت الطبع)
الذبائح	(تحت الطبع)
شهادة علم الآثار للكتاب المقدس	
تفسير قداس الكنيسة القبطية	
الأسرار المسيحية للقديس كيرلس الأورشليمى	(تحت الطبع)
مزمور الراعى	
أسرار الحياة المسيحية	
مخدع الصلاة	
مخلصون ومحفوظون	
تفسير المزامير لأوغسطينوس	
أضواء على الحياة اليومية	
القراءات اليومية فى الأسفار الألهية	(أربعة أجزاء)
الصلاة الربانية	
الحياة المباركة	



رقم الإيداع ٣٣٩٤ / ١٩٨٠
الترقيم الدولى ٧ - ٦ - ٠٦ - ٧٣٢٩ - ٩٧٧

طبع بشركة هارمونى للطباعة
ت : ٦١٠٠٤٦٤





MAHABA BOOKSHOP  مكتبة المحبة

٣٠ شارع شبرا ناصية شارع الهيئة – ت : ٢٤٤ ٥٧٥٩ - ٧٧٧٤٤٨ – ص. ب. رقم ١٢ قصرورة الشوام